العزلة، الفصل، الحجر الصحي

تحرير: جميل هلال

2020

مؤسسة عبد المحسن القطان
A M QATTAN FOUNDATION

العزلة، الفصل، الحجر الصحي

أنتج في فلسطين

الطبعة الأولى 2020

© مؤسسة عبد المحسن القطان

ISBN 978-9950-313-92-4

تحرير: جميل هلال

نصوص: أميرة سلمي، غسان الخطيب، هاشم أبو شمعة، ساندي هلال وأليساندرو بيتي، جميل هلال، خالد حوراني، شوريدة مولوي، يارا هوّاري، مات أوفدرهوست، ماكس هيفين، فانويل أنتوي

تصميم: iPrint

تنسيق: شادي بكر

ترجمة: جمانة عباس، آرسن (جابر) أغازريان، دعاء علي

تدقيق لغوي (عربي): عبد الرحمن أبو شمَّالة، قيس عمر

تدقيق لغوي (إنجليزي): مارغريت دباي

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

مؤسسة عبد المحسن القطان

27 شارع جمعية النهضة النسائية

الطيرة - رام الله، فلسطين

ص . ب .2276 / الرمز البريدي 90606

هاتف: 0097022960544

www.qattanfoundation.org

info@qattanfoundation.org

الآراء الواردة هنا لا تعبر بالضرورة عن رأي مؤسسة عبد المحسن القطان.

المحتويات

تقديم المحرر 5
جميل هلال

قراءة أولوية في مدلولات أزمة وباء كورونا 17
جميل هلال

تداعيات جائحة كورونا على الاقتصاد العالمي 33
غسان الخطيب

حياةٌ مسكونةٌ بالقلق 51
خالد حوراني

كورونا أوقعَت بنا 67
مات أوفدرهورست

دار: بيت بين العام والخاص 75
ساندي هلال وأليساندرو بيتي

من الديستوبيا إلى اليوتوبيا: تخيّل مستقبل راديكالي 87
يارا هواري

جائحة في فلسطين، لا وجه للمقارنة 99
شوريدة مولوي

الوباء والقهر الاستعماري والرأسمالي 113
أميرة سلمي

ليست دولتنا: حول التخيلات الفلسطينية للتحرر 133
هاشم أبو شمعة

حطامنا في ميدوسا: حوار حول الاقتصاد، الذكورة والعرق في سياق وخارج سياق الوباء 147
ماكس هيفن و فانويل أنتوي

المقدّمة

أبعد من وباء

المحرر

ما زال وباء الكورونا (كوفيد19-) يواصل انتشاره بعد أكثر من ثمانية أشهر من بدء تفشيه في بلدان العالم، وما زال البحث جارياً في مراكز عدة عن طعم مضاد لهذا الوباء. وما زالت الأسئلة المطروحة هي الأسئلة ذاتها التي طرحت في بدايات انتشاره وما ترتب عليه من إغلاقات وإجراءات وقائية فرضت حالات طوارئ على جزء كبير من البشرية؛ سواء في موجته الأولى، أو في موجته الثانية التي بدأت في عدد من الدول مع بدء فصل الخريف العام 2020.

سرعة انتشار الوباء على الصعيد العالمي وما رافقة من قيود على الحركة والتنقل والتجمع، طرحت أسئلة جوهرية حول طبيعة النظام الاقتصادي العالمي القائم، ودوره في تهيئة ظروف نشأته وانتشاره السريع، وما نتج عنه من ارتفاع في منسوب الإفقار والبطالة، وتوسيع انكشاف فئات واسعة من الناس لمخاطر البؤس والفقر. وطرحت أزمة الوباء أسئلة ملحة عن مسؤولية النظام الرأسمالي النيوليبرالي عن تعميق اللامساواة في المجتمعات وبينها، ومسؤوليته عن توتير علاقة البشر مع البيئة الحيوانية والنباتية والمناخية، وبالتالي عن تهيئة الشروط المواتية لتوليد ونشر فيروسات فتاكة جديدة تهدد الحياة البشرية.

أثـار الوبـاء إحساسـاً واسـعاً بالحاجـة لإحـداث تغيـرات بنيويـة للعولمـة كـما تشـكلت خـلال العقـود الأربعـة الأخـيرة، وعـلى دور ومحـركات المؤسسـات الدوليـة التـي أصـاب العديـد منهـا الشـلل والارتبـاك وقلـة الحيلـة مقابـل تنامـي النزعـة القوميـة المتشـددة والمنغلقـة، مـع ترسـخ قيـم الربـح والفردانيـة وآليـات اقتصـاد السـوق المنفلـت مـن رقابـة المجتمـع في إمـلاء أنمـاط العلاقـة بـين النـاس. الكتـاب يضـم مداخـلات وتأمـلات عـدة تناولـت موضوعـات حـول معنـى انتشـار الوبـاء وتداعياتـه، بمـا في ذلـك، ولكـن ليـس فقـط، تداعياتـه عـلى الوضـع الفلسـطيني في ظـل السـيطرة الاسـتعمارية الاسـتيطانية عـلى فلسـطين التاريخيـة.

تجـدد موجـات الوبـاء سـاهم في تجـدد القلـق حـول المسـتقبل وشروط البقـاء ونمـط العاقـلات الـذي سيسـود بـين البـشر وفي العلاقـات الدوليـة بعـد انحسـار الوبـاء، وموضوعـات أخـرى ذات صلـة، كـما يحـاول مـا يـلي مـن هـذه المقدمـة أن يبـين.

كورونا؛ قراءة لتداعيات الوباء على الاقتصاد العالمي وعلى الثقافة

يناقـش مقـال غسـان الخطيـب (المعنـون "تداعيـات جائحـة كورونـا عـلى الاقتصـاد العالمـي") التداعيـات الاقتصاديـة والاجتماعيـة لوبـاء كورونـا، مشـيراً -بـادي ذي بـدء- إلى أن الاقتصـاد العالمـي كان يعيـش حالـة تراجـعٍ قُبيـل انتشـار الوبـاء الـذي دفـع الحكومـات، وإن بتفـاوت ملحـوظ، بعـد أن تراجعـت إيراداتهـا نتيجـة إجـراءات محاربـة انتشـار الوبـاء، إلى زيـادة الإنفـاق في مجـال مخصصـات البطالـة والمسـاعدات للذيـن فقـدوا دخلهـم، إضافـةً إلى توفـير الإسـناد للأعـمال المهددة بالانهيـار لتمكينهـا مـن الاسـتمرار وتوفـير أُجـور لموظفيهـا. كـما اضطـرت العديـد مـن الحكومـات إلى زيـادة إنفاقهـا عـلى الاحتياجـات الطارئـة والرعايـة الصحيـة.

يعيـد المقـال تراجـع مـؤشرات الاقتصـادي العالمـي قبـل جائحـة كورونـا إلى سـببين رئيسَـين، وهـما التوتـر في العلاقـات الاقتصاديـة الصينيـة الأمريكيـة، والسياسـات الماليـة الأمريكيـة، إضافـة إلى عـدم الاسـتقرار في أسـعار النفـط الناتـج عـن المضاربـة بـين الـدول المنتجـة والمصـدرة للنفـط. وقـادت التداعيـات الاقتصاديـة للوبـاء إلى تراجـعٍ حـادٍّ في المـؤشرات الاقتصاديـة المختلفـة، وفي مقدمتهـا مـؤشر النمـو الـذي تراجـع عـلى المسـتوى العالمـي، ودفـع المؤسسـات الاقتصاديـة والماليـة الدوليـة إلى اعتبـار أنّ الاقتصـاد العالمـي قـد دخـل في حالـة ركـودٍ اقتصـادي. ويـورد المقـال جـدولاً صـادراً عـن صنـدوق النقـد الـدولي في حزيـران 2020، يبـين مقـدار تأثـر دول العـالم نتيجـة تداعيـات الوبـاء، مشـيرا إلى إجـماع المؤسسـات الدوليـة الاقتصاديـة والماليـة المختصـة عـلى اعتبـار الأزمـة الاقتصاديـة الراهنـة أعمـق وأكـثر حـدةً مـن الأزمـة الماليـة للعـام 2008، وأنهـا الأخطـر بعـد الكسـاد الكبـير العـام 1929.

ويستشـهد المقـال بالتراجـع الـذي سـبب الوبـاء للتجـارة العالميـة، نتيجـةً لضعـف الطلـب، وانهيـار السـياحة العابـرة للحـدود، واضطـراب الإمـدادات الناتجـة عـن الإغلاقـات العامـة. ويشـير المقـال إلى زيـادة أزمـة الكورونـا للتضخـم المـالي، وللعجـز في الميزانيـات، والارتفـاع الديـن العـام. كـما يتنـاول المقـال الارتـدادات الاجتماعيـة لتراجـع المـؤشرات الاقتصاديـة، ومـن أهمهـا ارتفـاع معـدلات البطالـة. وحسـب تقديـرات منظمـة العمـل الدوليـة، فـإن وقـع البطالـة كان أكـبر عـلى النسـاء، مـا يعنـي تفاقـم اللامسـاواة بـين الجنسـين في مجـال العمـل. ويشـير ارتفـاع معـدلات البطالـة إلى ارتفـاعٍ متناسـبٍ في معـدلات الفقـر (أو الإفقـار للدقـة). كـما أن الـدول الفقـيرة تتحمـل، أكـثر مـن الـدول الغنيـة، خسـائر كبـيرة عـلى المسـتويين الإنسـاني والاقتصـادي، مـا سـيزيد مـن اللامسـاواة عـلى الصعيـد العالمـي. ولا يغفـل المقـال تأثـير الأزمـة السـلبي عـلى تراجـع التعليـم، ومـا لهـذا مـن آثـار سـلبية بعيـدة المـدى عـلى رأس المـال البـشري الـذي يُعـد مـن أهـم مقومـات التنميـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة.

ويخلـص المقـال إلى اعتبـار أن الأزمـة سـتجعل مسـار العولمـة الرأسـمالية أبطـأ، لكنهـا ستسـتعيد دورهـا بعـد انحسـار الأزمـة.

أثـارت إجـراءات مواجهـة الكورونـا شـكوك الكثيريـن حـول مـا يترتـب عليهـا مـن انقطـاع الأعـمال والبطالـة، وبـات البعـض يخـشى أن يفـوق الخطـر المترتـب عـن الإجـراءات المتبعـة حجـم الخطـر المترتـب عـلى الفـيروس نفسـه. وبـات مـن الصعـب إقنـاع النـاس بالمنظومـات السياسـية والاقتصاديـة والصحيـة التـي تحكـم العـالم. أمـران أثـارا حـيرة حـوراني (في مقالـه المعنـون "حيـاة مسـكونة بالقلـق") حيـال وبـاء الكورونـا: الأول أن الدولـة (بمـا في ذلـك ذات المؤسسـات الفاسـدة) باتـت هـي مرجـع التصرفـات ومدعيـة الحـرص عـلى صحـة مواطنيهـا وسـلامتهم. والثـاني أن المثقـف أصبـح مطيعـاً في زمـن الخـوف، وبـات منصاعـاً للنظـام وتعليـمات السـلامة التـي تطرحهـا مؤسسـات الدولـة أو السـلطة الحاكمـة.

لعـل الأهـم هـو مـا لاحظـه خالـد حـوراني، وهـو فنـان تشـكيلي، كتداعيـات للوبـاء مـن ارتبـاك الفـن ومؤسسـاته في فلسـطين وفي العـالم، الـذي يشـبه مـا حـدث للمؤسسـات والنشـاطات الرياضية وللنشـاطات التـي تحتـاج لجمهـور مبـاشر كالمتاحـف والمهرجانـات ودور السـينما. ولاحـظ أن أثـر الوبـاء في فلسـطين كان أشـد بحكـم غيـاب دولـة ذات سـيادة وذات سـيطرة عـلى الحـدود والمـوارد الطبيعيـة والحركـة الداخليـة والخارجيـة، وبحكـم غيـاب مؤسسـات ترعـى المبدعـين واحتياجاتهـم، وهـو أمـر يـسري عـلى فئـات أخـرى محتاجـة كالعاطلـين عـن العمـل. ويضيـف حـوراني: "عـلى المسـتوى الشـخصي عندمـا كنـت أبحـث عـن الفنـان في داخـلي، كنـت أجـد عامـل الصيانـة. لم أكـن فنانـاً ولم أشـعر بقـدرة الفـن عـلى مسـاعدتي في تلـك اللحظـة". ويضيـف: "في فلسـطين لم يكـن الحـال الـذي سـبق كورونـا طبيعيـاً، لنأمـل العـودة إليـه بفـارغ الصـبر، وربمـا أضفـى هـذا الوبـاء

ظلالاً على كيفية النظر من جديد إلى الحالة السياسية والثقافية، وعلى المعنى الثقافي لهذا الصراع في ظل الوضع العالمي. سماع الأخبار، فكرة المشترك الإنساني في لحظة الخطر، التأمل في كثير من الأشياء وإعادة التفكير في وضع الفرد المهدد بالقلق والتوتر على نحو شخصي".

الوباء في زمن الكورونا؛ تطلع للتعافي

يتأمل مات أوديير هورست في مقاله المعنون "الكورونا أوقعت بنا"، وبلغة تأملية، في إمكانيات أن يغيّر الوباء صورة أجسادنا ووعينا لأنفسنا وللآخرين، ويتساءل عما إن كانت ثقافتنا واقتصادنا والرأسمالية والأنظمة الصحية السائدة بحوزة الحيوية الضرورية للتصدي لأزمة الكورونا. المقال يأخذ شكل سلسلة من النصائح والتوصيات (عددها خمسون بالضبط) يقدمها كاتب المقال للقارئ حول أفضل الطرق للتعامل مع الوباء، ولذا فالمقال عصي على الاختصار. من هذه النصائح، على سبيل المثال؛ "الحذر هو فكرةٌ جيّدةٌ في زمن الوباء؛ تبيّن المساحة التي تقع أمامك. أمّا التريّث فهو فكرةٌ أفضل؛ اعرف المساحة التي تمضي وقتك فيها. لكنَّ أفضل نصيحةٍ هي الاحتراز؛ احترم المساحة، مساحتك ومساحة الآخرين". يليها تماماً نصيحة تقول؛ "أن ندفن أنفسنا بصمتٍ في زمن الوباء هو أمر لا يؤذينا نحن فحسب، بل يؤذي أصدقاءنا أيضاً، ناهيك عن العائلة. الحسّ السليم دائماً يتنفّس من الحوار الودّي. فلئن أحطت نفسك بسور، فإنَّ الهواء والماء يصبحان نادرَين على المدى البعيد. حتّى لو كان هناك قدرٌ كافٍ من الموارد في البداية على الأقل".

قد نتفق مع معظم نصائح الكاتب، لكن كثيرنا قد لا يتفق مع مطلق النصيحة التي يختتم فيها الكاتب مقاله بالقول: "في زمن الوباء، الحبّ فقط هو ما يفيد. فلئن لم يكن متوفّراً، لأيّ سببٍ كان، يُنصح بالطيبة والعطف والتسامح".

من الصعب أن لفلسطيني، المحاصر في معازل الاستعمار الاستيطاني العنصري، أن ينظر بالطيبة والعطف والتسامح لمن يقمعه ويسرق أرضه ويشرده ويمنعه من العودة إلى وطنه الأم!!

في المداخلة المعنونة "دار: بيت بين العام والخاص" (لساندي هلال وأليساندرو بيتي)، و"دار" (جمعية دار للتخطيط المعماري والفني) هي منزل أحد أهدافه البحث في العلاقة بين المساحة الخاصة (الممثلة بالبيت) كموقع للرعاية وبين المساحة العامة كموقع للحكم، أوجدت "دار" مساحات جماعية مختلفة على الحدّ القائم بينهما. تلاحظ المداخلة أن دور البيت وعلاقته بالعموم تغيّر جذرياً خلال جائحة الكورونا، وهو ما فرض إعادة التفكير في البيت ودوره في المجتمع. وتستند المداخلة إلى تجربة "دار" في توضيح "الأعتاب القائمة بين الفنّ، والعمارة والتعليم". كما تستخدم بتوسع مقتطفات من كتاب للمؤلفين معنّون "المؤقّت الدائم"، لحوار جرى حول العلاقة بين الحيز الخاص والحيز العام وتحول وظائفهما

في الأزمات وحالات الطوارئ كما حدث خلال الانتفاضة الأولى، وكما يحدث الآن في ظل أزمة الكورونا. وتستشهد المداخلة بتجربتين نجحتا في تحويل مساحة البيت إلى مساحة جماعية للعمل الاجتماعي والسياسي. تستند الحالة الأولى إلى تجربة المؤلفة في مخيم الفوّار للاّجئين في فلسطين، حيث نحج مسعى إنشاء ساحة عامة في المخيّم مخصصة لنساء المخيم، شرط أن تكون الساحة محاطة بجدران، والتي سرعان ما أصبحت مكاناً مثالياً لحفلات الزفاف، والتعازي، وتجمّعات النساء. وتستند الحالة الثانية إلى تجربة عائلة سورية لاجئة في شمال السويد حولت غرفة المعيشة الصغيرة في بيتها إلى مكان يستضيف ممثّلين عن الدولة السويدية، رافضة قبول دور الضيف الأبد عبر التحول، أيضاً، إلى مضيف. ويستخلص الباحثان أنهما أدركا "أنّه خلال سنوات ممارستنا الطويلة في فلسطين، قمنا بتطوير جمعية لتحويل مساحة المنزل الخاصة إلى مساحة جماعيّة ومشتركة. يمارس العديد من الأشخاص حقّ الاستضافة دون إدراك القوّة التي تحملها".

عن العبور من الديستوبيا إلى اليوتوبيا ومواجهة البنى الاستعمارية الاستيطانية في فلسطين

تنطلق مداخلة يارا هواري في مقالها المعنون "من الديستوبيا إلى اليوتوبيا: تخيّل مستقبل راديكالي" من حقيقة أن الواضح أنَّ وباء الكورونا يسلّط الضوء على بنى وأنظمة القوّة واللامساواة في المجتمعات، لتشير إلى أنَّ "الواقع الجديد "الديستوبي" الذي وجد العالم نفسه فيه، يتضمّن الكثير من سمات الحياة اليوميّة التي يعاني منها الكثير من الفلسطينيّن بسبب ما يقارب من القرن من الغزو الاستعماري-الاستيطاني المستمرّ". لتطرح ضرورة الابتعاد عن الواقع المرير (الديستوبي) الراهن، وتخيّل مستقبل راديكالي لفلسطين، موضحة أنَّ الخيال العلميّ ليس شائعاً في الأدب الفلسطيني، لذا تستشهد بمجموعة قصصية صدرت العام 2019 تحت عنوان "فلسطين 100+: قصص من قرن بعد النكبة"، حيث تولى كتّاب فلسطينيون جمع عوالم الخيال العلمي والديستوبيا لتصوير فلسطين بعد مائة عام من التطهير العرقيّ الذي وقع سنة 1948. وتستخلص محررة الكتاب أنَّ الخيال العلمي لا يطرح تغييراً حاداً جداً للكتّاب الفلسطينيين، فالحياة اليوميّة للمقيم منهم في فلسطين هي شكل من أشكال الديستوبيا. وتؤكد الكاتبة أنَّ النكبة ما زالت متواصلة، حيث تتمظهر يومياً فيما يتعرض له الفلسطينيون من استعمار استيطاني عنصري، ومن محو وطمس لتاريخهم وتراثهم. وتحت هذا النظام الاستعماري الإسرائيلي تتم مراقبة الحياة الفلسطينية، وإن تباينت بين تجمع فلسطيني وآخر. وترى الكاتبة أن خلق مدينة فاضلة من ذكريات الماضي، يشكّل طريقة فعّالة للإبحار الفلسطيني في الحاضر الديستوبي.

وتلاحظ الكاتبة أن "النوستالجيا تقفز، في كثير من الأحيان، عن الجوانب الأقلّ جاذبية في الماضي، إلا أنَّها في الوقت نفسه تلقي الضوء على تلك الجوانب الغائبة من الحاضر". والنوستالجيا قابلة لأن تكون زمانية، أو مكانيّة، ولا تلغي الواحدة منهما الأخرى، وهما تتقاطعان في سرديّة الفلسطينيّين. وتستخلص أن الجوائح، بما فيها جانحة الكورونا، أجبرت البشر على القطيعة مع الماضي، وعلى تخيّل عالم جديد. وترى أن فلسطين تجمع الكثير من بنى السلطة الأشدّ قمعاً وخراباً، وأن وباء الكورونا يوفّر فرصة لإعادة التفكير والتخيّل، وبوابة عبور من الديستوبيا إلى اليوتوبيا، وتتساءل عما إن كنّا سنستطيع كفلسطينيين الخطو لعبورها.

في مقالها المعنون "الوباء في فلسطين، ليس تشبيهاً"، تناقش مولافي، بشيء من التفصيل، دور مجموعة إسرائيلية باسم ا(NSO) تنتج أسلحة ومعدات إلكترونية مبرمجة للترصد ودعم نشاطات الحكومة غير القانونية في قرصنة وسائل الاتصال لشخصيات معنية بحقوق الإنسان ولمحامين وصحافيين ونشطاء في المعارضة، وتسويق هذه لمن يرغب من حكومات العالم، منوهةً بأن التحول إلى وسائل الاتصال الإلكترونية يجعلنا، كأفراد، مكشوفين للرقابة والترصد. وكانت حكومة نتنياهو قد استخدمت أزمة وباء الكورونا لتبني إجراءات توسّع من سلطة جهاز الأمن الداخلي (الشين بيت) لتعقب حركة الأشخاص المصابين بفيروس كوفيد 19، لكنها قابلة لاستخدام انتهاك الخصوصية، ولإسكات صوت المدافعين عن حوق الإنسان تحت شعار الحد من انتشار وباء الكورونا. وترى الكاتبة أن تطبيع استخدام البرمجة الرقمية الإسرائيلية للسيطرة والرقابة لا ينبغي فصلها عن الممارسة الإسرائيلية الاستعمارية في فلسطين. وتشير إلى كيف عمّق انتشار الوباء من البنى والممارسات القائمة على التمييز العنصري. وهي تلاحظ المنحى الأمني الذي اتّخذته إسرائيل خلال الوباء، مستندة إلى البنية العسكرية القائمة على سلب الشعب الفلسطيني والتميز ضده. وتنهي مقالها بالحديث عما يمكن تعلمه من تفحص البنى الاستعمارية الاستيطانية والعنصرية التي استخدمت في فلسطين لفهم استنفار بنى قمعية في أماكن أخرى، مستشهدةً بتوصيات شاب من غزة لغيره من الشباب الفلسطينيين لكيفية التعامل مع العزلة كي يحافظوا على معنويات عالية في مواجهة الحصار والعزلة.

التغريب والاستغلال للعامل الفلسطيني في إسرائيل ومحاصرته في بنية تراتبية عنصرية

تسعى أميرة سلمي في مداخلتها المعنونة "الوباء والقهر الاستعماري والرأسمالي" إلى إضاءة بعض ما كشفه وباء كورونا من فجوات وإشكاليات في النظام العالمي القائم، وبخاصة استثناء العمال غير المهرة المشتغلين في صناعات أو أعمال اعتبرت "حيوية" و"ضرورية"، من

إجراءات الوقاية الصحية التي اعتمدت في دول عدة وفي فلسطين. وهي تقدم أمثلة عن الكيفية التي يصبح فيها الاستثناء والقمع أكثر انكشافاً في حالة الوباء، وإلى أي مدى يؤدّي هذا الانكشاف إلى تطبيع أشكال القهر والاستغلال للعمال والفقراء، بدلاً من أن يكون كاشفاً للتناقضات التي تنتجها الرأسمالية. وتثني سلمي، على رأي جورجو أجامين أن الوباء، يوفر ذريعة للدولة لاتّخاذ إجراءات استثنائية، تقود إلى تجريد حياة الناس من أبعادها السياسية والاجتماعية واختزالها في بعدها البيولوجي فقط. وبالتالي، قد يؤدي الوباء (أو بالتحديد سياسات وإجراءات "محاربته") إلى تعزيز انفصال الإنسان عن ذاته. وهي تشير إلى أن أجامين يأمل في تبلور شيء إيجابي من الوباء، لأنه قد يدفع الناس إلى التساؤل عما إذا كانت طريقتهم السابقة في الحياة صحيحة أم لا.

ترى الكاتبة أن كون المجتمع الفلسطيني مجتمعاً مستعمَراً، كان وراء الكيفية التي تعامل بها العمال الفلسطينيون مع اللايقين الذي يفرضه الوباء، وترى أن ذلك ظهر، بشكل واضح، في رفض الخضوع لإجراءات "الطوارئ". فالعامل الفلسطيني لا يدرك نفسه إلا كعامل والمخاطرة التي توسم حياته كعامل في إسرائيل، لم تكن عاملاً يحول دون توجهه إلى العمل. وهي تشير إلى تناقض بين السيادة السياسية الوهمية للسلطة الفلسطينية، وبين تبعيتها الاقتصادية وافتقارها لأي شكل من السيادة "الأمنية" على الأرض. وتتعامل إسرائيل مع العامل الفلسطيني كعامل مهاجر، وتفرض عليه سمات العامل المهاجر، من حيث كلفته المتدنية، وكونه غير مؤهل لأيٍّ من حقوق العمل التي يتمتع بها العامل الإسرائيلي، وفي الوقت نفسه هو عمل يتوفر بأقل من التكلفتين السياسية والاقتصادية لعمل أفراد مهاجرين أو أجانب. فالعامل الفلسطيني يعمن في إسرائيل يومياً أو أسبوعياً ثم يعود إلى أحد المعازل التي أحاطتها إسرائيل بجدران وأغلقتها بحواجز عسكرية، وهو ما لا يمكنها أن تقوم به في حالة العمال المهاجرين.

تناقش مداخلة سلمي، بشيء من التفصيل، أوضاع العمال الفلسطينيين المشتغلين في إسرائيل من حيث الأجور، والأمن الوظيفي، وشروط العمل وظروفه، ومخاطر التنفل من مكان العمل وإليه، رابطةً هذا الواقع بالوضع الاستعماري والنيوليبرالي، وبتداعيات اتفاق أوسلو وما فرضه تفشي وباء الكورونا. وتلاحظ كيف تم التعامل مع هؤلاء العمال من قبل الإسرائيليين باعتبارهم ناشرين للمرض. وهم يشكلون "الخاصرة الضعيفة أو المكشوفة" للفلسطينيين، وكيف لا تتم مساءلة إسرائيل عن سياستها تجاههم.

ينطلق هاشم أبو شمعة في مداخلته "ليست دولتنا: حول التخيلات الفلسطينية للتحرر" من فرضيتين اثنتين؛ الأولى أن هناك عداءً جوهرياً للفلسطينيين من قبل الدولة الاستعمارية، وهذا يرسم نظامها التراتبي. إسرائيل تنظر إلى الفلسطينيين كأجساد قابلة للرمي، ومريضة، ومستحقة للموت. ويبحث أبو شمعة في العلاقة بين الاستعمار-الاستيطاني والعمالة الفلسطينية، ملاحظاً أن أدبيات كثيرة حول الاستعمار-الاستيطاني تمنح العمالة مكانة ثانوية باعتبار أن الاستعمار-

الاستيطاني يهدف إلى الاستحواذ على الأرض والقضاء على السكان "الأصليين"، وبالتالي التخلص من العمالة الفلسطينية. من هنا يطرح الكاتب السؤال حول سبب سماح دولة إسرائيل للعمال الفلسطينيين بالعمل في مشاريعها وسط جائحة عالمية.

وتقول الفرضية الثانية إن ندرة التخيّلات الفلسطينية البديلة للتحرر سببها التركيز الأُحادي الجانب على آليات السيطرة الإسرائيلية، وعلى اختزال التحرر الفلسطيني إلى مشروع بناء دولة وطنية رأسمالية. ويرى أن إبراز الجائحة للامساواة البنيوية في فلسطين والعالم، يشكل مدخلاً لوضع قواعد لغة سياسية جديدة استناداً إلى تجربة المجتمعات السوداء والسكان الأصليين في الولايات المتحدة الأمريكية، ومستنداً إلى أفكار باتريك وولف عن سمات الاستعمار الاستيطاني باعتباره بنية مستمرة وقائماً على منطق التصفية، وإزاحة السكان الأصليين عن أرضهم. ومن هذا المنطلق، يرى أن إسرائيل عملت على تقليص الاعتماد على العمالة الفلسطينية في الوقت الذي ضمنت فيه العكس – اعتماد الفلسطينيين على استعمارها الاستيطاني لضمان هيمنتها الاقتصادية والمكانية. ويرى أن العمالة لعبت "دوراً مؤسِّساً" في بناء الدولة الاستعمارية الاستيطانية، ودوراً مركزياً مستمراً في إخضاع الذوات الفلسطينية وتحييدها. ويرى أن العمل الفلسطيني في إسرائيل يشكل جزءاً من بنية تراتبية عنصرية مستمرة، ويلاحظ كيف بدأ أصحاب العمل الإسرائيليون بإلقاء العمال الفلسطينيين الذين يظهرون أعراضاً شبيهة بفيروس "كورونا" على نقاط التفتيش، في الوقت الذي كانت الشركات والمؤسسات الصحية الإسرائيلية تروج بنشاط لمنتجاتها عالية التقنية المتخصصة في المراقبة والسيطرة. من وجهة نظر الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، الجسد الفلسطيني إرهابي، ومريض، وتهديد وغير جدير بالحماية أو الحياة. وجادل أبو شمعة بأنه لا يمكننا أن نطالب الدولة التي بُنيت لإبادتنا واستبعادنا بأن تعترف بحقوقنا "إذ يصبح هذا الاعتراف تقنية تطويق وتحييد وإبادة". ويرى أنه "يجب أن تكون الدولة الاستيطانية موضعاً للمساءلة، مع الهدف النهائي بإلغائها"، وأن غاية النضال الفلسطيني تتمثل في "إلغاء المؤسسات والتراتبيات وطرائق الوجود الاستيطانية، إلى جانب الطرق التي من خلالها يُحَدّ ويُتحكم بذواتنا السياسية، من أجل تأسيس مجتمع جديد".

ويعتبر أبو شمعة أن اتفاقية أوسلو "اختزلت النضال التحرري الفلسطيني إلى نضال من أجل بناء دولة وطنية على جزء من فلسطين التاريخية"، وكانت النتيجة سلب المزيد من الأرض من قبل الدولة الاستعمارية وإقامة مؤسسات للسلطة الفلسطينية التي كثفت من التقسيم الطبقي والنوع اجتماعي داخل المجتمع الفلسطيني، واعتماد سياسات نيوليبرالية تمنح أولوية لرأس المال على الناس، واختزلت "المجتمع الدولي" بمؤسسات الأمم المتحدة والحكومات الرسمية بديلا عن الحركات المناهضة المعادية للاستعمار والاضطهاد والعنصرية، الحليف الطبيعي للشعب الفلسطيني.

عن الاستعمار الاستيطاني والعنصرية وحركات الشعوب الأصلانية والسود والنيوليبرالية ومعاناة فلسطين

في الورقة المعنونة "حطامنا في ميدوسا: حوار حول الاقتصاد والذكورة والعرق في إطار الوباء وخارجه"، يتوفر حوار تأملي أنجز في بدايات تشرين الأول/أكتوبر في مدينة فانكوفر بين اثنين من الأكاديميين (هما أنتوي وهيغن). تنطلق مقدمة الورقة بالتعريف بلوحة عرضت في العام 1819 تحت عنوان "حطام ميدوسا" للفنان ثيودور جيروكول، واللوحة معروضة في اللوفر (وهي رسم لخمسة عشر بحاراً من جنسيات مختلفة من مجموع مئة وخمسين بحاراً هم من بقي حياً على قارب نجاة بعد 13 يوماً من التعرض لأهوال مختلفة). اللوحة اختيرت كتعبير رمزي لحال البشرية الراهن، حيث أنظمة القمع والاستغلال تسعى إلى اختزال الإنسانية إلى أسوأ ما فيها، ولكن البشرية -كما تقول مقدمة الورقة- تقاوم.

في الورقة حوار حول بعض ما برز خلال الوباء من مظاهر، منها أزمة الذكورة، التي اشتدت بعد فقدان العمل لنسبة عالية من الذكور واضطرارهم للمكوث في البيت، وهم غير مهيئين للعمل البيتي، فملازمة البيت يولّدان ذكورة أكثر خطورة وبيئة تنتج أوهاماً ونظريات مؤامرة، وهذاء نرجسي، وهي وسائل يسعى الذكور (أو بعضهم على الأقل) إلى إعادة الاعتبار لأنفسهم كأسياد للواقع، وهنا مكمن خطورة الذكورة. ويتفرع الحوار ليطال ملاحظة تحول في نظرة الأجيال الشابة الانسيابية للنوع الاجتماعي (gender)، وتطوع شباب لمساعدة المواطنين الأكثر انكشافاً وعرضة للوباء، وتؤكد المداخلة على أهمية مشاركة بعضنا البعض الانكشاف، كما الثروة، والهوية، والتذويت، والاعتماد المتبادل. وتندد بالنظرة إلى الوباء الذي اعتمدها الرئيس ترامب (تعريف وباء الكورونا بفيروس الصين) باعتبارها مستوحاة من منظور الشمال العالمي البطريركي النظرة. يتناول الحوار قضايا عدة أخرى من الصعب جداً تغطيتها، في مقدمة وظيفتها إعطاء مذاق أولي للقارئ لما يحتويه الكتاب من مداخلات حول الوباء وتداعياته الراهنة والمتوقعة.

تحت عنوان "مؤقتات" نقاش حول مدلولات حركة "حياة السود مهمة" في فهم اللحظة الراهنة في الولايات المتحدة بالعلاقة مع حركات أخرى تناضل ضد العنصرية والقمع والاستعمار والاستغلال في العالم، وحركات معارضة تركيبة المعرفة الكولونيالية والنزعة المركزية الأوروبية في مناهج التدريس، ورفض عزل علاقة الاستعمار عن العنصرية، وفي التعامل مع الشعوب الأصلانية، ومساعي موضعة هذه الشعوب في الماضي، وتجاهل تراث العزو الاستعماري والتشريد والتظهير العرقي وسلب الأرض والتغريب والاستغلال العنصريين. ويذكر ماكس كيف أن حركات التحرر للشعوب الأصلانية وحركات السود فهموا بعضهم البعض من خلال التضامن مع القضية الفلسطينية. وكيف أن الموت المبكر ناتج ليس عن عنف الشرطة والاستعمار فحسب، بل، أيضاً، عن التوريع غير العادل لحاجات الإنسان (المياه الصالحة

للشرب، الطعام الكافي والمناسب، الرعاية الطبية، السكن الصحي، ... وغير ذلك)، وبالتالي نجد التفاوت الواسع في توزيع معدلات الموت المبكر محلياً وعالمياً. وتنتهي الورقة بقراءة ذكية وعميقة لمعاني اللوحة بشخوصها وحركاتهم ونظراتهم.

في المقال المعنون "قراءة أولية في مدلولات أزمة وباء كورونا"، يطرح هلال عدداً من الخلاصات لعل أبرزها تأكيده على أن الإجراءات المتشددة التي اعتمدت في معظم دول العالم لمواجهة انتشار وباء الكورونا، أدت إلى انكماش شديد في منسوب وأشكال الاستهلاك، وكشفت أن المؤسسات الدينية على اختلاف انتماءاتها، المختلفة، ليست بحوزة ما تقدمه في مواجهة الوباء. كما كشفت أن السياسة النيوليبرالية، بإطلاقها العنان بدون قيود للربح على حساب أمان ورفاهية الإنسان، فاقمت، إلى حد كبير جداً، من معاناة البشرية، وبخاصة الفئات تعاني من التمييز والإفقار والحرمان المتعمد. لقد كشفت ليس واقع اللامساواة في العالم فحسب، بل ساهمت في تعميقها وتوليد مظاهر جديدة منها. ومن هنا دعوة العديدين إلى اعتماد سياسات راديكالية، مغايرة للسياسات التي اعتمدت في العقود الأربعة الأخيرة، بما فيها الدعوة إلى اعتماد سياسات توجد دولة رعاية، ونظام عالمي جديد أكثر تضامناً وفعالية.

سهولة اعتماد حكومات عديدة في العالم لتدابير استثنائية في مواجهة وباء كورونا، أوجد مخاوف مشروعة من أن يتم استغلال للواقع الجديد لتشريع تدابير وقوانين مقيدة وقامعة للقيم والحريات الديمقراطية، وزاد من هذه المخاوف استخدام حكومات عديدة لأجهزتها الأمنية لضمان الالتزام بإجراءات الطوارئ. ومن الذين أشاروا إلى مخاوف من استغلال "حالة الاستثناء" لمصادرة الحقوق السياسية والمدنية والإنسانية المفكر الإيطالي، جورجيو أغامبين. كما اعتبر المفكر المعروف نعوم تشومسكي أن الإجراءات الاستثنائية التي اتّخذتها معظم حكومات العالم أدت إلى تراجع الديمقراطية، وإلى تخلخل النظام الاقتصادي العالمي. وزادت المخاوف من عواقب هذا الوباء، ومن بروز أوبئة أخرى مع استمرار إنكار ترابط العلاقة بين الطبيعة والإنسان والثقافة (بالمعنى الواسع)، وتمتع رأس المال وأسواقه بالسيادة في تحديد أشكال هذه العلاقة.

يبرز المقال الحاجة إلى إعادة النظر في بنية المؤسسات الدولية وأهدافها ووظائفها، كمؤسسات معنية بخدمة البشرية ككل. ويشير إلى مخاطر استغلال الوباء لتغذية التوجهات الشمولية والأصولية والعنصرية، والنزعة القومية الضيقة، ومن استغلال التكنولوجيا الرقمية لإنتاج واستخدام وتسويق أجهزة تتبّع ورصد المواطنين واستلاب خصوصية الفرد.

وينبه المقال إلى حقيقة أن مسار الوباء في الضفة الغربية وقطاع غزة يخضع لواقع سيطرة إسرائيل على حدود كل منهما. وإلى أن التكوين العمري الشاب في هاتين المنطقتين قد يقلص من مخاطر التعرض للعدوى، ويزيد من القدرة على مقاومة الوباء. كما يؤثر على هذا المسار واقع المعازل أو الغيتوات التي سيجت هذه الأراضي، وهو واقع يسري إلى حد

ملموس على الفلسطينيين المقيمين في الأراضي الفلسطينية التي احتلت العام 1948. كما يتأثر واقع الفلسطينيين في هذه الأراضي من أن اقتصاداتها اقتصادات تابعة ومسيطر عليها تماماً وتفتقد إلى الاندماج البيني، وتعتمد إلى درجة عالية على التحويلات الخارجية. كما يشير إلى انكشاف العمال الفلسطينيين في المشاريع الإسرائيلية وتأثير الوجود المكتف لليهود الأرثوذكس في القدس والخليل، وهم الأقل استعداداً لاعتماد إجراءات الوقاية من نشر الوباء. ويستخلص أن معاناة الفلسطينيين نتيجة الوباء اشتدت نتيجة لمواصلة إسرائيل سياستها الاستعمارية الاستيطانية التمييزية والعنصرية، التي استغلت حالة الطوارئ لتشديد سيطرتها وتقوية النظام النيوليبرالي، واستغلال واقعها الإقليمي والدولي لتطبيع علاقاتها مع أنظمة عربية جديدة.

ويتوقع المقال أشكالاً مختلفة من الانتفاضات الجماهيرية نتيجة استفحال الفوارق في توزيع الثروة والسلطة والمعرفة، وارتفاع معدلات الفقر والبطالة في ظل قصور معظم الأنظمة عن معالجة تداعيات الوباء واحتمالات تجدده، وارتباك العلاقة بين الجمهور والثقافة، لن تستطيع وسائل الاتصال الاجتماعي من سد الفراغ الحاصل.

ويرى المقال أن أزمة وباء كورونا أبرزت الحاجة -على الصعيد الفلسطيني- لصياغة استراتيجية وطنية جديدة بعد أن دُمرت إمكانية قيام دولة فلسطينية مستقلة وذات سيادة، وبعد أن اتَّضحت محدودية دور رأس المال الفلسطيني الخاص، وانكماش دور منظمات المجتمع المدني في الأراضي التي احتلت العام 1967، على أن تتم صياغة هذه الاستراتيجية بعد مراجعة جذرية لدور المجتمعين السياسي والمدني في تجمعات الشعب الفلسطيني الرئيسة. ويرى أن الحال الفلسطيني يبقى بانتظار ظهور تشكيلات جديدة تحمل أهدافاً تحررية، وتقوم على أسس وقيم ديمقراطية تحررية تتصدى للمأزق الوطني الفلسطيني المركب.

قراءة أوّلية في مدلولات أزمة وباء «كورونا»

جميل هلال

تقديم

طرح وباء كورونا أسئلة عديدة حول مستقبل العالم الاقتصادي والسياسي والثقافي والاجتماعي والبيئي. وساد رأي وازن بين أطراف عديدة مفاده أن العالم لن يعود كما كان عليه قبل هذا الوباء.

قبل مراجعة أدبيات تناولت تداعيات وباء كورونا بشكل عام، من المفيد التذكير بأن الوباء انتشر وشُخّص وجوبه تحت سيطرة نظام عولمة رأسمالية نيوليبرالية، يمكن اعتبارها نمطاً لتراكم رأس المال، يختزن تناقضات جيوسياسية، ونمواً غير متوازن، وتدخلاً من قبل مؤسسات دولية مالية، ومن الدول نفسها. وهو عالم يعيش تحولات تكنولوجية ذات أبعاد استراتيجية، وتحولات مهمة في تقسيم العمل وفي أنماط العلاقات الاجتماعية. كما يشهد تنامي علاقة مأزومة مع الطبيعة الأولية (كما هو الحال في التحول المناخي) وفي الطبيعة الثانية المتمثلة في البيئة التي بناها ويبنيها الإنسان، وتحديداً على صعيد التحضر (urbanization)، وتوترات في التشكيلات الاجتماعية والثقافية والعلمية والدينية التي ينتجها البشر في الزمان والمكان. ومن هنا الحذر الشديد من الفصل بين الطبيعية والثقافة والاقتصاد، والتأكيد على العلاقة الأيضية (metabolic) بين هذه العناصر.[1]

لا تقتصر العولمة النيوليبرالية على آليات تراكم رأسمال يحركه الربح، وبخاصة الربح السريع، بل ترتكز على آليات تحقق هذا الربح عبر تسيّد أشكال من الاستهلاك الآني والسريع لسلع وخدمات هذا النظام الرأسمالي المعولم، وتظهر في النمو الهائل للرأسمال غير الحقيقي (fictitious) وفي تراكم الديون العامة. وتستدعي هذه المقاربة استحضار حركات الاحتجاج التي تكاثرت في العالم معبرة معظمها عن رفض دلالات النيوليبرالية وتداعياتها على فرص حياة غالبية البشرية. ويقدر البعض أن 70% إلى 80% من الاقتصاد الرأسمالي الراهن يحركه الاستهلاك السريع. كما يجدر الانتباه إلى أن إنتاج ونشر فيروسات مهددة للحياة البشرية يعتمد، إلى حد ملموس، على فعل البشر أنفسهم من حيث خلق الشروط البيئية لتحويل الفيروسات إلى فيروسات فتاكة. من هذه الشروط حضور الكثافة السكانية العالية وتهيئة وسائط انتقالها من الطيور والحيوانات إلى الإنسان ووسائط لتوزيع هذه الفيروسات جغرافياً بشكل سريع.[2]

بسبب العولمة الرأسمالية، فإن احتواء مخاطر وباء كورونا الصحية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تتطلب زمناً ليس قصيراً بسبب كثافة واتساع شبكات الانتشار على الصعيد العالمي. ولا نحتاج إلى التذكير بأن وباء كورونا فرض قيوداً مشددة على التنقل والسفر وعلى قطاع خدمات قطاع «الضيافة» والسياحة (الفنادق، والمطاعم والمقاهي، والمنتزهات، ودور السينما، والمتاحف، ووسائل التنقل) والمهرجانات والمؤتمرات والمباريات الرياضية ذات الحشود، وهو ما أدى إلى انكماش شديد في منسوب وأشكال الاستهلاك في دول العالم، كما أوجد فرصة لإبراز أن التديّن السياسي (في الديانات المختلفة) ليس لديه ما يقدمه في مواجهة وباء كورونا، كما كشف ما فعلته الرأسمالية النيوليبرالية لقطاع الخدمات العامة (بما فيها الخدمات الصحية) بإطلاقها العنان للربح على حساب أمان الإنسان ورفاهيته.

أ. قراءة نخب فكرية ليبرالية لدلالات عولمة الوباء

كانت «فورين بوليسي» الأميركية من أوائل المجلات التي اهتمت (في عددها الصادر في 20 آذار 2020) باستطلاع آراء عدد ممن وصفتهم بـ «المفكرين العالميين» لمستقبل العالم بعد تجربته مع وباء كورونا (كوفيد 19). وقد أجرت استطلاعها قبيل استفحال شدة الوباء (خارج الصين وجنوب شرق آسيا) في الولايات المتحدة، وأوروبا، ويمكن إيجاز أبرز الآراء التي وردت بالتالي:[3]

أولاً. توقع ولادة عالم أقل انفتاحاً وحرية، وتحوّل في مركز النفوذ العالمي

أستاذ العلاقات الدولية في جامعة هارفارد،[4] اعتبر أن تجربة مجابهة وباء كورونا ستعزز سيطرة مؤسسات الدولة، وكذلك التوجهات القومية المتشددة، معللاً ذلك بأن تبني الحكومات والأنظمة المختلفة لأنظمة طوارئ وسّع من سيطرة الحكومات، وهي أمر لن تتخلى عنه بسهولة. رأى أن الغرب سيفقد مركز النفوذ في العالم، إذ سينتقل هذا إلى شرق آسيا (الصين وكوريا الجنوبية

وسنغافورة) بحكم ما أظهرته هذه الدول من قدرة في السيطرة على الوباء خلافاً لأوروبا والولايات المتحدة. وهو لا يعتقد أن مراكز القوى في العالم ستستخلص نتيجة الوباء حاجتها لبناء نظام تكافلي عالمي، فهي لم تستخلص هذا من الأوبئة التي اجتاحت العالم سابقاً. ويرى أن عالم ما بعد كورونا سيكون «عالماً أقل انفتاحاً وأقل ازدهاراً وأقل حرية»، بسبب القيادة غير الكفؤة، معتبراً أن انتشار وباء كوفيد-19 أثبت أن الولايات المتحدة لن تستطيع حماية أمنها عبر التصرف بمفردها.

رئيس معهد «بروكينغس» للأبحاث،[5] اعتبر أن أزمة وباء كورونا ستغير علاقات القوة في العالم، وإن بشكل غير واضح، لأنها زادت من التوتر بين الدول (وتحديداً بين الصين والولايات المتحدة)، ولأن الوباء سيقلص القدرات الإنتاجية للاقتصاد العالمي. وستكون وطأته شديدة على الدول النامية، وعلى الدول التي فيها نسبة عالية من العمال غير المحصنين اقتصادياً واجتماعيا.

نائب المدير العام للمعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية (واشنطن ولندن)،[6] اعتبر أن الولايات المتحدة فقدت موقعها القيادي الأول في العالم بسبب سلوك قيادتها السياسية القائم على المصالح الذاتية الضيقة، وتدني كفاءتها. ويعتقد أنه كان بالإمكان تخفيف وقع الوباء عالمياً لو اضطلعت المنظمات الدولية بتقديم مبكر للمعلومات، لإعطاء الحكومات الوقت لإعداد وتوجيه الموارد وفق الحاجة. وانتقد الولايات المتحدة لأنها لم تمارس دوراً قيادياً في تنظيم مواجهة الوباء. في المقابل، اعتبر الأستاذ بكلية الحكومة بجامعة هارفارد، ونائب وزير الشؤون السياسية السابق بوزارة الخارجية الأميركية،[7] أن تفشي وباء كورونا يمثل الأزمة العالمية الأكبر لهذا القرن، وأن تأثيره قد يؤدي إلى تنامي التكافل البشري، مشيراً إلى التكافل الإنساني الذي ظهر، على مستويات متعددة، في معظم دول العالم.

ثانياً. توقع تغييرات في العولمة الاقتصادية

مدير معهد «تشاتام هاوس» في لندن،[8] يرى أن فيروس كرونا قد يشكل ضربة قاسمة للعولمة الاقتصادية، ملاحظاً أن الولايات المتحدة بدأت في الابتعاد عن هذه العولمة كمسعى لتقييد صعود القوة الاقتصادية والعسكرية للصين، وحجب حصولها على التكنولوجيا الأمريكية. ويعتقد أن وباء كورونا سيدفع الشركات والحكومات إلى اتّخاذ إجراءات تمكنها من تحمل فترات طويلة نسبياً من العزلة الاقتصادية، ما قد يدفع البعض إلى تبني عولمة جديدة دون تحديد سماتها. في المقابل، لا يعتقد الباحث في معهد أبحاث الشؤون الآسيوية في جامعة سنغافورة،[9] أن وباء كورونا لن يغيّر من السمات الأساسية للعولمة الاقتصادية باستثناء زيادة وزن الصين الاقتصادي عالمياً. وهو أمر بدأ بعد التحول في سلم أولويات الولايات المتحدة في مجال التجارة الخارجية، في وقت حافظت الصين على موقع مهم للتجارة في علاقاتها الخارجية. ويرى أن أولوية القيادة السياسية الراهنة في الولايات المتحدة تتمثل في الحفاظ على تفوقها العالمي، وبالتالي التنافس مع الصين، وليس في رعاية رفاهية الشعب الأمريكي التي تراجعت في السنوات الأخيرة. ويستشهد

الباحث للتدليل على هذا من تسمية الرئيس الأمريكي لوباء كورونا بوباء الصين، وفي هجومه على منظمة الصحة العالمية واتّهامها بالتقصير وبالانحياز للصين.

اعتبرت الباحثة في قسم دراسات أميركا اللاتينية في مجلس العلاقات الخارجية الأميركية،[10] أن وباء كوفيد-19 سيؤثر سلباً على قطاع التصنيع العالمي، كون الشركات ستقلص من سلاسل التوريد متعددة الخطوات والبلدان، موضحة أن سلاسل التوريد كانت موضع تشكيك في الآونة الأخيرة، بسبب ارتفاع تكلفة العمالة الصينية، ونتيجة الحرب التجارية التي شنها الرئيس الأميركي ضد الصين، وبحكم التطور في استخدام «الروبوتات»، والأتمتة، والطباعة ثلاثية الأبعاد. وترى أن وباء كورونا أضر بسلاسل التوريد بسبب قيام العديد من الشركات بوقف إنتاجها، ما حرم شركات أخرى من التزود منها. ولذا، تتوقع أن تحرص هذه الشركات بعد انتهاء الوباء على التدقيق في مصادر إمداداتها، كما تتوقع أن تتدخل الحكومات لإجبار الصناعات الاستراتيجية في بلدانها على وضع خطط احتياط محلية لتدعيم استقرار الاقتصاد المحلي.

واعتبرت خبيرة في مجال الصحة العالمية[11] أن الصدمة الأساسية التي تعرض لها النظام المالي والاقتصادي العالمي جراء وباء كورونا، تكمن في هشاشة سلاسل التوريد وشبكات التوزيع العالمية، ما سيؤدي إلى تغيير جذري في النظام الاقتصادي العالمي. وترى أن فيروس كوفيد-19 أثبت «أن الأوبئة لا تصيب الناس فحسب، بل يمكنها أن تطال نظام الإنتاج المبرمج بأكمله"، وبالتالي تتوقع أن تولد خسائر السوق المالية بسبب الوباء، مرحلة جديدة جذرية في النظام الرأسمالي العالمي، تقتصر فيه سلاسل التوريد على الدول، وتعتمد على الاحتياطات بشكل أكبر للحماية من تقلبات المستقبل.

ثالثاً. تخوّف من تشديد قبضة الحكومات على المجتمع

توقع أحد باحثي مؤسسة «بروكينغس إنديا»، والمستشار السابق للأمن القومي في الهند،[12] نجاحاً نسبياً للحكومات في التغلب على الوباء يرافقه تشديد في سلطة الحكومة على المواطنين، مع ملاحظة أن الدول التي استجابت في وقت مبكر وناجح للوباء، مثل كوريا الجنوبية وتايوان، كانت دولاً تعتبر ديمقراطية، كما أن الدول التي تأخرت كانت دولاً تعتبر ديمقراطية. ويرى أنه على الرغم من الحاجة لتطوير التكافل الإنساني التي كشف عنها الوباء، فإن الأنظمة السياسية، على اختلافها، تسير باتجاه الانغلاق على الذات باسم الاستقلالية والتحكم بالمصير الوطني، متوقعاً «عالماً أكثر فقراً وانحطاطاً»، مع بقاء احتمال أن يولّد الوباء صدمة قوية تولّد إدراك أهمية «التعاون المتعدد الأطراف بشأن القضايا العالمية الكبرى».

توقع أستاذ السياسة والشؤون الدولية في جامعة برينستون[13] أن تداعيات الوباء الاقتصادية والاجتماعية الصعبة سوف تعزّز التوجهات القومية المتشددة، والتنافس بين القوى العظمى. ويستخلص أن الولايات المتحدة والدول الأوروبية لن تستطيع، على المدى البعيد، التهرب من

الحاجة لبناء نظام يتمتع بأشكال أوسع من الحماية والرعاية الاجتماعية، ولا التهرب من تنظيم أشكال من الاعتماد المتبادل بين الدول.

وفي السياق ذاته، اعتبر الأستاذ الجامعي في هارفارد[14] أن وباء كوفيد-19 كشف فشل استراتيجية الأمن القومي التي اعتمدها الرئيس الأمريكي ترامب، والتي ركزت على التنافس مع القوى العظمى، متوقعاً أنه حتى وإن استمرت الولايات المتحدة قوّة عظمى، فقد أثبتت تجربة كورونا أنها لن تستطيع حماية أمنها من خلال التصرف المنفرد. وتوقع رئيس مؤسسة «مجلس العلاقات الخارجية» الأميركية أن تقود أزمة كورونا الدولة باتجاه التقوقع حول الذات باتخاذ خطوات لتوسيع نطاق «الاكتفاء الذاتي الانتقائي»، نظراً لضعف سلاسل التوريد، وتنامي معارضة أكبر للهجرة الواسعة، وتراجع الالتزام بمعالجة المشاكل الإقليمية والعالمية (بما في ذلك التغيير المناخي)، والاهتمام بتوجيه الموارد نحو إعادة البناء الداخلي، ومعالجة الأثار الاقتصادية للأزمة، وتوقع أن «تصبح الدول الضعيفة والفاشلة أكثر انتشاراً، وأن «تساهم الأزمة في استمرار تدهور العلاقات الصينية الأميركية»، وفي «إضعاف الاندماج الأوروبي». ويعتقد أن تضعف الرغبة في معالجة أزمة العولمة التي كشفتها أزمة كورونا.[15]

غالبية آراء المفكرين والباحثين الذين شملهم الاستطلاع، لم تعط تركّزاً على الإجراءات المطلوب اتّخاذها في مواجهة البطالة والفقر الناتجة عن الوباء، وما قد سيترتب على الوضع من قلاقل وانتفاضات قد تعم العالم، بشكل أوسع بكثير من السابق. وهي لم تلحظ قصور القطاع الصحي العام والخاص في معظم الدول في التصدي للوباء.[16]

ب. قراءات نقدية لدلالات أزمة مواجهة الوباء

هناك قراءات جذرية متعددة ومتنوعة لدلالات انتشار ومواجهات وباء كورونا، منها ما هو قريب من صنّاع القرار في العالم، وأخرى تتبنى مواقف ناقدة للنظام الرأسمالي العالمي ومحركاته. ما هو مشترك بين هذه القراءات هو إدراك الحاجة إلى إحداث تغيير جذري في علاقة الدولة بالاقتصاد وبالمجتمع. وفيما يلي نماذج مهمة من هذه القراءات:

أولاً. عجز العولمة الرأسمالية النيوليبرالية

رأت افتتاحية «الفايننشال تايمز» اللندنية بتاريخ 3 من نيسان/أبريل 2020، أن انتشار وباء كورونا كشف ليس فقط واقع عدم المساواة في المجتمع، بل ساهم في توليد مظاهر جديدة منها. ولذا، دعت القيادات السياسية الأولى في العالم، إلى استخلاص الدروس كما جرى عندما واجه العالم ظاهرة «الكساد الكبير» في الغرب (خلال العام 1929 وبعده(والتضحيات الضخمة التي تكبّدها المواطنون من هذه، وخلال الحرب العالمية الثانية، داعيةً إلى صياغة عقد اجتماعي جديد كما جرى بعد الحرب.[17]

افتتاحية «الفايننشال تايمز» لاحظت أن خطط السيطرة على الوباء كشفت مكامن العجز في الأنظمة الصحية المعمول بها في معظم بلدان العالم، كما كشفت مكامن الخلل في اقتصاداتها، وفشلها في منع الارتفاع الهائل في معدلات البطالة. كما نبهت إلى الثمن الباهظ لذي تتحمله الفئات الأكثر انكشافاً في المجتمع نتيجة الحذر، وفقدانها عملها ومصادر رزقها، في حين كان بإمكان البعض العمل من البيت (عبر استخدام الإنترنت). وأشار المقال إلى حقيقة أن أصحاب الأجور المتدنية الذين باستطاعتهم مواصلة العمل واجهوا احتمال الإصابة بالوباء، أو البطالة إن قرروا المكوث في البيت. ورأت الافتتاحية أن تخصيص موازنات ضخمة لدعم الاقتصاد قد يقود إلى ما هو أسوأ، كونه لا يوفر دعماً للمشتغلين في مهن غير ثابتة، وأن توفير تسهيلات إضافية من البنوك المركزية يساعد أصحاب الأموال والمشاريع الكبيرة، وليس الفئات المحتاجة. ومفيد التذكير هنا أن المسنين وأصحاب الأمراض المزمنة هم الضحية الأولى للوباء، لكن الفئة الأكبر عدداً المتضررة يشكلها الشباب والقادرون على العمل، الذين توقف أو اضطرب تعليمهم أو انقطعوا عن فرص العمل.

تستخلص الافتتاحية أن أزمة كورونا أضاءت الحاجة إلى ضرورة اعتماد سياسات راديكالية، مغايرة للسياسات التي اعتمدت في العقود الأربعة الأخيرة، وأن على الحكومات الاضطلاع بدور أكبر في الاقتصاد، وفي الاستثمار في الخدمات العامة، وفي توفير الأمان لأسواق العمل، وأن تضع إعادة توزيع الثروة على جدول أعمالها، بما في ذلك تأمين دخل أساسي للمواطن، وإضافة ضريبة على الثروة. إن ما تدعو إليه الافتتاحية دون تسميته، هو العودة إلى سياسات دولة الرعاية (welfare state).

ثانياً. الديمقراطية السياسية لا تحمي من انتشار الوباء

كشفت معطيات أزمة كورونا أن الديمقراطية السياسية لا توفر ضمانة ضد انتشار الوباء. فقد انتشر الوباء في أوروبا (إيطاليا، فرنسا، إسبانيا، بريطانيا، ألمانيا) كما في الولايات المتحدة، وفي دول ديمقراطية أخرى كالهند. معظم هذه الدول، وقف عاجزاً أو مرتبكاً أمام انتشار الوباء، دون أن تسلم منه الأنظمة الشمولية. ولذا، فطبيعة النظام السياسي ليست العامل المقرر في منع انتشار الوباء أو صده.

عوامل مختلفة لها علاقة بالسيطرة على الوباء،[18] لعل أبرزها: وجود قيادة قادرة على الالتقاط المبكر للإصابة بالوباء والتدخل السريع لحماية مواطنيها (كإغلاق الحدود والرحلات الجوية، وتوفير الفحوص اللازمة ومستلزمات العلاج)؛ جهوزية نظام صحي للتعامل السريع مع حالات الطوارئ؛ توفر نظام صحي يقدم خدمات صحية مجانية لجميع المواطنين بغض النظر على الطبقة والدين والعرق والنوع الاجتماعي والعمر. مدى توفر هذه العوامل، ووجود مؤسسات ديمقراطية تصون الحريات والحقوق، هو ما يفسر التباين في نسب النجاح بين الدول في السيطرة على انتشار المرض وعلاجه.

ثالثاً. خشية من استمراء «حالة الاستثناء»

سهولة اعتماد حكومات عديدة في العالم لتدابير استثنائية في مواجهة وباء كورونا، شملت تقييد جوانب مهمة من حياة مواطنيها، بما في ذلك قيود على الحركة والتنقل وإغلاق نشاطات مهمة في الحيز العام (بما في ذلك الحق في التجمع والتظاهر والإضراب)، ولّد مخاوف مشروعة من استغلال للواقع الجديد لتشريع تدابير وقوانين تسلطية وقامعة للقيم والحريات الديمقراطية، بحجة محاربة وباء كورونا، وزاد من هذه المخاوف استخدام حكومات عديدة لأجهزتها الأمنية وقوات الجيش لضمان الالتزام بإجراءات الطوارئ.[19] ومن الذين أشاروا إلى مخاوف من استغلال «حالة الاستثناء» لمصادرة الحقوق السياسية والمدنية والإنسانية هو المفكر الإيطالي المعروف، جورجيو أغامبين.[20]

كما اعتبر المفكر المعروف نعوم تشومسكي أن الإجراءات الاستثنائية التي اتخذتها معظم حكومات العالم أدت إلى تراجع الديمقراطية، وإلى تخلخل النظام الاقتصادي العالمي. بعض قادة الدول تحدث عن الأطباء بوصفهم جنود الجبهة الأمامية في مواجهة فيروس كوفيد-19. وهو خطاب يتماشى مع فرض «حالة استثناء»، ويكشف عن فشل النيوليبرالية. ويعتبر أن تحركات قادة أمريكا وأوروبا جرت وفق حسابات اقتصادية نيوليبرالية بحكم الخسائر الاقتصادية والمالية التي تسبب بها الإغلاق والحجر. ويرى تشومسكي أن النظم السياسية التي تسيّرها النيوليبرالية خيانة للجمهور، وأن علينا العودة إلى السياسات المعنية بالاحتياجات البشرية. ويدعو إلى استخدام تكنولوجيا المعلومات لخلق حركة اجتماعية واسعة النطاق، لبناء عالم أفضل.[21]

رابعاً. تعميق اللامساواة في المجتمع وتوليد أزمة أخلاقية

أبرزت أزمة كورونا ظاهرة عدم المساواة، ليس لأن الوباء يميز بين البشر، بل لأن التمييز قائم حسب الطبقة الاجتماعية، والانتماء الإثني أو القومي أو الطائفي وحسب النوع الاجتماعي. كما أبرزت الأزمة قضية الحق في الحياة، والحق في تلقي الرعاية والعلاج. لقد ولّد انتشار الوباء في عديد الدول ضغطاً على وحدات العناية المركّزة واضعاً القائمين عليها أمام خيارات أخلاقية صعبة. فطلب أعداد كبيرة العلاج غير القابل للتأخير يستدعي قراراً يخرق مبدأ المساواة الصارمة في معالجة المرضى بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي، وفئتهم العمرية، أو أصلهم الإثني، أو انتمائهم الديني أو هويتهم الجنسية؛ فهو يضع الطبيب أمام تقرير من له الأولوية في تلقي العلاج، أي البت في من له الحق في الحياة، ومن يُسلب منه هذا الحق.[22] لكن يتوجب رؤية الموضوع من منظور توزّع العدوى والضحايا من وباء كورونا وفق الموقع الاجتماعي والإثني والنوع الاجتماعي والفئة العمرية، فقد بيّنت البيانات تبايناً واضحاً في نسب الإصابة والوفاة حسب هذه الانتماءات.[23] كما سجلت بيوت رعاية لمسنين وأصحاب الحاجات الخاصة في العديد من الدول نسباً عالية من الإصابات والوفيات من وباء كورونا نتيجة الإهمال الطبي. هذا لا يعني أن إغفال الاستفسار حول أسباب التباين في انتشار الوباء بين المناطق الجغرافية لا

يتناسب مع مؤشرات الفقر أو البطالة، كما هو الحال بين شمال إيطاليا ووسطها وجنوبها، وبين إسرائيل وقطاع غزة والضفة الغربية.

أشار البعض إلى أن اعتماد استراتيجية التباعد الجسدي والبقاء في البيت لوقف انتشار الوباء، أسهم في تعميق ظاهرة عدم المساواة،[24] وذلك لأن هذه الاستراتيجية مسَّت، بشكل مميز، الشباب الفقراء والفئات الاجتماعية الأكثر عرضة للحرمان والتمييز لاعتبارات عدة، من أبرزها:

أولاً. صعوبة الحصول على المال لغياب مدخرات خاصة لدى العمال المياومين، ولدى الفئات التي تعمل لحسابها الخاص، أو لديها مشاريع صغيرة. التوقف عن العمل لهذه الفئات يعني صعوبة توفير الاحتياجات الأساسية للأسرة إن لم يتوفر الدعم اللازم من الدولة.

ثانياً. صعوبة توفير عمل لفئات واسعة نسبياً ممن لا يعملون في مجال الرعاية الصحية الذين لا يستطيعون العمل من البيت، أو لا يعملون في مهن لا تعتبرها الدولة استراتيجية.

ثالثاً. غياب إمكانات وفرص مواصلة التعليم، وبخاصة للفئات التي لا تملك التجهيزات والمهارات الضرورة للدراسة عن بعد (عبر الإنترنت).

رابعاً. قد تترك استراتيجية الابتعاد الجسدي والحجز المنزلي آثاراً على الصحة النفسية والجسدية، وتحديداً في حال عدم توفر فرص ملائمة للحركة.

خامساً. هناك خشية من نوعية التقاليد الاجتماعية التي تولدها ممارسة ممتدة للابتعاد الجسدي.

هذا إضافة إلى تداعيات الكساد الاقتصادي الممتد على أحوال وحجوم الفئات الفقيرة.[25] لذا، من الطبيعي أن يتوقع البعض أشكالاً مختلفة من الانتفاضات الشعبية نتيجة تفاقم البطالة والفقر، وقصور العديد من الدول عن معالجة تداعيات الوباء واحتمالات عودته.[26]

خامساً. توقع دور أوسع للتكنولوجيا الرقيمة

نبهت سياسة الإلزام بالبقاء في البيت والتباعد الجسدي إلى أهمية توسيع فرص العمل من البيت والتواصل عن بعد (وبخاصة في مجال التعليم والتفاعل مع الآخرين)، وهذه أشارت إلى توقع دور أوسع للتكنولوجيا الرقمية (digital technology) توقعاً لحدوث أوبئة مشابهة في المستقبل. ومن هنا، شهدت الفترة التي تلت أزمة كورونا دراسات وأبحاث متعددة (ومتوقع أن تتزايد) تنبئ بدور أكبر لهذه التقنية في حياة الناس.[27] وهو أمر له أبعاد عدة؛ فمن جهة، بان دور مهم لوسائل الاتصال الاجتماعي في تغطية جوانب مهمة من الفراغ الذي خلفته سياسة التباعد الجسدي والبقاء في البيت، ومن جانب آخر اتّسعت الفروق الاجتماعية بحكم أن البعض استطاع العمل من البيت مستخدماً التقنية الرقمية بخلاف آخرين. كما جرى استخدام هذه التقنية من قبل بعض الدول لتتبع المصابين، ورقابة حركة الناس خارج المنزل، وفي فرض «حالة الاستثناء» على المجتمع.

ج. تداعيات وباء كورونا فلسطينياً

يمكن مناقشة تداعيات أزمة كورونا على الحال الفلسطيني من أكثر من مداخل صحية، واقتصادية، وسياسية. هناك بالطبع مداخل أخرى تستحق الاهتمام، وتحديداً تأثيرات الأزمة على العلاقات الاجتماعية، وعلى الحقل الثقافي، وكلاهما يحتاج إلى معالجة دقيقة ومستفيضة.

انتشار الوباء في الضفة الغربية وقطاع غزة بقي محدوداً لأسباب عدة، منها أن إسرائيل هي التي تسيطر على حدود كل منهما. الوباء انتشر في الضفة الغربية من خلال الزوار الأجانب (لبيت لحم)، ومن ثم من خلال العمال الفلسطينيين العاملين في إسرائيل ومستوطناتها. من هنا، كانت دعوة السلطة الفلسطينية إلى إلغاء الحجوزات للزوار الأجانب في الفنادق، ودعوة العمال الراغبين في العمل داخل الخط الأخضر وفي المستعمرات إلى البقاء هناك لفترة لا تقل عن شهر، وفرض إجراءات احترازية على السكان. ولذا، كانت النسبة الأعلى من المصابين الفلسطينيين من سكان القدس الشرقية،[28] ومن الأراضي المحتلة العام 1948. السبب الثاني يعود إلى أن نسبة أعلى من الفلسطينيين، مقارنة بأوروبا وأمريكا إسرائيل، هم من الأطفال والشباب، أي من الفئات الأقل عرضة للعدوى وأقدر على مقاومة الوباء، وربما يكون هذا من أسباب (وليس السبب الوحيد) الارتفاع النسبي للوفيات بين الجاليات الفلسطينية مقارنة بغيرهم من الفلسطينيين.[29]

السبب الثالث لانخفاض معدلات الإصابة في الضفة الغربية وقطاع غزة (وبين الفلسطينيين من حملة الجنسية الإسرائيلية) يعود إلى أن الفلسطينيين في هذه المناطق محاصرون من قبل إسرائيل كسلطة استعمارية استيطانية محتلة، إما في «غيتوات»، كما هو الحال في قطاع غزة، أو «بانتوستانات» كما هو الحال في الضفة الغربية (مناطق «أ» و«ب» و«ج»)، أو في معازل جغرافية كما في حال الفلسطينيين داخل إسرائيل.

أما السبب الرابع، فمصدره الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الفلسطينية في الضفة الغربية وحكومة «حماس» في قطاع غزة، التي تضمنت قيوداً متشددة على الحركة والتجمهر، والتباعد الجسدي، وإغلاق للمدارس والجامعات ومواقع التجمع الأخرى. وربما سهل اتّخاذ هذه الإجراءات من الحكومتين، كون الاقتصاد الفلسطيني في كليهما يعتمد، إلى درجة كبيرة، على التحويلات من الخارج، ويفتقد إلى الترابط الجغرافي والقطاعي. وهي إجراءات لاقت استحساناً واسعاً من الطبقة الوسطى التي لم تفقد دخلها لاعتماد نسبة عالية منها على مؤسسات السلطة، أو على قدرتها على العمل من البيت، أو في بيئة قادرة على تدبير الابتعاد الجسدي كالبنوك، والاتصالات، والمنظمات غير الحكومية.

ما سبق لا يقلل من تراجع النشاط الاقتصادي الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي القدس الشرقية وفي الأرض المحتلة العام 1948 نتيجة إجراءات مواجهة وباء كورونا. تشير الأبحاث حول هذا الموضوع إلى ما يلي؛ تراجع الناتج المحلي الإجمالي للضفة الغربية العام 2020 بنسبة 21% (بالأسعار الجارية) إن عادت الحياة إلى طبيعتها تدريجياً خلال الأشهر الثلاثة الأولى من إعلان الطوارئ، وإلى 35% إذا ما تم تمديد الإجراءات المقيدة للنشاط الاقتصادي لفترة شهر ونصف إضافية.[30] وهناك فئات اجتماعية تضررت بشكل واسع وملموس. وهي تشمل الفئات التي تعمل بأقل من الحد الأدنى للأجور، والتي يعمل معظمها في القطاع غير المنظم (أي بدون عقود عمل وبدون حقوق مؤكدة). وتشمل الفئات التي فقدت عملها نتيجة توقف المنشآت التي تعمل فيها خوفاً من انتشار الوباء. وتشمل، أيضاً، العاملين في إسرائيل ومستعمراتها، الذين بلغ عددهم في نهاية العام 2019 نحو 133 ألف عامل. وقد خسرت نسبة عالية منهم عملها بسبب توقف المشاريع التي عملت فيها، أو بسبب إغلاق المعابر، أو بسبب الخشية من العدوى. ومع بداية أيار 2020، لم يبق يعمل في منشآت إسرائيلية سوى قرابة 25 ألف عامل من الضفة الغربية فرض عليهم المبيت داخل الخط الأخضر. وبدون عمل، ستكون عائلات هؤلاء بحاجة ماسة إلى المساعدة.[31]

في القدس الشرقية كان فيروس كورونا أكثر انتشاراً (مقارنة بعدد السكان) من بقية التجمعات الفلسطينية لسببين؛ يعود الأول للوجود المكثف لليهود الأرثوذكس في المدنية؛ وهم الفئة التي كانت الأقل التزاماً بقواعد الحماية من الوباء، ويعود الثاني إلى كون نسبة عالية من الفلسطينيين هناك (مقارنة بالإسرائيليين) تتشكل من فئات فقيرة وتسكن مناطق تتجاور مع اليهود الأرثوذكس. وبحكم اعتماد القدس القديمة على السياحة وعلى التسوق المحلي (من فلسطيني 48 والضفة الغربية) فمن المتوقع أن يتعرض الفلسطينيون في القدس إلى نسب عالية جداً من البطالة نتيجة لإجراءات الحد من انتشار الوباء، ولسياسة التمييز المعتمدة إسرائيلياً ضدهم.[32]

انتشار الفيروس في قطاع غزة كان أقل من مثيله في الضفة الغربية (مقارنة بعدد السكان) على الرغم من كثافة القطاع السكانية العالية، وتعرضه لنسب عالية من الفقر والبطالة والاكتظاظ التي تعتبر عوامل مشجعة على انتشار العدوى. حالة الحصار والإغلاق التي يعيشها القطاع منذ العام 2006 هي السبب الرئيس في انخفاض منسوب العدوى. ومنها أيضاً توقف عمال غزة عن العمل في إسرائيل منذ تولي حماس السلطة هناك، والإجراءات التي اتّخذتها حكومة حماس للحد من انتشار الفيروس. وكانت حكومة قطاع غزة قد اتّخذت منذ بداية آذار 2020 إجراءات وقائية شملت إغلاق المؤسسات التعليمية، ووقف الصلاة في المساجد، وإغلاق المرافق الاقتصادية ذات العلاقة بالسياحة والفنادق والمطاعم، وقد استمر العمل بهذه الإجراءات حتى منتصف أيار 2020.

تشير تقارير دولية إلى أن الفترة الزمنية التي تلت وباء كورونا[33] وما رافقها من إعلان حالة طوارئ شهدت تفاقماً في أوضاع قطاع غزة المعيشية. فقد خسر ما بين 15 و20 ألف عامل فلسطيني عملهم بسبب سياسة الإغلاق التي اعتمدت للحد من انتشار الوباء. ويعاني قطاع غزة من بطالة عالية (لا تقل عن 43%) وأكثر من نصف السكان (53%) تعيش تحت خط الفقر.[34] ويعاني القطاع من نقص شديد في الخدمات والتجهيزات الطبية نتيجة الحصار الحاد.

يشير استطلاع أجرته دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية في نهاية نيسان/أبريل 2020، وشمل عينة تمثيلية للجمهور في إسرائيل، أن الوضع الاقتصادي لنحو 46% من المستطلعين ساء في أعقاب أزمة كورونا، وترتفع هذه النسبة بين الفلسطينيين هناك إلى 57%.[35] وهذا ينسجم مع المعطيات أن وقع إجراءات الحد من انتشار الوباء على أوضاع الفئات التي تعيش حالات من الاستثناء والتمييز، هو الأشد.[36]

تفسيرات عدة طرحت لتفسير تدني إصابة الفلسطينيين في الأراضي المحتلة العام 48، مقارنة باليهود الإسرائيليين، منها إلى أن نسبة عالية من المصابين اليهود جاءت من بين المحتفلين بعيد المساخر ولليهود العائدين من الخارج، وعدم التزام اليهود المتدينين (الحريديم) بالتقييد بإجراءات بالوقاية والحجر الصحي. الفلسطينيون لا يحتفلون بعيد المساخر، وعدد أقل منهم يسافر إلى خارج البلاد. البعض طرح، دون أدلة علمية مدققة، أن تقاليد الطعام عند الفلسطينيين العرب تختلف عن اليهود، حيث تدخل الأعشاب الطعام اليومي، ما يساهم في تحصين المناعة.[37] لكن التفسير الأقرب صدقية نجده في واقع أن البلدات العربية الفلسطينية في إسرائيل، كما هي الأحياء في المدن معزولة بشكل ملموس عن المدن والمستعمرات الإسرائيلية. ويتصل بالموضوع مبادرة تشكيل غرفة الطوارئ العربية القُطرية ونشاطها مع لجنة الرؤساء ولجنة المتابعة العليا للجماهير العربية، الأمر الذي عزز من جهوزية البلدات الفلسطينية هناك. كما تجدر الإشارة إلى أن الفلسطينيين في إسرائيل (كما هو حال الأردنيين على سبيل المثال) يتمتعون بنسبة أعلى من الأطفال والشباب الأقل عرضة للوباء.

وباء كورونا لن يغيّر واقع الاستعمار الاستيطاني العنصري

في الأسابيع التي تلت انتشار الوباء، تزايدت وتيرة اعتقالات إسرائيل التعسفية، وهدم البيوت واعتداءات المستوطنين على الفلسطينيين المدنيين.[38] ولاحظ أكاديمي إسرائيلي أن الحكومة الإسرائيلية استخدمت حالة الطوارئ في مجابهة وباء كورونا لتكريس سلطتها وتعزيز النظام النيوليبرالي القائم. كما استخدمت الحالة لتسويق تشكيل حكومة طوارئ تمنح رئيس وزراء متهماً بالفساد الموقع الأول للفترة الأولى. كما استخدمت حالة الطوارئ لتسريع تشريع إسرائيل رسمياً كدولة أبارتهايد.[39]

يميل النقاش الجاري بين النخب الفلسطينية حول التصدي لمخططات الضم إلى طرح تصورات

عامة تفتقد إلى آليات وتدابير كون هذه الأدوات بحوزة مراكز قوى لا ترى أن من مصلحتها ترجمتها إلى آليات تنفيذ. طرح تصورات عامة، وإن محقة، مثل إعادة بناء مؤسسات منظمة التحرير، وإعادة النظر في شكل ووظائف السلطة، ووقف التنسيق الأمني، وتشكيل فريق وطني لإعداد خطة شاملة للنهوض الوطني، وغير ذلك، لا يكفي إن لم يترافق مع آليات لتحقيق هذه الأهداف. ولذا، يبقى الحال الفلسطيني بانتظار ظهور تشكيلات جديدة تحمل أهدافاً تحررية، وتقوم على أسس وقيم ديمقراطية تتصدى للمأزق الوطني الفلسطيني المركب.

على صعيد الوضع الفلسطيني، استمر تفكك الحركة السياسية الفلسطينية وتغييب المؤسسات الوطنية (سواء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، أو المجلس المركزي، أو الوطني، أو المجلس التشريعي). ولم تعد تؤخذ قرارات هذه المؤسسات محمل الجد بعد اتضاح أن القرار بات بيد أفراد قلائل يجمعون كل السلطات بيدهم.[40]

لقد تفككت الحركة الوطنية الفلسطينية الجامعة التي قادتها مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية إلى تشكيلات محلية وفق تحديدات الجغرافيا السياسية التي غيّبت مصالح وحقوق الكل الفلسطيني. ولم تعد منظمة التحرير ولا السلطة الفلسطينية تحظى بثقة غالبية الجمهور الفلسطيني. ولم يعد هناك من يعوّل على تنفيذ قرار اللجنة التنفيذية في 7 أيار 2020، الذي نص على «أنه في حال إعلان الحكومة الإسرائيلية عن ضم أي جزء من الأراضي الفلسطينية ...، فإن جميع الاتفاقات والتفاهمات بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية والإدارة الأميركية ستكون لاغية وباطلة». لكن استمرت أشكال من التنسيق الأمني بين أجهزة السلطة وأجهزة الدولة المستعمِرة بعد صدور أمر، بتاريخ 2020/02/09، من الجيش الإسرائيلي بإغلاق حسابات الأسرى[41] لدى المصارف العاملة في الضفة الغربية. وحتى كتابة هذه الأسطر (بداية شهر حزيران 2020) لم تتوضح بعد التدابير العملية المترتبة على إعلان رئيس السلطة الفلسطينية في 2020/5/19 «أن منظمة التحرير الفلسطينية، ودولة فلسطين قد أصبحتا في حلٍّ من جميع الاتفاقات والتفاهمات مع الحكومتين الأميركية والإسرائيلية»، وإن كانت ستشمل كل أشكال التنسيق الأمني. ولم يقابل هذه الإعلان بالمظاهرات الترحيبية والداعمة من قبل الجمهور الفلسطيني.

بات ضم مناطق جديدة من الضفة الغربية أو/وإخضاعها للسيادة الإسرائيلية أمراً متوقعاً دون إطار زمني محدد بعد تشكيل حكومة الطوارئ في أواسط أيار 2020، وبعد أن تلقى قرار الضم الضوء الأخضر من إدارة الرئيس ترامب.[42] وفي السياق الاستعماري ذاته، أصدر القضاء الإسرائيلي أمراً بالحجز على 450 مليون شيكل من أموال عائدات الضرائب للسلطة الفلسطينية.[43] وجاء هذا القرار على خلفية تحميل السلطة الفلسطينية المسؤولية عن عمليات استهدفت إسرائيليين. وهو أمر يزيد من صعوبات السلطة الفلسطينية، وخشية الأمم المتحدة من تداعيات فيروس كورونا على «بقاء واستمرارية» السلطة الفلسطينية.[44]

ويجدر الانتباه إلى أن بعض الصحف الإسرائيلية حذرت من تبعات ضم إسرائيل لمناطق من الضفة الغربية، معتبرة أن هذه الخطوة «ستضع مسؤولين كباراً ومواطنين إسرائيليين على بعد خطوة من تخوف حقيقي من الإحالة على المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي»، مستخلصة أنه على الحكومة الإسرائيلية والكنيست أن تفحصا «بعمق مجمل تداعيات هذه الخطوة المتهورة».[45] كما يعارض البعض الإسرائيلي من عمليات الضم حفاظاً على «نقاء» الدولة اليهودية.[46]

رأى محللون فلسطينيون أن إصدار رئيس السلطة الفلسطينية، تحديداً خلال أزمة كورونا، قرارات بقانون تجاوز ما تستدعيه الضرورة، وهذا يسري على القرار بقانون رقم (5) لسنة 2020 الخاص بديوان الرئاسة،[47] الذي لا يقل أهمية عن القرارين اللذين سبقوه وجرى التراجع عنهما.[48] فقد اعتبر هؤلاء أن القرار (رقم 5) مخالف للقانون الأساسي الفلسطيني، ويمنح ديوان الرئاسة ورئيسه صلاحيات تنفيذية وقانونية واسعة تلغي مبدأ الفصل بين السلطات وتقويض استقلالية القضاء والسلطة التشريعية، وتنزع العديد من صلاحيات حكومة رئيس الوزراء.

د. خاتمة

لم تنتفِ احتمالات عودة وباء كورونا لاحقاً، ولا ظهور أوبئة أخرى فتاكة ما دامت علاقة الإنسان مع الطبيعة ومع عالم الحيوانات غير مبنية على ترابط العلاقة بين الطبيعة والإنسان والثقافة (بالمعنى الشمولي)، وما دام رأس المال وأسواقه تتمتع بالسيادة في تحديد العلاقة مع الطبيعة ومع المجتمع ومع الثقافة، وما دامت العلاقة بين البشر قائمة على إدامة ظواهر عدم المساواة والتسلط.

لقد عرّت الأزمة عمق الفجوات بين البشر في الثروة والسلطة والمعرفة، وبانت معاداة الرأسمالية النيوليبرالية للبشرية، وأن لا مستقبل لهذه دون سيادة قيم العدالة والتكافل الاجتماعي الشامل، ودون رعاية صحية للجميع ودون استثناء. كما أبرز الوباء ضرورة إعادة النظر في بنية وأهداف ووظائف المؤسسات الدولية كمؤسسات معنية بخدمة البشر كافة. كما أبرز أهمية ربط المواطنة بالحقوق وبميثاق اجتماعي جديد، يحدد العلاقة بين الدولة والمواطن. وأضاء مخاطر استغلال الوباء لتغذية التوجهات الشمولية والأصولية والعنصرية،[49] ولتعزيز منزلق النزعة القومية الضيقة،[50] وتداعيات استسهال فرض «حالة الاستثناء» على المجتمعات وحقوق الإنسان واستغلال التكنولوجيا الرقمية لإنتاج واستخدام وتسويق أجهزة لرصد المواطنين واستلاب خصوصيتهم. وربما كان وراء طرح المفكر سلافوي جيجك، على أثر انتشار وباء كورونا، الدعوة إلى الحاجة لوجود مؤسسة عالمية لتنظيم الاقتصاد الدولي، والتحول من اقتصاد السوق الرأسمالي إلى شكل من «الشيوعية» وإن كانت كامنة.[51]

من المتوقع أن تترك أزمة كورونا تداعيات على شكل ومضامين العلاقات الاجتماعية من حيث

تنامي التداولات الرقمية، ووقع ذلك على الفئات المهمشة والفقيرة والمهجّرة واللاجئة. كما يجدر التمعن فيما جرى من إجراءات طوارئ طالت تقليص شديد للفضاءات الثقافية العامة، وإغلاق المرافق الثقافية على أنواعها، وانتقال العديد من المواقع الثقافية إلى فضاءات رقمية كإجراء مؤقت يمكن أن يأخذ أشكالاً ذات ديمومة، بكل ما سيترتب على ذلك من تحول في العلاقة بين الثقافة والجمهور.

على الصعيد الفلسطيني، كشفت أزمة كورونا غياب السيادة الفلسطينية والحاجة لوضع رؤية واستراتيجية فلسطينية جديدة بعد أن دمرت إسرائيل إمكانية قيام دولة فلسطينية مستقلة وقادرة على الحياة، وبعد تأهب الدولة المستعمِرة لاتخاذ خطوات ضم جديدة في الضفة الغربية، وبعد أن اتضح محدودية دور الرأسمال الفلسطيني الخاص الوطني، وضعف حضور منظمات المجتمع المدني خلال الوباء باستثناءات (قد تكون أحدها في مدينة القدس الشرقية).[52]

جميل هلال: سوسيولوجي (عالم اجتماع) فلسطيني مستقل، ومحاضر جامعي وكاتب. عمل محاضراً في جامعة درهام، وجامعة لندن، وجامعة دار السلام، وزميلاً باحثاً زائراً في جامعة أكسفورد في بريطانيا. وشغل ومواقع متقدمة في هيئات منظمة الحرير، وشغل منصب باحث رئيسي في عدد من المؤسسات البحثية والأكاديمية الفلسطينية (منها جامعة بيرزيت، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، ومؤسسة مواطن، ومعهد "ماس" ... وغيرها). نشر العديد من الكتب والمقالات والمؤلفات عن المجتمع الفلسطيني، والصراع العربي-الإسرائيلي، وقضايا الشرق الأوسط؛ وقضايا الفقر، والتنظيمات والأحزاب السياسية الفلسطينية (رام الله: مواطن، 2006)، والنظام السياسي الفلسطيني بعد أوسلو، وتكوين النخبة الفلسطينية والطبقة الوسطى، والشباب، وموضوعات التنمية في الشرط الفلسطيني، وقضايا التعليم في المرحلة الأساسية، وحرر العديد من كتب مؤسسة الدراسات الفلسطينية كان آخرها (2019) عن ماهية وتحولات المشروع الوطني الفلسطيني. ونشر بالإنجليزية (وترجم إلى الإيطالية والإسبانية والعربية) كتاب؛ ((Palestine: The Demise of the Two-State Solution، Zed Books, 2007) ومقالات عدة في مجلات محكمة. كما حرر مع إيلان بابه كتاباً عن الرواية التاريخية من وجهتي النظر الفلسطينية والإسرائيلية، نُشر بالإيطالية سنة 2004، وصدر بالإنكليزية تحت عنوان (Across the Wall (I.B. Tauris, 2010). ويشارك هلال في هيئات تحرير عدد من المجلات العربية والإنجليزية، ويشارك في هيئات مدنية وطنية.

Endnotes

1 انظر:
David Harvey, "Anti-capitalist politics in time of Covid-19", Jacobin Magazine, 19 March 2020.

2 المرجع السابق.

3 انظر:
Foreign Policy, "How the World Will Look After the Coronavirus Pandemic", 20 March 2020.

نقلت صحيفة عرب 48 بتاريخ 6/4/2020 إلى العربية أبرز ما ورد في التقرير أعلاه.

4 أستاذ العلاقات الدولية في جامعة هارفارد، ستيفان م. والت، مرجع سابق.

5 رئيس معهد «بروكينغس» للأبحاث، جون إلن، مرجع سابق.

6 كوري شاك، مرجع سابق.

7 نيكولاس بيرنز، مرجع سابق.

8 مدير معهد «تشاتام هاوس»، روبين نيبلت، مرجع سابق.

9 الباحث في معهد أبحاث الشؤون الآسيوية التابع للجامعة الوطنية في سنغافورة، كيشوري محبوباني، مرجع سابق.

10 الباحثة في قسم دراسات أميركا اللاتينية في مجلس العلاقات الخارجية الأميركية، شانون. ك. أونيل، مرجع سابق.

11 باحثة سابقة في مجال الصحة العالمية في مجلس العلاقات الخارجية، لورين غاريت، مرجع سابق.

12 باحث في مؤسسة «بروكينغس إنديا»، والمستشار السابق للأمن القومي في الهند، شيفشانكار مينون، مرجع سابق.

13 أستاذ السياسة والشؤون الدولية في جامعة برينستون، جون إكنبيري، مرجع سابق.

14 جوزيف س. ني جونيور، أستاذ جامعي في هارفارد، مرجع سابق.

15 ريتشارد هاس، رئيس مؤسسة «مجلس العلاقات الخارجية» الأميركية، مرجع سابق.

16 وهي ملاحظة انتبه لها بعض المعلقين الفلسطينيين، انظر على سبيل المثل؛ لميس أندوني، «في نقاش العالم بعد كرونا»، العربي الجديد، 12 نيسان/أبريل 2020.
انظر أيضاً مقال:
Subin Dennis, "Coronavirus pandemic brings to light the need for a stronger public sector", Alter Net, April 10, 2020.

17 انظر:
The Financial Times, Editorial board, "Virus lays bare the frailty of the social contract", April 3, 2020.

18 انظر:
Rob Wallace & others, "Covid-19 and Circuits of Capital", Monthly Review, 27 March 2020 (https://monthlyreview.org/2020/04/01/covid-19-and-circuits-of-capital/).

19 أعلن وزير الأمن الإسرائيلي المنتهية ولايته نفتالي بنيت، بتاريخ 18/5/2020، أن «الجيش الإسرائيلي ومؤسسة الأمن هزموا كورونا، حيث قام الجيش الإسرائيلي وجهاز الأمن بأكثر من ثلثي الجهود في مكافحة فيروس كورونا المستجد». وكالة معا الإخبارية، بتاريخ 19/5/2020.

20 انظر:
Giorgio Agamben, "The Invention of an Epidemic", 26/2/2020 (Published in Italian on Quodlibet.

21 انظر تقرير وكالة معا الإخبارية، «نعوم تشومسكي: ما بعد كورونا أخطر من الوضع الراهن» بتاريخ 14/4/2020.

22 انظر: Interview with Jurgen Habermas, in Le Monde, April 10, 2020).

23 انظر، على سبيل المثال، التقرير التالي:
Rebecca Solnit, "Coronavirus does discriminate because that is what humans do", The Guardian, 17 April 2020).

24 انظر:
See for example; Isaac T. Tabner, "Five ways coronavirus lockdowns increase inequality", April 8, 2020, The Conversation.

25 انظر:؛
Steve Schifferes»The coronavirus pandemic is already increasing inequality", The Conversation, April 10, 2020.

26 قد يجد القارئ ما يفيد في مقال د. ماهر الشريف الذي يرصد احتمالات واقع ما بعد وباء كورونا، المعنون «كيف سيكون العالم ما بعد كورونا»، المنشور في مدونات مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بتاريخ 22/5/2020.

27 انظر على سبيل المثال:
Andreas Carney, "Digital transformation core to coronavirus recovery", Out-Law News, 30 April, 2020.
Simon Blackburn, Laura LaBerge, Clayton O'Toole, and Jeremy Schneider, "Digital Strategy in a Time of Crisis", Mckinsey Digital, April, 2020.

28 حول تعامل السلطات الإسرائيلية التمييزي مع سكان القدس الفلسطينيين، انظر؛
Osama Tanous, "When Pandemic Hit Militarized Urban Spaces", Rosa Luxemburg Stiftung Office of Palestine and Jordan, 21/5/2020.

29 بتاريخ 31/5/20209، كان عدد الإصابات والوفيات بين الجاليات الفلسطينية حسب مصادر الخارجية الفلسطينية كالتالي: الإصابات 1752 حالة، الوفيات 100 حالة.

30 انظر: ماس (معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني)، ملحق خاص «بالمراقب الاقتصادي» (الجزء الأول): «النمذجة الاقتصادية الكلية للسناريوهات المحتملة وتقديرات للآثار المحتملة على الاقتصاد الفلسطيني لتفشي وباء كوفيد 19 في الضفة الغربية» (رام الله، وزّع على الإنترنت بتاريخ 8/5/2020). وانظر أيضاً: الجزء الثاني المعنون: «آثار تفشي وباء كوفيد 19 على القطاعات الاقتصادية الفلسطينية في الضفة الغربية» (www.mas.ps).

31 المرجع السابق، الجزء الثاني.

32 انظر:
Amnon Ramon, Yohanan Tzoreff, "The Coronavirus Pandemic and East Jerusalem", INSS (The Institute for National Security Studies) Insight No. 1312, May 5, 2020.

33 راجع إلى ما ورد على لسان المتحدثة باسم اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي عن الوضع في قطاع غزة في حوار خاص مع وكالة الأناضول نشرته صحيفة عرب 48، بتاريخ 7/5/2020).

34 الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني. «النتائج الرئيسية لمستويات المعيشة في فلسطين (الإنفاق، الاستهلاك، الفقر)»، 2017.

35 انظر تقرير صحيفة عرب 48 بتاريخ 8/5/2020 المعنون «تراجع

تداعيات جائحة كورونا على الاقتصاد العالمي

غسان الخطيب[1]

مقدمة

بـدأ تفـشي وبـاء كورونـا أو «كوفيـد 19» في مقاطعـة ووهـان بالصـين تقريبـاً بتاريـخ 31-12-2019،[2] وبقـي محصـوراً بالصـين لمـدة نحـو ثلاثـة أشـهُر، ليـؤدي إلى 84,165 إصابـة و4,634 حالـة وفـاة،[3] وقـد انتـشر بعـد ذلـك تدريجيـاً في مختلـف دول العـالم، متحـولاً مـن وبـاء (Epidemic) إلى جائحـة عالميـة (Pandemic). وقـد أُصيـب بالعـدوى حتـى تاريـخ 1-9-2020 مـا مجموعـه 25,500,870 شـخصاً في العـالم، وتُـوفي مـا لا يقـل عـن850,879 شـخصاً.[4]

وبحكـم القـدرة الشـديدة للفـيروس المسـبب للمـرض عـلى الانتشـار، وبالتـالي العـدوى، وبسـبب عـدم وجـود لقـاح يوفـر المناعـة مـن الإصابـة، فقـد توافـق خـبراء الصحـة والمؤسسـات الصحيـة الدوليـة والمحليـة في معظـم بـلاد العـالم عـلى أنّ الوقايـة هـي الطريـق الأمثـل لتجنـب انتشـار المـرض تمهيـداً لاحتوائـه.

وقـد شـملت توصيـات الخـبراء وتعليـمات السـلطات الصحيـة إغلاقـاتٍ واسـعةً لمـدة طويلـة، شـملت الحـد مـن التنقـل والاختـلاط، مـا أدى إلى وقـف العمـل في معظـم القطاعـات مُـدَداً متفاوتـة، الأمـر الـذي أدى إلى وقـف عجلـة الإنتـاج، وتراجـع تصريـف المنتجـات، وبالتـالي تراجـع الاسـتثمارات، وارتفـاع وتأثـر البطالـة.

الوضع الاقتصادي لـ 57% من المواطنين العرب بسبب كورونا».

36 حول أشكال التمييز ضد الفلسطينيين في مناطق 48 فيما يخص الاهتمام الحكومي بالبلدات الفلسطينية، انظر: تقرير الجزيرة، المعنون «فلسطينيو 48 يواجهون جائحة كورونا وفيروس التمييز العنصري في إسرائيل» بتاريخ 20/4/2020.

37 انظر: تقرير في صحيفة الشرق الأوسط (العدد 15116) بتاريخ 17 نيسان/أبريل 2020 تحت عنوان: «أطباء «الصحة» الإسرائيلية يتساءلون: هل تجعل نباتات معينة عرب الداخل أكثر حصانة؟».

38 انظر:
OCHA, 2 April 2020 (https://www.ochaopt.org/poc/17-30-march-2020).

39 انظر:
Oren Yiftachel. “Welcome to the era of coronialism”, +972 Magazine, 30th Aril 2020. https://www.972mag.com/welcome-to-the-era-of-coronialism/

40 انظر على سبيل المثال: هاني المصري، «حالنا يشبه أهل بيزنطة»، قدس، 5/5/202.

41 في بداية العام 2020، كان هناك في السجون الإسرائيلية نحو 5000 أسير، منهم 431 رهن الاحتجاز الإداري، من بينهم 194 أحداث قصّر، 30 منهم تقلّ أعمارهم عن 16 سنة؛ إضافة إلى 43 امرأة، و6 أعضاء من المجلس التّشريعي الفلسطيني.

42 انظر على سبيل المثال:
Zahra Hassan and Arron David Miller, Israel-Palestine and Corona, Carnegie Endowment, April 14, 2020.

43 أصدرت المحكمة المركزية في القدس، في شهر تموز/يوليو 2019، قراراً يقضي بتحميل السلطة الفلسطينية المسؤولية عن 17 عملية استهدفت إسرائيليين. وحسب القرار يستطيع كل إسرائيلي تضرر من عمليات قام بها فلسطينيون تقديم دعاوى تعويضات مالية ضد السلطة الفلسطينية.

44 انظر: تقرير «الأمم المتحدة، حول تداعيات فايروس كورونا على «بقاء واستمرارية السلطة الفلسطينية». AA (Anadolu Agency), 12. 04. 2020.

45 ”معاريف»، 5/5/2020، مقال «يجب أن نفحص بهدوء قضية الضم من طرف واحد»، بقلم العميدة بالاحتياط راحيل دولف عضو في حركة قادة من أجل أمن إسرائيل. مختارات من الصحف الإسرائيلية مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مختارات من الصحف الفلسطينية، 7/5/2020.

46 انظر: لميس أندوني. «لماذا تعارض أصوات صهيونية ضم الضفة الغربية»، العربي الجديد، 10/5/2020.

47 حسب رأي قانوني فإن «نظام الحكم الفلسطيني، يتخذ منعطفاً تدريجياً لإعادة النظام الرئاسي ... وذلك من خلال إنشاء مؤسسات رئاسية موازية لعمل الحكومة الفلسطينية». (انظر؛ المحامي كنعان الصوراني. «قانون ديوان الرئاسة الجديد، المعلوم والمجهول»، دنيا الوطن، 5/5/2020.

48 ترى مذكرة من مؤسسة «مساواة» أن هذا الإلغاء لا أثر له ولا قيمة ولا معنى له من الزاوية القانونية، لأن العمل به تم ولا مجال للتراجع عمّا تم (انظر؛ «كفى استهتاراً بعقول الناس وتهديداً للأمن القومي»، 14/5/2020).

49 كمثال؛ نص تعميم أصدرته المديرية العامة للأمن العام اللبناني في 3 أيار/مايو 2020 على عدم السماح بالعودة إلى لبنان على متن طائرات إجلاء اللبنانيين للأشخاص من «التابعية الفلسطينية اللاجئة في لبنان» (أي إن كان وثيقة سفر فلسطينية أو جواز سلطة) والخدم.

50 انظر على سبيل المثال؛
Andrew Jack, “Divide and rule: coronavirus provokes dangerous nationalism”, Financial Times, May 6, 2020.

51 انظر:
Slavoj Žižek, Pandemic! Covid-19 Shakes the World, New York, OR Books 2020.

52 انظر مقال رولا سلامة، «هل عادت المؤسسات الوطنية لمجدها السابق في القدس»، معا الإخبارية، 17/05/2020.

وقد أدى استمرار هذه الإجراءات مدةً طويلةً نسبياً (حيث وصلت مدة الإغلاق الكبير الذي شمل معظم العالم نحو 40 يوماً) إلى ضغوطٍ اقتصاديةٍ بالغة، أولاً على الأفراد، الذين فقدت أعداد متزايدة منهم مصادر دخلها وقدراتها الشرائية، وثانياً على خزائن الدول، التي باتت عليها أعباء توفير سيولة للمواطنين، وكذلك إنفاق صحي طارئ، إلى جانب تراجع الإيرادات الضريبية نتيجة تباطؤ الاقتصاد.

وقد نتجت عن الأزمة الاقتصادية ارتداداتٌ اجتماعيةٌ غايةٌ في الخطورة، فقد أدت الأزمة الاقتصادية غير المسبوقة منذ الكساد الكبير عام 1929 إلى ارتفاعٍ حادٍّ في معدلات الفقر، وأدى الضغط على موازنات التعليم، وكذلك إغلاق المؤسسات التعليمية، إلى تراجعٍ ملحوظٍ في الخدمات التعليمية والتحصيل العلمي في العالم، كما أثّر تباين تأثير الأزمة على الفئات الاجتماعية المختلفة والبلدان المتعددة إلى ازدياد الفجوات الاجتماعية والاقتصادية بين البلدان المختلفة، وبين الأفراد في داخل كل بلد.

من ناحيةٍ أُخرى، استدعى التعامل مع الجائحة والأزمة الاقتصادية الناتجة عنها عودةً لدورٍ أكبر لمؤسسات الدولة، وبسبب تراجع تنقل البضائع والمواد الخام وانسيابهما بين البلدان وتباطؤ سلاسل القيمة العالمية ((global value chains، ما أثار نقاشاً في الأوساط المختصة حول مستقبل العولمة الاقتصادية، التي على ما يبدو تلقت ضربةً أدت إلى تراجعها لدرجةٍ غير معلومةٍ حتى الآن.

ومما فاقم من تأثير الأزمة على العولمة، أنها جاءت بعد مجموعةٍ من السياسات المناهضة للعولمة التي انتهجتها الإدارة الأمريكية بعد الانتخابات الرئاسية الأخيرة عام 2016.

وبما أن الأزمة موضوع الدراسة في هذه الورقة حديثة، ولم يمضِ عليها أكثر من تسعة أشهر، حيث لم يظهر إلا القليل من الدراسات والمراجعات والأبحاث الأكاديمية حولها، فسيتم الاعتماد أكثر على تحليل التقارير والمعطيات الإحصائية الأولية الصادرة عن المؤسسات الدولية الاقتصادية المختصة.

المدخل إلى الأزمة

قبل الدخول في تحليل التداعيات الاقتصادية والاجتماعية للجائحة وجب توضيح نقطتين، الأُولى جسامة وقع الجائحة الصحية على الاقتصاد العالمي، والثانية أنّ الاقتصاد العالمي كان أصلاً في حالة تراجعٍ قُبيل هذه الجائحة وما نتج عنها من أزمةٍ اقتصادية.

على مستوى حجم العبء الاقتصادي للجائحة، بدايةً، من المهم ملاحظة أن التكلفة الاقتصادية للجائحة الصحية نتجت عن عوامل عدة، أولها اضطرار خزائن الدول المختلفة لزيادةٍ كبيرةٍ في الإنفاق على الحاجات الصحية، بما فيها شراء أجهزة ومواد طبية للفحوصات وللمعالجة،

وبناء مراكز طبية ومستشفيات ميدانية إضافية، وزيادة عدد العاملين في الخدمات الصحية، وغير ذلك من المتطلبات الطارئة التي لها تكلفةٌ إضافية.

كذلك، أدت الإغلاقات الاضطرارية الهادفة إلى وقف انتشار الفيروس إلى توقف الدخل بالنسبة لعددٍ كبيرٍ من العاملين، وكذلك الأعمال، الأمر الذي دفع الحكومات إلى زيادة الإنفاق بشكلٍ كبيرٍ في مجال مخصصات البطالة والمساعدات الإنسانية للذين فقدوا دخلهم، إضافةً إلى توفير المساعدات والقروض للأعمال المهددة بالانهيار حتى تبقى صامدةً وتتمكن من الاستمرار في توفير الأُجور لعمالها.

ويضاف إلى كل هذا تراجعٌ كبيرٌ في إيرادات الحكومات المختلفة، وإن كان بتفاوت، أولاً نتيجة تباطؤ العملية الإنتاجية والتجارية وتراجع المداخيل التي تُبنى عليها الضرائب، وثانياً بسبب الضائقة التي تمر بها الأعمال في معظم القطاعات، ما دفع بعض الحكومات إلى تقديم إعفاءات وتسهيلات وتأجيلات ضريبية كنوعٍ من الدعم الحكومي غير المباشر، الذي أدى بدوره إلى تراجع الإيرادات.

أما حول النقطة الثانية، وهي أن الأزمة جاءت على أرضية تراجعٍ اقتصاديٍّ عالميّ، فلعلّ من الأهمية بمكان تناول حالة التراجع هذه، خاصةً أنّ لها تداخلاً بما لحقها من أزمةٍ وتفاقمٍ غير مسبوقين لحالة الانكماش المذكورة.

كان النمو العالمي قد بلغ ذروةً قاربت 4% في العام 2017، ثم انخفض إلى 3,6% في 2018، وإلى 3,3% في 2019، أي أنّ صدمة كوفيد 19 جاءت على واقع اقتصادي عالمي في حالة تراجع.[5]

وقد نتج تراجع النمو الاقتصادي العالمي قبل جائحة كورونا عن سببين رئيسَين، إضافةً إلى مجموعة أسبابٍ أُخرى أقل أهمية.

السبب الأول: يتعلق بجملةٍ من السياسيات الاقتصادية التي اتبعتها إدارة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، بعد الانتخابات التي جرت العام 2016، حيث تميزت فترة بداية عمل إدارة ترامب بتوترٍ غير مسبوقٍ في علاقة بلاده الاقتصادية مع الصين، إضافةً إلى تصاعد السياسات الحمائية، التي عززها انسحاب أمريكا من عددٍ من الاتفاقات الدولية، هذه التوترات المتصاعدة بين الولايات المتحدة والصين على جبهاتٍ عدة، مع تصاعد نبرة الحمائية، أدت إلى ارتفاعٍ في حالة عدم اليقين بشأن السياسة التجارية، الأمر الذي أثّر سلباً على قرارات الاستثمار، وأدى إلى تراجعها.

وقد أشارت دراسةٌ أجراها صندوق النقد العربي حول التوترات التجارية بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين إلى أن «التوترات التجارية بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين تعد إحدى أهم عمليات التحول الكبرى في النظام التجاري العالمي، حيث سرعان ما أدت إلى تكريس حالة عدم اليقين في الاقتصاد العالمي والتأثير سلباً على مناخ الأعمال وثقة الأسواق

المالية، وهددت الانتعاش الذي كان متوقعاً في الاقتصاد العالمي خلال العام 2019، نظراً لثقل الاقتصادين الأمريكي والصيني في التجارة العالمية، الذي يبلغ قرابة 46 في المائة من التجارة العالمية معاً».[6]

أما **السبب الثاني**، فيتعلق بسياسات اقتصادية محددة اتبعتها الإدارة الجديدة لتنشيط الاقتصاد الأمريكي، مثل تخفيض الضرائب وزيادة الإنفاق من أجل تحفيز الطلب، وقد أدت الحاجة لزيادة الإنفاق إلى قيام الاحتياطي الفيدرالي برفع سعر الفائدة على الودائع، وبدرجةٍ أقل رفعت أسعار الفائدة على السندات الأمريكية طويلة الأجل، ففي حزيران 2017 «أقر الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي، البنك المركزي في الولايات المتحدة الأمريكية، رفع سعر الفائدة الرئيسي 0.25 في المئة، لتكون الزيادة الثانية في العام الحالي، والأعلى منذ الأزمة المالية 2008...». وأوضحت جانيت يلين، رئيسة الاحتياطي الفيدرالي، أن هذا القرار «يعكس حجم التقدم الذي أحرزه الاقتصاد والمتوقع أن يحققه أيضاً».[7]

ولأن المستثمرين شعروا بمخاطر على النمو في المستقبل نتيجة التوتر في العلاقات الاقتصادية الدولية، باتوا يُفضلون الأمان الذي تتيحه سندات الخزانة الأمريكية التي تم رفع الفائدة عليها، الأمر الذي زاد الإقبال عليها، وبدوره أدى ارتفاع معدلات النمو في الاقتصاد الأمريكي، إلى جانب ارتفاع معدلات الفائدة، إلى ارتفاع سعر الدولار الأمريكي أمام معظم العملات الأُخرى في العام 2018، وفي المحصلة، سبّب ارتفاع سعر الدولار ضغطاً على اقتصادات الأسواق الصاعدة والهشة، وأدى هذا بدوره إلى زيادةٍ في تكاليف الاقتراض الخارجي للاقتصادات الصاعدة، وإن كان بتفاوت، الأمر الذي أدى في المحصلة النهائية إلى تباطؤ في الاقتصاد العالمي.[8]

إضافة إلى هذين السببين الرئيسين لتراجع مؤشرات الاقتصاد العالمي، وهما التوتر في العلاقات الاقتصادية الصينية الأمريكية، والسياسات المالية الأمريكية، كانت هناك أسباب أُخرى متفرقة، ليس أقلها عدم الاستقرار في أسعار النفط الناتج عن المضاربة بين الدول المنتجة والمصدرة للنفط، وغني عن القول أنّ عدم استقرار أسعار النفط وميلها للانخفاض يضيفان كثيراً إلى حالة عدم اليقين التي تُثبط القرارات الاستثمارية، وتؤدي إلى تراجع النمو.

التداعيات الاقتصادية للجائحة الصحية

أدت الضغوط الاقتصادية الناتجة عن الجائحة الصحية إلى تراجعٍ حادٍّ في المؤشرات الاقتصادية المختلفة، وطبعاً أولها وأهمها مؤشر النمو الذي تراجع على مستوى العالم، حيث جاء في آخر تقرير لصندوق النقد الدولي في حزيران 2020 أنه «من المتوقع أن يبلغ النمو العالمي -9.4% في العام 2020، بانخفاضٍ قدره 9.1 نقطة مئوية عما تنبأ به]الصندوق[في نيسان العام 2020. وقد كان تأثير جائحة «كوفيد-19» على النشاط الاقتصادي في النصف الأول من العام 2020 أكثر سلباً من المستوى المنتظر، ومن المتوقع أن يكون التعافي أكثر تدرجاً مما أشارت إليه التنبؤات السابقة. أما في العام 2021، فمن المتوقع أن يبلغ النمو 4,5%، وعلى وجه الإجمال سيؤدي هذا إلى خفض إجمالي الناتج المحلي في العام 2021 بنحو 5,6 نقطة مئوية، مقارنةً بتوقعات كانون الثاني 2020 السابقة على ظهور كوفيد-19».[9] وبناءً على هذه المعطيات، اعتبرت المؤسسات الاقتصادية والمالية الدولية أنّ الاقتصاد العالمي قد دخل في حالة ركودٍ اقتصادي «انكماش» (Recession).[10]

ويُظهر الرسم البياني التالي الصادر عن صندوق النقد الدولي في حزيران 2020[11] التراجع في النمو العالمي عموماً، وكذلك التفاوت في النمو في المناطق المختلفة:

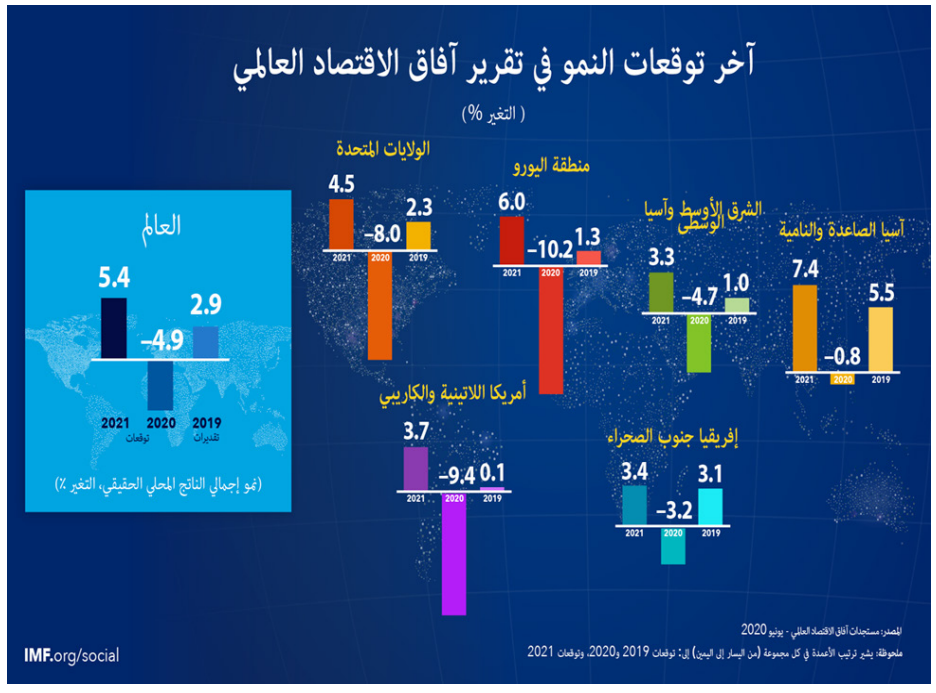

وقد تباين وقع التداعيات الاقتصادية على الدول المختلفة، ويمكن تحديد جملٍ من العوامل التي تحدد مدى تأثر الدول المختلفة بالأزمة، ويشمل ذلك معايير صحية، مثل مدى تفشي الجائحة وقدرة الأجهزة الصحية على مواجهتها، وعوامل اقتصادية، مثل مدى اعتماد الدولة على التمويل الخارجي والتجارة الخارجية والسياحة التي تضررت أكثر من غيرها.

ويعكس الجدول التالي، الصادر أيضاً عن صندوق النقد الدولي في حزيران 2020، مقدار تأثر كل دولة على حدة:

آخر توقعات النمو في تقرير آفاق الاقتصاد العالمي

توقعات

(إجمالي الناتج المحلي الحقيقي، التغير السنوي ٪)

	2021	2020	2019
الناتج العالمي	5.4	-4.9	2.9
الاقتصادات المتقدمة	4.8	-8.0	1.7
الولايات المتحدة	4.5	-8.0	2.3
منطقة اليورو	6.0	-10.2	1.3
ألمانيا	5.4	-7.8	0.6
فرنسا	7.3	-12.5	1.5
إيطاليا	6.3	-12.8	0.3
إسبانيا	6.3	-12.8	2.0
اليابان	2.4	-5.8	0.7
المملكة المتحدة	6.3	-10.2	1.4
كندا	4.9	-8.4	1.7
اقتصادات متقدمة أخرى	4.2	-4.8	1.7
اقتصادات الأسواق الصاعدة والاقتصادات النامية	5.9	-3.0	3.7
آسيا الصاعدة والنامية	7.4	-0.8	5.5
الصين	8.2	1.0	6.1
الهند	6.0	-4.5	4.2
آسيان-٥	6.2	-2.0	4.9
أوروبا الصاعدة والنامية	4.3	-5.8	2.1
روسيا	4.1	-6.6	1.3
أمريكا اللاتينية والكاريبي	3.7	-9.4	0.1
البرازيل	3.6	-9.1	1.1
المكسيك	3.3	-10.5	-0.3
الشرق الأوسط وآسيا الوسطى	3.3	-4.7	1.0
المملكة العربية السعودية	3.1	-6.8	0.3
إفريقيا جنوب الصحراء	3.4	-3.2	3.1
نيجيريا	2.6	-5.4	2.2
جنوب إفريقيا	3.5	-8.0	0.2
البلدان النامية منخفضة الدخل	5.2	-1.0	5.2

المصادر: صندوق النقد الدولي، تقرير مستجدات آفاق الاقتصاد العالمي، يونيو ٢٠٢٠.

وما فاقم من الأزمة الاقتصادية هذه، مقارنةً بأزماتٍ أُخرى، أنه في العادة يلجأ المستهلكون في الأزمات الاقتصادية إلى الصرف من مدخراتهم، وإلى الدعم العائلي للتمكن من الاستمرار بالإنفاق، وبالتالي يكون الاستهلاك أقل تأثراً نسبياً، لكن هذه المرة ظهرت توليفةٌ فريدةٌ من العوامل المؤثرة، أهمها التباعد الطوعي والإغلاق العام اللذان أديا إلى تراجع الاستهلاك والطلب، لذا خفّضت الشركات استثماراتها حين واجهت انخفاضات حادة في الطلب.

وقد أجمعت المؤسسات الدولية الاقتصادية والمالية المختصة على اعتبار هذه الأزمة الاقتصادية أعمق وأكثر حدةً من الأزمة المالية المعروفة بأزمة الرهن العقاري العام 2008، وأن هذه الأزمة هي الأخطر بعد الكساد الكبير العام 1929، كما يوضح الرسم البياني التالي الذي أعده صندوق النقد الدولي:

الإغلاق الكبير

سيشهد الاقتصاد العالمي أسوأ ركود منذ الكساد الكبير

(النمو الفعلي للناتج المحلي الإجمالي، التغيير بالنسب المئوية من سنة إلى سنة)

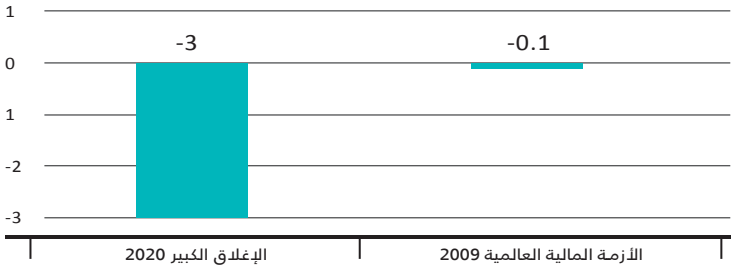

المصدر: صندوق النقد الدولي، تقرير آفاق الاقتصاد العالمي (الإنجليزي)

صندوق النقد الدولي

وبسبب طبيعة الإجراءات الوقائية لمواجهة الجائحة، التي ركزت أساساً على الإغلاق وتقييد الحركة، فإن قطاع **التجارة الخارجية** كان من أكثر القطاعات الاقتصادية تضرراً، وقد توقع تقرير منظمة التجارة العالمية WTO، في نيسان من العام الحالي 2020، أن يتراجع حجم التجارة الخارجية بما يتراوح بين 13% إلى 23% بسبب الإجراءات التي تتخذها الدول لمواجهة الوباء.[12]

وما فاقم من هذا التراجع الحاد في الأنشطة التجارية، التي سببتها جائحة كورونا في النصف الأول من العام 2020، أنها جاءت على أرضية تراجعٍ في التجارة العالمية العام 2019، ويعود السبب في ذلك، كما ذكرنا سابقاً، إلى حالة عدم اليقين (uncertainty) التي نتجت عن التوترات الحادة في العلاقات التجارية بين الولايات المتحدة والصين، وهما أكبر اقتصادين

في العالم، فقد تبيّن أن «نمو التجارة العالمية قد توقف بالفعل قرب نهاية العام الماضي (2019)، وبحلول الربع الأخير من العام 2019 سجلت تجارة السلع تراجعاً أقل بنسبة 1 في المئة، مقارنةً بالعام السابق. وأضافت منظمة التجارة العالمية أن ذلك كان بسبب «التوترات التجارية المستمرة»، وهي إشارةٌ تعكس إلى حدٍّ كبيرٍ النهج التصادمي الذي تبنته إدارة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في التجارة الدولية».[13]

وكانت منظمة التجارة العالمية أشارت في تقديراتها للربع الثاني من العام 2020، في حزيران الماضي، إلى «تراجع التجارة العالمية بنسبة 18% على أساسٍ سنوي، لكنّ مديرها العام روبرتو أزيفيدو قال خلال عرضه التقرير نصف السنوي: «إنه على الرغم من أن الأثر الكامل للجائحة لم ينعكس بعد في إحصاءات التجارة، فإنّ التوقعات تشير إلى أنه سيكون كبيراً».[14]

وحسب صندوق النقد الدولي، الذي كانت له تقديرات متشائمة أيضاً فيما يتعلق بالأذى الذي أوقعته الأزمة على التجارة العالمية، فقد «أدى الهبوط بطابعه المتزامن إلى تضخيم الاضطرابات المحلية لتشمل كل العالم. فقد انكمشت التجارة بما يقارب -5,3% على أساس سنوي في الربع الأول من العام، نتيجةً لضعف الطلب، وانهيار السياحة العابرة للحدود، واضطرابات الإمدادات الناتجة عن الإغلاقات العامة التي فاقمتها في بعض الحالات القيود المفروضة على التجارة».[15]

الشكل التالي يوضح التراجع في مؤشرات التجارة الخارجية، كما جاء في تقريرٍ لمنظمة التجارة العالمية:[16]

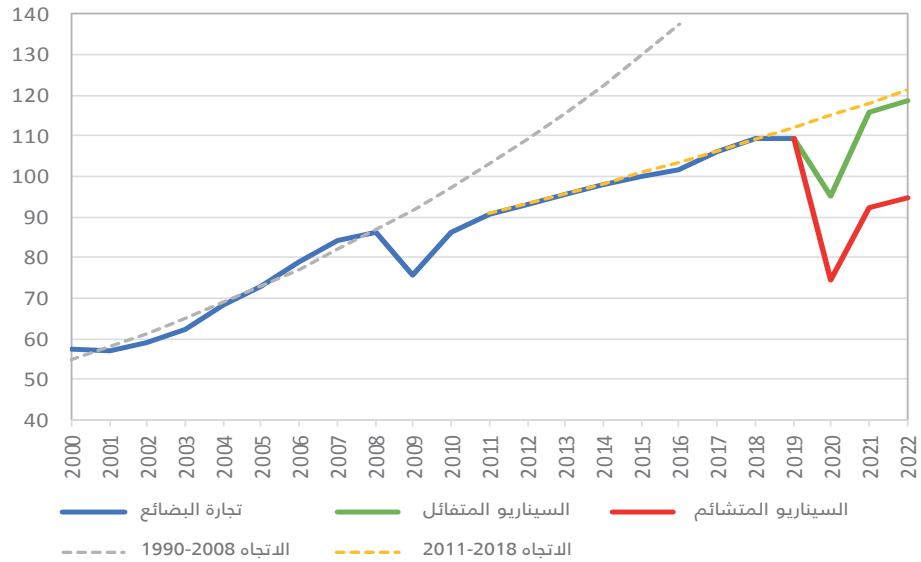

وإضافةً إلى تأثيرها على مؤشر النمو وحجم التجارة الخارجية، تركت الأزمة تأثيراتٍ سلبيةً عميقةً على معظم المؤشرات الاقتصادية الأُخرى، فعلى مستوى **التضخم المالي**، مثلاً، «هبط متوسط التضخم في الاقتصادات المتقدمة بحوالي 3,1 نقطة مئوية منذ نهاية العام 2019 إلى 4,0% على أساس سنوي حسب الوضع في نيسان 2020، فيما هبط في اقتصادات السوق الصاعدة بواقع 2,1 نقطة مئوية إلى 2,4%، ويبدو أن الضغوط الخافضة للأسعار سببها هبوط الطلب الكلي، إلى جانب آثار انخفاض أسعار الوقود، قد وازنت وتجاوزت أي ضغوط رافعة مدفوعة بالتكلفة، سبّبتها انقطاعات الإمدادات حتى الآن».[17]

ويتوقع صندوق النقد الدولي أن يرتفع **العجز في الميزانيات** بشكلٍ حادّ، ليصل متوسط العجز الكلي للمالية العامة إلى 14% من إجمالي الناتج المحلي في العام 2020، أي بارتفاع قدره 10 نقاط مئوية عن العام الماضي، وهو طفرة تعادل 19 نقطة مئوية مقارنةً بالعام الماضي.

وسيؤدي هذا، بدوره، إلى ارتفاع **الدين العام**، إذ تشير التقارير إلى أنه بسبب الأزمة «حدثت طفرة في الدين والعجوزات الحكومية من جراء الانكماش الشديد في الناتج، وما أعقبه من هبوط في الإيرادات. وفي ظل السيناريو الأساسي، من المتوقع أن يصل الدين العام العالمي إلى مستوى مرتفع غير مسبوق يتجاوز 101% من إجمالي الناتج المحلي في الفترة 2020-2021 -وهي طفرة تعادل 19 نقطة مئوية مقارنةً بالعام الماضي. وفي الوقت نفسه، من المتوقع حدوث ارتفاعٍ حادٍّ في متوسط العجز الكلي للمالية العامة ليصل إلى 14% من إجمالي الناتج المحلي في العام 2020، أي بارتفاع قدره 10 نقاط مئوية عن العام الماضي».[18]

وقد فاقم الأزمةَ أكثر التدهور وعدم الاستقرار في **أسعار النفط**، الذي يشكل سلعةً أساسيةً في الصناعة والتجارة وغيرهما من أوجه العملية الاقتصادية. في شهر آذار انخفض سعر النفط إلى 22 دولاراً للبرميل، وهو نصف سعره في بداية الشهر، ونتج عن ذلك انخفاض معدل النمو المتوقع في دول مجلس التعاون الخليجي مجتمعة 2,6 نقطة مئوية، ويُرجع خبراء النفط ذلك إلى عاملين، الأول انخفاض الطلب الناتج عن الانكماش الاقتصادي العالمي بنسبة 9% في العام 2020، والثاني حرب الأسعار التي شهدها سوق النفط في آذار من هذا العام، وبشكلٍ خاصٍّ بين المملكة العربية السعودية وروسيا الاتحادية.[19]

التداعيات الاجتماعية للأزمة الاقتصادية

وقد كانت للأزمة الاقتصادية أيضاً ارتداداتٌ خطيرةٌ على مؤشرات الاقتصاد ذات أبعادٍ اجتماعية، ولعل أخطر هذه الارتدادات هو رفع معدلات **البطالة**، فبحسب الإصدار الخامس من تقرير مرصد منظمة العمل الدولية، وعنوانه «كوفيد- 19 وعالم العمل»، انخفضت ساعات العمل العالمية بنسبة 14 في المئة خلال الربع الثاني من العام 2020، أي ما يعادل خسارة 400 مليون وظيفة بدوامٍ كامل (على أساس أُسبوع عملٍ مدته 48 ساعة). وهذا

أعلى بكثيرٍ من تقديرات التقرير السابق من المرصد (الصادر في 27 أيار)، البالغة 10,7 في المئة (أي 305 ملايين وظيفة).[20]

يقول غاي رايدر، المدير العام لمنظمة العمل الدولية: «مع تطور الوباء وأزمة الوظائف، تصبح ضرورة حماية الفئات الأكثر ضعفاً أشد إلحاحاً. فبالنسبة لملايين العمال، فقدان الدخل يعني: لا طعام، ولا أمن ولا مستقبل. هناك ملايين الشركات في مختلف أنحاء العالم تواجه حالة اختناق. ليست لديهم مدخرات ولا مصادر إقراض، وهم يشكلون الوجه الحقيقي لعالم العمل. فإذا لم نساعدهم اليوم، فسيكون الهلاك مصيرهم بالتأكيد».[21]

وواضحٌ أن تأثير البطالة حساسٌ للاعتبارات الاجتماعية، فوقعُه أكبر على النساء، حيث لاحظت منظمة العمل الدولية أن «العاملات تضررن من الوباء أكثر من غيرهن، ما يعني خطر ضياع بعض التقدم المتواضع الذي تحقق في المساواة بين الجنسين في العقود الأخيرة، وتفاقم اللامساواة بين الجنسين في العمل».[22]

وتُفسر المنظمة الدولية ذلك بارتفاع نسبهنّ في بعض القطاعات الاقتصادية الأكثر تضرراً من الأزمة، كالسكن والغذاء والمبيعات والتصنيع. فعلى الصعيد العالمي، تعمل قرابة 510 ملايين امرأة (أو 40 في المئة من جميع العاملات) في القطاعات الأربعة الأكثر تضرراً، مقابل 36,6 في المئة للرجال.

كما تهيمن النساء على العمل المنزلي وقطاعي الرعاية الصحية والعمل الاجتماعي، حيث يكنّ أكثر عرضةً لفقدان الدخل والتعرض للعدوى، فضلاً عن تدني احتمالات حصولهن على الحماية الاجتماعية. كما أن التوزيع غير المتكافئ لأعمال الرعاية غير مدفوعة الأجر، الموجود أصلاً قبل الوباء، تفاقم أثناء الأزمة بسبب إغلاق المدارس وخدمات الرعاية.

وكما هو معروفٌ ومتوقع، يؤدي الارتفاع الحاد في معدلات البطالة إلى ارتفاعٍ متناسبٍ في معدلات **الفقر**، وهو مؤشرٌ آخر ذو أبعادٍ اجتماعيةٍ كبيرة الأهمية، وهناك ما يكفي من الدلائل على أنّ تأثير الجائحة والأزمة الاقتصادية الناتجة عنها سيكون أعمق على الفئات الاجتماعية الأضعف، وبالتالي ستؤثر أكثر على الأفقر، وذلك بسبب فقدان الوظائف، وفقدان تحويلات المهاجرين والعاملين في الخارج، وارتفاع الأسعار، وتعطل تقديم الخدمات، مثل التعليم والرعاية الصحية.

وقد قدر البنك الدولي، الذي ركز في عمله في العقد الأخير على محاربة الفقر أكثر من أي شيءٍ آخر، أنه «من المتوقع أن ترتفع معدلات الفقر لأول مرة منذ العام 1998 مع انزلاق الاقتصاد العالمي إلى حالة ركود، وسيشهد العالم انخفاضاً حاداً في نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي، وسيؤدي استمرار الأزمة إلى محو كل التقدم المحرز تقريباً في السنوات الخمس الماضية».[23]

وبالنسبة للتنبؤات المستقبلية، يذهب البنك في تشاؤمه إلى أبعد من ذلك، حيث «تذهب تقديرات البنك الدولي إلى أن ما بين 40 مليون شخص إلى 60 مليون شخص سيسقطون في براثن الفقر المدقع (أقل من 1,90 دولار للفرد في اليوم) في العام 2020، مقارنةً بالعام 2019، نتيجةً لجائحة كورونا، وذلك تبعاً للافتراضات المتعلقة بحجم الصدمة الاقتصادية، وقد يرتفع معدل الفقر المدقع العالمي بنسبةٍ تتراوح ما بين 0,3 إلى 0,7 نقطة مئوية ليصل إلى نحو 9% في العام 2020».[24]

وبالرغم من أن المدة الزمنية منذ تفشي الجائحة والأزمة الاقتصادية الناتجة عنها أقصر من أن تسمح بكثيرٍ من الدراسات الأكاديمية، فإن بعض ما نُشر منها ينبه إلى أن أثر الأزمة سيكون أكبر على الفئات الاجتماعية الأضعف.

فقد أجرت، على سبيل المثال، مجموعةٌ من الباحثين من مركزين مختصين في جامعة شيكاغو بحثاً ميدانياً على عينةٍ عشوائيةٍ من 1400 أمريكي وأمريكية يمثلون المجتمع الأمريكي، وذلك في الفترة ما بين 6-11 نيسان 2020، وتوصلت هذه الدراسة إلى استنتاجات، أهمها أن الفئات الاجتماعية الأقل دخلاً في الولايات المتحدة، خاصة النساء ، أكثر عرضةً لفقدان عملهم نتيجة الأزمة الاقتصادية المترتبة عن الجائحة، ويلخص الرسم البياني التالي هذا الاستخلاص:[25]

ويبدو أن ما استنتجته الدراسة (أن الأزمة تطال المرأة أكثر من الرجل، وبالتالي تزيد من معاناة المرأة، وتفاقم عدم المساواة) يمكن تعميمه خارج الولايات المتحدة أيضاً، فقد جاء في تقرير صندوق النقد الدولي الأخير أنّ «خسائر الدخل لم تكن متساويةً فيما بين الجنسين، حيث تحملت النساء في الفئات الأقل دخلاً جانباً أكبر من تأثير الجائحة في بعض البلدان».[26]

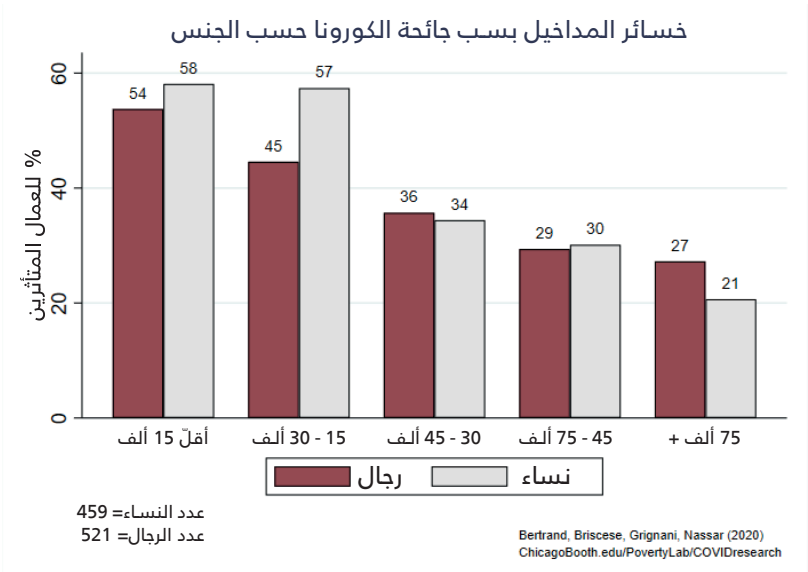

ومـن ناحيـةٍ أُخـرى، أظهـرت دراسـات المؤسسـات ذات الصلـة وتقاريرهـا تبايـن وقـع الأزمـة عـلى الـدول المختلقـة، حيـث طالـت، ولأسـبابٍ معروفـة، الـدول الفقـيرة أكـثر مـن الـدول الغنية، «تتسـبب جائحـة كوفيـد 19 في خسـائر فادحـة عـلى المسـتويين الإنسـاني والاقتصـادي، وبشـكلٍ خـاصٍّ عـلى البلـدان منخفضـة الدخـل (LICs)، في ضـوء نقـاط الضعـف الكامنـة لديهـا».[27] ولا شـك أنّ هـذا سـوف يزيـد الـدول الفقـير فقـراً، وبالتـالي يزيـد الفجـوة، الكبـيرة وغـير الصحيـة أصـلاً، بـين الـدول الغنيـة والـدول الفقـيرة.

ومـن الأبعـاد الاجتماعية/الاقتصاديـة الأُخـرى وبعيـدة المـدى للأزمـة تأثيرهـا السـلبي وبعيـد الأمـد عـلى التعليـم، إذ «تظهـر بيانـات المنظمـة الدوليـة للعلـوم والثقافـة (اليونسـكو) أنّ عـدد المتعلّمـين الذيـن تأثـروا بموجـة الإغلاقـات التـي عصفـت بالمنشـآت التعليميـة خـلال ذروة الأزمـة وصـل إلى 1,6 مليـار متعلّـم موزعـين في 190 بلـداً، أي مـا يعـادل 94٪ مـن عـدد الطـلاب في العـالم، وذلـك قبـل أن ينخفـض هـذا العـدد إلى مليـار متعلـمٍ اليـوم. ولا يـزال يتعـين عـلى مـا يقـرب مـن 100 بلـدٍ الإفصـاح عـن موعـد إعـادة فتـح المـدارس فيهـا».[28] وغنـيٌّ عـن الذكـر أنّ لتراجـع التعليـم آثـاراً سـلبيةً بعيـدة المـدى عـلى القـوى البشريـة (Human resources) التـي تُعـدّ أسـاس رأس المـال البـشري الـذي أصبـح اليـوم مـن أهـم مقومـات التنميـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة.

العولمة مستمرة على رغم الأزمة الاقتصادية

جـاءت الأزمـة الاقتصاديـة الناتجـة عـن الجائحـة الصحيـة لتوجـه ضربـةً ثانيـةً لتوجُّـه الاقتصـاد العالمـي نحـو العولمـة، حيـث تمثلـت الضربـة الأُولى بنجـاح ترامـب وسياسـة إدارتـه المناهضـة للعولمة، والمتسـمة بتشـجيع الحمائيـة وغيرهـا مـن السياسـات المثبطـة للعولمـة، الأمـر الـذي فتـح نقاشـاً بشـأن مسـتقبل العولمـة التـي يـؤرَّخ لهـا عـادةً بانهيـار الاتحـاد السـوفياتي والمنظومـة الاشـتراكية في 1991، وسـيادة النظـام الاقتصـادي الرأسـمالي في كل أرجـاء العـالم تقريبـاً.

ولكـن مـا يجـب أن لا يغيـب عـن الذهـن هنـا أنّ عولمـة الاقتصـاد، التـي أخـذت دفعـةً كبـيرةً بتحـوُّل كل اقتصـادات العـالم إلى النظـام الرأسـمالي، أولاً سـمةٌ مـن سـمات النظـام الرأسـمالي، وثانيـاً اسـتندت بالأسـاس، وبالدرجـة الأُولى، إلى تطـوراتٍ تقنيـة، خصوصـاً في مجـال تكنولوجيـا الاتصـال والتواصـل والقـدرة عـلى الوصـول وإيصـال البضائـع والمـواد الخـام ورؤوس الأمـوال، الأمـر الـذي أدى إلى تراجـع مغـزى الجغرافيـا، وأدى في النهايـة إلى نشـوء ونمـو سـوقٍ عالمـيٍّ عابـرٍ للحـدود الجغرافيـة والسياسـية والديمغرافية.[29]

بمعنـى آخـر، جعلـت التكنولوجيـا الحديثـة، ووحـدة النظـام الاقتصـادي في العـالم، المشـاريع الاقتصاديـة المرتبطـة بالسـوق العالمـي والمبنيـة عليـه أكـثر فعاليـةً وجـدوى وربحـاً بمـا لا يُقـاس مـن العمـل المبنـي عـلى حـدود الـدول والمحصـور بهـا، لذلـك فالعولمـة ليسـت خيـاراً ولا مؤامـرة، بـل

حتميـة ناتجـة عـن حاجـات تطـور النظـام الرأسـمالي والتطـور التقنـي.

وبالرغـم مـن أن ظاهـرة العولمـة الاقتصاديـة شيء، والهيمنـة الاقتصاديـة العالميـة شيءٌ آخـر، فإنهـما تداخلتـا معـاً، ببسـاطةٍ لأنّ الدولـة أو الـدول الأقـوى اقتصاديـاً تسـتطيع أن تسـتفيد مـن السـوق العالمـي، وبالتـالي العولمـة الاقتصاديـة أكـثر، الأمـر الـذي جعـل البلـد ذات الاقتصـادات الأقـوى، بالدرجـة الأُولى الولايـات المتحـدة، متحمسـةً للعولمـة، لأنهـا تزيـد مـن فرصهـا بالهيمنـة، فـماذا تغيَّر حتـى تتحـول الحكومـة الأمريكيـة في عهـد ترامـب إلى مناوئـة للعولمـة؟[30]

أحـد التفسـيرات لذلـك يرتبـط باختـلال التـوازن الاقتصـادي العالمـي التدريجـي، المتمثـل بنمـوٍ متسـارعٍ لاقتصـاداتٍ أُخـرى، أهمهـا الاقتصـاد الصينـي، الـذي أدى إلى احتـلال الصين وغيرها مسـاحاتٍ متزايـدةً مـن السـوق العالمـي، مـا قلّـل مـن قـدرة الولايـات المتحـدة عـلى المواءمـة بـين العولمـة والهيمنـة، وجعلهـا أقـل حماسـةً للعولمـة التـي تعطـي فرصـاً تـكاد تكـون متسـاويةً للاسـتفادة مـن السـوق العالمـي المفتـوح، أي مـن العولمـة، وبالتـالي تعطـي فرصـاً أفضـل للاقتصـادات الكـبرى التـي تنافـس الاقتصـاد الأمريـكي، الأمـر الـذي قلّـل مـن حـماس الإدارة الأمريكيـة الحاليـة للعولمـة، ودفعهـا إلى إجـراءاتٍ تحـدُّ مـن تسـارع عمليـة عولمـة الاقتصـاد العالمـي.

وعـلى هـذه الأرضيـة مـن الهجـوم الأمريـكي عـلى العولمـة جـاءت إجـراءات مكافحـة جائحـة كورونـا، التـي أدت إلى تراجـع مظاهـر العولمـة والسـوق العالمـي، وتراجـع سلاسـل الإمـدادات، وتراجـع سلاسـة وسـهولة تنقـل المـواد الخـام والبضائـع بـين الـدول، وتراجـع مظاهـر الاندمـاج العالمـي، وتعزيـز الحمائيـة، كـما اتخـذت إدارة ترامـب الوبـاء حجـةً لمزيـدٍ مـن التنصـل مـن الاندمـاج العالمـي، الأمـر الـذي كانـت تميـل إليـه قبـل الأزمـة.

ومـا عـزّز المخـاوف الأمريكيـة أنّ الصـين عملـت عـلى اسـتغلال الأزمـة لمحاولـة تسريـع تعديـل موازيـن القـوى لصالحهـا، «فبينـما اسـتخدمت إدارة ترامـب الوبـاء للتنصـل مـن الاندمـاج العالمـي، تسـتخدم الصـين الأزمـة لإظهـار عزمهـا عـلى قيـادة العـالم بصفتهـا البلـد الأول الـذي تعـرّض لضربـة فيـروس كورونـا، فقـد عانـت الصـين بشـدّةٍ عـلى مـدار الأشـهر الثلاثـة الفائتـة، لكنهـا تتماثـل للتعـافي في الوقـت الحـالي الـذي يشـهد استسـلام بقيـة العـالم للوبـاء، ويفـرض ذلـك مشـكلةً عـلى المُصنّعـين الصينيـين الذيـن بـدأ العديـد منهـم بالنهـوض مجـدداً، لكنهـم يواجهـون ضعـف الطلـب مـن الـدول الواقعـة في الأزمـة، غـير أنّ ذلـك يمنـح الصـين فرصـةً قصـيرة المـدى للتأثـير عـلى سـلوك الـدول الأُخـرى».[31]

وقـد أدت هـذه التطـورات إلى إثـارة نقـاشٍ في أواسـط الأكاديميـين والخـبراء الاقتصاديـين حـول قابليـة العولمـة الاقتصاديـة للصمـود أمـام تحديـات كلٍّ مـن جائحـة «كوفيـد- 19» وسياسـية إدارة ترامـب الأمريكيـة، عـلى سـبيل المثـال عنـون كـرس ميلـر (رئيـس معهـد أبحـاث السياسـات الخارجية والأُسـتاذ المسـاعد في جامعـة فلتـشر في الولايـات المتحـدة) دراسـةً لـه في مجلـة (Foreign Policy) بسـؤال:

هـل تُغـرق كورونـا العولمـة؟ وهـو يجـادل في هـذا المقـال بوضـوح بـأنّ التحديـات قـد تكـون أصعـب مـن قـدرة العولمـة عـلى الصمـود، حـين يقـول إنـه «عنـد مشـاهدة الأخبـار، مـن السـهل التفكـير في أن جائحـة «كوفيـد- 19» سـتُغرق العولمـة، حيـث انخفـض عـدد سـفن الشـحن التـي تنطلـق مـن الولايـات المتحـدة بنسـبة 10٪ في آذار مـن هـذا العـام مقارنـةً بالعـام السـابق، وهـو الشـهر السـابع عـلى التـوالي مـن الانخفـاض، كذلـك تضاعفـت تكلفـة شـحن البضائـع عـن طريـق الجـو تقريبـاً، مـا زاد مـن تقييـد التجـارة، إضافـةً إلى انخفـاض تدفُّـق الأشـخاص أيضـاً، حيـث فرضـت العديـد مـن الـدول قيـوداً عـلى الـزوار الأجانـب بسـبب الفـيروس».[32]

أمـا جفـري كيرتـز، الباحـث في مجـال الاقتصـاد العالمـي في (Brookings Institute)، فقـد ناقـش مـا تقـوم بـه بعـض الحكومـات، خاصـةً الولايـات المتحـدة، مـن محـاولاتٍ لإلغـاء العولمـة (Deglobalization)، حيـث يشـير إلى أن الأزمـة الحاليـة أدت إلى توجيـه الانتقـاد للـضرر الناتـج عـن سلاسـل التوريـد العالميـة، لافتـاً إلى النقـاش الدائـر الآن في الولايـات المتحـدة حـول خطـة بمبلـغ 25 مليـار دولار لتغيـر سلاسـل التوريـد؛ بفصلهـا عـن الصـين وإعـادة التصنيـع الأمريـكي الموجـود في الصـين إلى الولايـات المتحـدة، لكنـه يعـود ويعـترف أن «كثـيراً مـن المحللـين الخارجيـين يُشـككون في نجـاح خطـط إزالـة العولمـة هـذه، ذلـك أنهـم لاحظـوا أنّ سلاسـل التوريـد العالميـة المعـاصرة معقـدة للغايـة، وهـي نتيجـة الملايـين مـن قـرارات الـشركات الفرديـة غـير المنسـقة، وأنّ أيّ محـاولات للتخلـص مـن هـذه العمليـات سـتكون مُرهقـةً ومكلفـة، وعـلى الرغـم مـن أنّ «كوفيـد- 19» قـد دفـع الـشركات إلى إعـادة النظـر في المفاضلـة بـين الكفـاءة والمرونـة في علاقـات الموردیـن الخاصـة بهـم، فـإنّ هـذا لا يعنـي أنهـم سـيُرحبون بتدخـل الحكومـة».[33]

ولكـن، مـن ناحيـةٍ أُخـرى، رجـح عـددٌ آخـر مـن الباحثـين في شـأن الاقتصـاد العالمـي أن تـؤدي الضغوطـات عـلى العولمـة، الناتجـة عـن أزمـة كورونـا ومـا ترتـب عليهـا مـن أزمـة اقتصاديـة مؤقتـة، إلى تراجـعٍ محـدودٍ في العولمـة لأسـبابٍ موضوعيـة، تتمثـل في الحاجـة الصحيـة للإغـلاق وتقييـد الحركـة، ولكـن بعـد انحسـار الجائحـة سـتعود ميـاه العولمـة إلى مجاريهـا، لأنّ التقـدم التقنـي أوصـل أسـاليب الإنتـاج إلى مرحلـةٍ أصبـح فيهـا الاقتصـاد المُعولَـم أكـثر نجاعـةً وربحـاً، وبالتـالي فـإنّ مصلحـة أصحـاب رؤوس الأمـوال المرتبطـة بالسـوق العالمـي سـوف تتغلـب مـرةً أُخـرى بالـضرورة.

ولعـل أبـرز المسـاهمات في هـذا الاتجـاه جـاءت في بحـثٍ مهـمٍّ نُـشر في (Harvard Business Review) في 20 أيـار 2020 لأحـد كبـار الباحثـين المختصـين في دراسـات العولمـة الاقتصاديـة، وهـو سـتيفن ألتـمان، الـذي تسـاءل فيـه عـما إذا سـيكون التأثـير السـلبي لكورونـا عـلى العولمـة طويـل الأمـد، وقـد توصـل إلى الاسـتنتاج بـأنّ هـذه الضربـات غـير قاتلـة للعولمـة، وأن العولمـة قـد تنحنـي أمـام هـذه الضغـوط، لكنهـا لـن تنكـسر، وسـتعود إلى سـابق عهدهـا بعـد انتهـاء الأزمـة، حيـث يسـتخلص أنـه «بينـما يتصـارع القـادة لتوجيـه مؤسسـاتهم خـلال جائحـة «كوفيـد- 19»، فـإنّ القـرارات التـي تـدور في سلسـلةٍ كاملـة، مـن أماكـن البيـع إلى كيفيـة إدارة سلاسـل التوريـد، تتوقـف

عـلى التوقعـات بشـأن مسـتقبل العولمـة، وصحيـحٌ أنّ الوبـاء أدى إلى موجـةٍ جديـدةٍ مـن نعـي العولمـة، إلا أنّ أحـدث البيانـات والتنبـؤات تشـير إلى أن القـادة يجـب أن يخططـوا -ويشـكلوا- عالمـاً تظـل فيـه كلٌّ مـن العولمـة والضغـوط المناهضـة للعولمـة مـن السـمات الدائمـة لبيئـة الأعـمال».[34]

لذلـك، بالرغـم مـن أن العولمـة تلقـت ضربتـين متتاليتـين، مـن سياسـة إدارة ترامـب الأمريكيـة وجائحـة كورونـا، فـإنّ عوامـل قـوة العولمـة وروابطهـا، ومصالـح القـوى المسـتفيدة منهـا، ذات قـدرةٍ قويـةٍ عـلى المقاومـة، ومـن ناحيـةٍ أُخـرى، فـإنّ مـا تـمّ بنـاؤه مـن بنـى تحتيـةٍ للعولمـة في العقـود الأربعـة الأخـيرة قـادر عـلى مقاومـة المعيقـات وعوامـل الهـدم، ومـن أبـرز الأمثلـة عـلى ذلـك سلاسـل التوريـد (supply chains) التـي هـي أحـد شرايـين النظـام الاقتصـادي المعـولم، وفي هـذا المجـال يقـول روبـن بروكـس، كبـير الاقتصاديـين في معهـد التمويـل الـدولي: «سلاسـل التوريـد هـي أشـياء ماديـة، مثـل الجسـور والمصانـع والسـفن وخطـوط السـكك الحديديـة (..) هـذه الأشـياء تسـتغرق وقتًـا طويـلاً لتعطيلهـا والفـيروس]كوفيـد-19[والإغلاقـات وإيقافـات العمـل التـي نراهـا حاليـاً لا تكفـي لتعطيلهـا».[35]

يُذكـر أن دراسـة بلـوم بـيرج هـذه، التـي تتعمـق في مقارنـة العوامـل الدافعـة والعوامـل المثبطـة للعولمـة الاقتصاديـة، تحمـل عنوانـاً ذا دلالـة، ويشـكل الاسـتخلاص الأسـاسي للدراسـة، وهـو أنّ: تحـدي أزمـة كورونـا قـد يـؤدي إلى انحنـاء العولمـة، لكنـه لـن يكسرهـا.[36]

وفي الحقيقـة، فـإن تخـوُّف ترامـب وإدارتـه ممـن يمثلـون مصالـح الجهـات التـي ترغـب في الحـد مـن العولمـة واقعـيٌّ في مكانـه، «لقـد خرجـت العولمـة عـن السـيطرة»، هكـذا قـال وزيـر التجـارة الأمريـكي ويلـبر روس في خطـابٍ ألقـاه في 6 شـباط في اتحـاد أوكسـفورد، ودافـع فيـه جزئيـاً عـن هجـوم إدارة ترامـب عـلى التجـارة العالميـة مـن خـلال «الشـكوى مـن أننـا وصلنـا إلى مرحلـة أننـا نحتـاج الآن إلى 200 مـورد مـن 43 دولـة في سـت قـارات لصنـع جهـاز (IPhone) واحـد».[37]

أمـا بالنسـبة لـدور الدولـة الوطنيـة، الـذي تعـزَّز بشـكلٍ واضـحٍ بسـبب الأزمـة، ويُسـاق كمـؤشرٍ عـلى تراجـع العولمـة، فهـو عـلى الأغلـب مؤقـت، ذلـك أن النظـام الاقتصـادي الرأسـمالي، خاصـةً اللـبرالي الجديـد، كان يسـتدعي الدولـة لإنقـاذه في كل أزمـة، مـن أزمـة 1929 حتـى أزمـة 2008، ومـا بينهـما مـن أزمـاتٍ كبـيرةٍ وصغـيرة، وبعـد التعـافي تعـود القـوى المؤثـرة لتقليـص دور الدولـة وإعادتـه إلى الحجـم المتضائـل الـذي تطلبـه العولمـة الاقتصاديـة.

وفي الخلاصـة، بالرغـم مـن الضغـوط، مـا زالـت المؤسسـات الاقتصاديـة العالميـة تعتقـد أنّ للاقتصـاد العالمـي مصلحـةً أكـبر في العولمـة وبناهـا الأساسـية، خاصـة سلاسـل القيمـة العالميـة[38] (Global Value Chains)، فقـد خلصـت آخـر دراسـة اقتصاديـة للبنـك الـدولي حـول الموضـوع عنوانهـا «التجـارة مـن أجـل التنميـة في عـصر سلاسـل القيمـة العالميـة» إلى الاسـتنتاج بـأن «التغيـر التكنولوجـي في هـذه المرحلـة نعمـةٌ أكـثر منـه نقمـة، إذ يمكـن لسلاسـل القيمـة العالميـة أن تسـتمر في تعزيـز النمـو،

وخلق فرص عملٍ أفضل، والحد من الفقر، شريطة أن تنفذ البلدان النامية إصلاحاتٍ أعمق لتعزيز المشاركة في سلاسل القيمة العالمية، وأن تتبع البلدان الصناعية سياسات مفتوحة ويمكن التنبؤ بها، وأن تُركز جميع الدول على التعاون متعدد الأطراف».[39]

ولا يخلو الأمر من مفارقة، فوباء «كوفيد-19»، الذي تطلبت محاربته اتخاذ إجراءاتٍ أثرُها الجانبيُّ الحد من العولمة، هو بحد ذاته وباءٌ ذو طابعٍ عالمي، وبالتالي تتطلب محاربته، من ناحيةٍ ثانيةٍ، خطةً عالميةً بسبب طابعه العالمي، ذلك أنّ الجائحة كونية، تتطلّب محاربتها جهوداً كونية، وقد عبّر الأُستاذ فادي البردويل عن هذه المفارقة حين قال: «رافق تفشي الوباء انتشار استعاراتٍ مثل: «كلُّنا في المركب نفسه»، وتشير إلى المخاطر المحدقة بالإنسانية ككل، ومسؤوليتنا الجماعية لتلافيها، فانتقلنا من استعارات القرية الواحدة السعيدة أيام التهليل بقدوم عالمٍ جديد، إلى المركب المهدد بالغرق بعد انتشار الجائحة عالمياً».[40]

استنتاجات

تقود هذه الدراسة إلى الاستنتاج الرئيسي العام بأنّ هذه الأزمة سيكون لها ما بعدها، وستترك آثاراً وندوباً بارزةً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية في مختلف أرجاء العالم، ولمدةٍ طويلة، وعلى وجه الخصوص يمكن الإشارة إلى الاستنتاجات المحددة التالية:

أولاً: بالرغم من المدة القصيرة على الأزمة، فإنّ كل المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية تشير حتى الآن إلى أنّ هذه الأزمة الاقتصادية الناتجة عن جائحة كورونا ستكون الأزمة الاقتصادية الأخطر والأعمق والأكثر اتساعاً منذ الكساد الكبير في العام 1929، سواء على صعيد مدى التراجع في كافة المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية، أو عمق هذه التراجعات وانتشارها لتشمل كل دول العالم تقريباً.

ثانياً: واحدةٌ من أهم النتائج المتوقعة من الأزمة أنها ستؤدي إلى تسريع انتقال العالم من النظام الأُحادي القطب إلى الثنائي أو متعدد الأقطاب، ذلك أن الدول المختلفة تعاملت مع الجائحة بقدراتٍ وكفاءاتٍ متباينة، الأمر الذي جعل بعض الدول تتضرر أكثر من بعضها الآخر، وهذا ما يفسر زيادة التوتر في العلاقات الدولية في سياق التعاطي مع الأزمة، وقد لخص الأمر خبيرا الشؤون الصينية روش دوشي وكورت كامبل حينما أوضحا في مقال لهما في مجلة (Foreign Affairs) أنه «بينما تتعثر واشنطن، تتحرك بكين بسرعةٍ وبراعةٍ للاستفادة من الانفتاح الذي خلقته أخطاء الولايات المتحدة، وملء الفراغ لوضع نفسها كقائدٍ عالميٍّ في الاستجابة للأوبئة».[41]

ثالثاً: وبالنظر إلى التداعيات الاجتماعية للأزمة الاقتصادية، وتحديداً تأثيراتها المتباينة بين الفئات الاجتماعية المختلفة، فإن من نتائجها المحتملة زيادة الفجوة بين الفقراء والأغنياء في البلدان

المختلفة، حيث سيزداد الأغنياء غنىً، ويزداد الفقراء فقراً، وبالتالي زيادة عدم الاستقرار الاجتماعي، ومما يعزز هذه المخاوف تراجع قدرة الحكومات على الإنفاق، ما سيؤدي إلى تراجُعٍ في الخدمات الاجتماعية، وأهمها الصحة والتعليم، الأمر الذي سيعود بالضرر الأكبر على الفئات الأضعف (الفقراء والنساء) في المجتمعات المختلفة.

رابعاً: وبشكلٍ مشابه، ولأن تأثيرات الأزمة الاقتصادية وتبعاتها الاجتماعية متباينة على الدول المختلفة، فإنّ الأزمة سوف تؤدي إلى زيادة الفجوة بين الدول الغنية والفقيرة، وبالتالي إلى زيادة عدم الاستقرار السياسي، وزيادة القلاقل السياسية بين الدول المختلفة.

خامساً: يبدو أنّ هذه الأزمة ستؤدي إلى تباطؤٍ في مسيرة عولمة الاقتصاد، لكن على الأغلب بشكلٍ مؤقت، فعلى ما يبدو حتى الآن، لن تقضي الأزمة على العولمة، ولن تعيدها إلى الوراء بشكلٍ كبير، بل ستجعل مسار العولمة أبطأ مؤقتاً، لكنها ستستعيد دورها بعد انحسار الأزمة.

غسان الخطيب: عضو هيئة تدريس في دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية وأستاذ الدراسات الدولية في جامعة بيرزيت، تخرّج منها العام 1982، ثم حصل على شهادة الماجيستير في التنمية الاقتصادية من جامعة مانشستر العام 1986، وشهادة الدكتوراه من جامعة درهام البريطانية في السياسات الشرق أوسطية العام 2007، كما عمل نائب رئيس في جامعة بيرزيت لمدة ثماني سنوات. مؤسس ومدير مركز القدس للإعلام والاتصال العام 1987. عمل وزيراً للعمل والتخطيط في الأعوام 2002-2006، ومديراً لمركز الإعلام الحكومي من العام 2009 حتى العام 2012. وهو مؤلف كتاب:

Palestinian Politics and the Middle East Peace Process: Consensus and Competition in the Palestinian Negotiation Team

Endnotes

1 عضو هيئة تدريس في دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية وأُستاذ الدراسات الدولية في معهد أبو لغد في جامعة بيرزيت.

2 مكتب منظمة الصحة العالمية، لاحظ أول حالات إصابة في ووهان في هذا التاريخ، وقد أبلغت الصين منظمة الصحة العالمية ببداية انتشار الوباء بتاريخ 3/1/2020، ويمكن تتبع تسلسل أحداث الوباء من خلال الرابط التالي: https://www.who.int/news-room/detail/29-06-2020-covidtimeline

3 https://www.worldometers.info/coronavirus/country/china

4 https://coronavirus.jhu.edu/map.html

5 من تقرير صندوق النقد الدولي «آفاق الاقتصاد العالمي» الصادر في نيسان 2019، https://www.imf.org/ar/Publications/WEO/Issues/2019/03/28/world-economic-outlook-april-2019 (آخر دخول 9/8/2020).

6 https://www.amf.org.ae/ar/content/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%8A%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D8%AD%D8%AF%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%85%D8%B1%D9%8A%D9%83%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%8A%D9%86

حياةٌ مسكونةٌ بالقلق

«أنـا لا أعـرف مـا هـي الأسـلحة التـي سـوف تكـون في الحـرب العالميـة الثالثـة، ولكـن الحـرب العالميـة الرابعـة سـتكون بالعـصي والحجـارة!» إلـبرت آينشـتاين

خالد حوراني

توطئة

تحتـاج معظـم الأحـداث الكـبرى إلى وقـت حتـى يتـم اسـتيعابها وتترسـخ في الذهـن ليصبـح بالإمـكان الكتابـة عنهـا والتأمـل في معانيهـا. ليـس فقـط عـلى ضـوء النتائـج التـي قـد تترتـب عليهـا في السياسـة والفكـر والاقتصـاد مبـاشرة، وإنمـا عـلى ضـوء الأصـداء التـي قـد تتركهـا، ولـو بعـد حـين، عـلى بنيـة المجتمعـات والسـلوك الإنسـاني والثقافـة بصـورة عامـة. وهـذه المسـافة الزمنيـة ضرورة لانقشـاع غيـوم الحـدث السـوداء ووضـوح الرؤيـة لفهمهـا وللتأريـخ عنهـا، وشرط للقـدرة عـلى التفكـير أيضـاً. فكـم حـري إنتـاج أدب وفـن وحتـى مقالـة حولهـا ونحـن لا نـزال نعيـش في خضـم الحادثـة، وهـي في حالـة صـيرورة وتحـول دائمـين.

تداعيـات جائحـة «كورونـا» لا تـزال سـارية وفي حالـة تفاعـل مسـتمر، لأن مـا نقـرأه أو نسـتنتجه اليـوم قـد تمحـوه الوقائـع الجديـدة بعـد غـد، نكتـب إذن كوسـيلة تأمـل ومحاولـة لفهـم هـذه الحالـة الغريبـة لا أكـثر. نكتـب ونقـرأ ونتـداول الأفـكار، ونعيـد تدويرهـا حـول هـذا الوبـاء وآثـاره عـلى حيـاة الإنسـان، ربمـا لنطمـئن النفـس، وللتقليـل مـن الخسـائر المتوقعـة، أو كمسـعى لتعزيـز قيـم التضامـن الإنسـاني في وقـت الأزمـات والكـوارث في مواجهـة الـشر والصعـاب. نكتـب لنفهـم إذا مـا كان ذلـك ممكنـاً أو لاسـتيعاب الصدمـة.

7 https://www.bbc.com/arabic/business-40283541 (آخر دخول 9/8/2020).

8 https://www.aleqt.com/2019/08/10/article_1654556.html (آخر دخول 9/8/2010).

9 file:///C:/Users/DELL/Downloads/weo-update-June2020-Arabic.pdf (آخر دخول 8-8-2020)

10 يعتبر خبراء الاقتصاد أن الاقتصاد يدخل في حالة الانكماش إذا كان النمو سالباً لمدة ربعين متتاليين، أي ستة أشهر.

11 تقرير آفاق الاقتصاد العالمي الصادر عن صندوق النقد الدولي في حزيران 2020، في الرابط التالي: https://www.imf.org/ar/Publications/WEO/Issues/2020/06/24/WEOUpdateJune2020 (آخر دخول 9-8-2020).

12 تقرير منظمة التجارة العالمية المنشور على موقعها والصادر في نيسان 2020: https://www.wto.org/english/res_e/statis_e/wts2020_e/wts2020chapter03_e.pdf

13 https://www.bbc.com/arabic/business-52222465

14 https://www.ecssr.ae/reports_analysis/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%8A%D8%A9-%D8%A5%D8%AD%D8%AF%D9%89-%D9%83%D8%A8%D8%B1%D9%89-%D8%B6%D8%AD%D8%A7%D9%8A%D8%A7-%D9%83%D9%88%D9%81/

15 تقرير صندوق النقد الدولي حول مستجدات آفاق الاقتصاد العالمي الصادر في حزيران 2020 file:///C:/Users/DELL/Downloads/weo-update-June2020-Arabic%20(1).pdf

16 https://www.wto.org/english/news_e/pres20_e/pr855_e.htm

17 file:///C:/Users/DELL/Downloads/weo-update-June2020-Arabic%20(1).pdf

18 file:///C:/Users/DELL/Downloads/weo-update-June2020-Arabic%20(1).pdf

19 https://www.bbc.com/arabic/world-52376796

20 https://www.ilo.org/global/about-the-ilo/newsroom/news/WCMS_749548/lang--ar/index.htm

21 https://www.ilo.org/global/about-the-ilo/newsroom/news/WCMS_743165/lang--ar/index.htm

22 المصدر السابق.

23 https://www.albankaldawli.org/ar/topic/poverty/overview

24 المصدر السابق.

25 https://www.chicagobooth.edu/research/rustandy/blog/2020/how-are-americans-coping-with-the-covid19-crisis-7-key-findings

26 file:///C:/Users/DELL/Downloads/weo-update-June2020-Arabic%20(1).pdf

27 تقرير البنك الدولي (آفاق الاقتصاد العالمي) الصادر في حزيران 2020 صفحة 24: file:///C:/Users/DELL/Downloads/9781464815539.pdf

28 من تقرير لليونسكو صدر في آب 2020: https://ar.unesco.org/news/lmyn-lm-llmm-lmthd-yhdhwr-mn-krth-tlymy-fy-zl-twqt-lywnskw-lkhtr-twqwf-24-mlywn-tlb-n-ldrs-0

29 يحيى اليحياوي. العولمة والتكنولوجيا والثقافة، دار الطليعة، بيروت، 2002.

30 Mathew Sparke, Introducing Globalization: Tensions and Uneven Integration, Blackwell Publishing, New York, 2013

31 من ترجمة لمقال في مجلة (Foreign Policy) منشورة في موقع الجزيرة نت في الرابط التالي: https://www.aljazeera.net/midan/reality/community/2020/6/29/%D8%B9%D9%88%D9%84%D9%85%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7

32 https://www.fpri.org/article/2020/04/will-covid-19-sink-globalization/

33 https://foreignpolicy.com/2020/07/24/how-to-de-globalize/

34 https://hbr.org/2020/05/will-covid-19-have-a-lasting-impact-on-globalization

35 https://www.bloomberg.com/news/articles/2020-03-06/globalization-faces-a-bend-but-won-t-break-crisis-on-coronavirus

36 المصدر السابق.

37 https://www.bloomberg.com/news/articles/2020-03-06/globalization-faces-a-bend-but-won-t-break-crisis-on-coronavirus

38 تعرف مؤسسة الأمم المتحدة للتنمة الصناعية (UNIDO) سلسلة القيمة العالمية (Global Value Chains) بأنها مجموعةٌ كاملةٌ من الأنشطة (التصميم والإنتاج والتسويق والتوزيع والدعم للمستهلك النهائي.. إلخ) يتم تقسيمها بين العديد من الشركات والعاملين في العديد من المناطق الجغرافية والدول للانتقال من الفكرة أو المفهوم إلى المنتج، وصولاً إلى استخدامه النهائي وما بعده. ولمزيد من التفاصيل حول هذا المفهوم يمكن الرجوع إلى الشرح الكامل في الرابط التالي: https://iap.unido.org/articles/what-are-global-value-chains-and-why-do-they-matter

39 https://openknowledge.worldbank.org/bitstream/handle/10986/32437/211457ovAR.pdf

40 فادي البردويل، الوباء المعولم: قرية كورونية واحدة بمراكب متعددة، مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد 123، صيف 2020، صفحة 89.

41 https://www.foreignaffairs.com/articles/china/2020-03-18/coronavirus-could-reshape-global-order

الكلمـة الوحيـدة في الفقـرة السـابقة التـي وضـع قامـوس «word» التلقـائي تحتهـا خطـاً أحمـر متعرجـاً هـي كلمـة «كورونـا» بالعربيـة، وكأنهـا ليسـت واردةً في قاموسـه أصـلاً، بالرغـم مـن كـثرة تداولهـا ووقعهـا عـلى حيـاة النـاس في مشـارق الأرض ومغاربهـا. المسـألة ليسـت لغويـة أساسـاً.

مثّـل وبـاء «كورونـا» شـيئاً عامـاً وطامـاً وتحديـاً منقطـع النظـير عـلى البشريـة، سـواء أدخلـت هـذه الكلمـة قواميـس اللغـات أم لم تدخـل. فهـي باتـت تحيـط جميـع الكلـمات والأفـكار التـي يحـاول النـاس قولهـا وتغلفهـا، منـذ لحظـة بـث مشـاهد البـشر في مدينـة يوهـان الصينيـة وهـم يسـقطون مغشـياً عليهـم عـلى الأرض. سـقوط بـلا حـول ولا قـوة في مشـاهد أقـرب مـا تكـون إلى كابـوس، فقـد بانـت كأنهـا مشـاهد مـن فيلـم رعـب طويـل بـدأ للتـو، ولم ينتـه، تـلاه مشـهد إعـلان منظمـة الصحـة العالميـة عـن الجائحـة ومـا اسـتتبعها مـن انتشـار الفـيروس وتفاقمـه في العـالم بشـكل متسـارع. لا تـزال النـاس مأخـوذةً بالحـدث النـادر وهـي تحـاول إيجـاد تفسـيرٍ وتحليـلٍ لـه.

حسـناً فعلـت وسـائل الإعـلام بتوقفهـا عـن بـث الصـور الصادمـة تلـك، لتنتقـل إلى المستشـفيات والأروقـة المكتظـة بالمـرضى والممرضـين والأطبـاء المنهكـين إلى حـد اللعنـة. وباتـت ترصـد تحويـل الملاعـب إلى مستشـفيات ميدانيـة، ومقابلـة الخـبراء، وبـث تعليـمات الوقايـة مـن الوبـاء: التباعـد، ولبـس الكمامـة وكفـوف اليديـن، والبقـاء في البيـت، وغسـل اليديـن بالمـاء والصابـون لمـدة عشريـن ثانيـة عـلى الأقـل. لقـد صـار الإنسـان كالممسـوس بجـن الفـيروس يُعـد ويبتعـد. ثـم بـدأت النـاس، هنـا وهنـاك، تسـخر مـن هـذه التعليـمات وكأنهـا لا تخـاف مـن المـرض، ولجـأت إلى أن تتبـادل الطرائـف والنـكات.

«كورونـا» إذن، كلمـة دخلـت عنـوةً إلى جميـع اللغـات واللهجـات مـن دون ترجمـة أو مقدمـات، دخلـت إلى تفكـير الإنسـان وسـلوكه وعلمـه وجهلـه عـلى حـد سـواء بـلا هـوادةٍ وفي كل مـكان، علـماً أن مفـردات مثـل «سـارس» و«إيبـولا» و«طاعـون» دخلـت قامـوس النـاس، ولكـن ليـس بقدر مفـردة «كورونـا» (كوفيـد- 19) بالتأكيـد. كانـت تلـك الأوبئـة تحـدث في أماكـن محـدودة يراقبهـا الآخـرون كـمادة إعلاميـة مـن مـكان بعيـد، مثـل إنفلونـزا الخنازيـر والطيـور وجنـون البقـر. لقـد جـاء وبـاء «كورونـا» كعـدوٍ مهـددٍ للجميـع، طارحـاً فكـرة المصـير البـشري المشـترك إلى الواجهـة. فعـلى الرغـم مـن التمايـزات والصراعـات بـين القـوى والـدول، فـإن فـيروس «كورونـا» جعلهـا في مواجهـة التهديـد نفسـه، وعليهـا أن تسـعى إلى حـلٍّ يُنقـذ الجميـع.

لا نعلـم متـى يمتنـع القامـوس التلقـائي (الـدراج) عـن التشـكيك بصحـة هـذه الكلمـة أو تلـك أو اقـتراح بديـل عنهـا، مثلـما لا نعلـم إلى الآن حجـم تداعياتهـا وتأثيرهـا عـلى مناحـي الحيـاة المختلفـة. فـإذا كانـت هـذه الجائحـة سـتنتهي في غضـون أشـهر بإيجـاد لقـاح مـا مثـلاً، فـإن هنـاك إمكانيـة بشـكلٍ أسرع لعـودة الحيـاة إلى سـابق عهدهـا، ربمـا أيضـاً سـيكون ممكنـاً تـدارك الآثـار السـلبية عـلى الاقتصـاد والسياسـة والحيـاة الاجتماعيـة بـالأدوات وطـرق التحليـل السـابقة. أمـا إذا كانـت ستسـتمر وتسـتوطن هـي أو غيرهـا مـن الأوبئـة في حيـاة البشريـة فـترة أطـول، فـإنّ أدوات

التحليـل والتفكـير والممارسـة السـابقة بالتأكيـد لـن تعـود صالحـة، ولـن تنفـع بالـضرورة في إيجـاد حلـول سريعـة لتداعيـات الوبـاء السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافيـة، وربمـا لـن تنفـع أبـداً. وقـد لا تعـود الحيـاة إلى مـا كانـت عليـه.

صحيـحٌ أن البشريـة عانـت قبـل الآن مـن أزمـات وحـروب وأوبئـة كارثيـة، تركـت تأثيراتهـا بشـكلٍ أو بآخـر، وبـدا أنهـا (أي البشريـة) نجحـت في تجاوزهـا، لكـن الأزمـة الراهنـة تبـدو مختلفـةً وأكـثر عمقـاً بعـد أن فتحـت عيـون العـالم عـلى كثـير مـن المشـاكل، ووضعتهـا دفعـةً واحـدةً عـلى الطاولـة. مشـكلات خطـرة ذات اسـتدامة لأسـباب متعـددة قـد أشـير إلى بعضهـا. لكـن هـذه الجائحـة «كورونـا» قـد تسـتدعي أيضـاً ثـورةً في التفكـير، ليـس فقـط فيـما يخـص قضايـا مواجهـة الأمـراض والأوبئـة وتعزيـز البحـث العلمـي، عـلى أهميـة ذلـك، وإنمـا عـلى مسـتوى التعـاون الدولي والـشراكات في كثـيرٍ مـن الملفـات بـدل النـزاع والـصراع، بمـا في ذلـك معالجـة الأضرار التـي لحقـت بالاقتصـاد العالمـي جـراء تفـشي الوبـاء، ولم يسـبق أن شـهدت البشريـة مثيـلاً لهـا مـن حيـث السرعـة وسِـعة النطـاق، ولاقـتراح طـرق تفكـيرٍ سياسـية واجتماعيـة واقتصاديـة جديـدة وأكـثر عـدلاً تُراعـي حقـوق الإنسـان الأساسـية، ومـن ضمنهـا حقـوق المـرأة والأقليـات، وكـذا حقـوق ذوي البـشرة السـوداء. وقـد تسـتدعي طـرح أفـكار واعتـماد سياسـات وإجـراءات جديـدة لإنهـاء الفسـاد وتقليـص اللامسـاواة في العـالم والمجتمعـات. وقبـل ذلـك وبعـده إنهـاء الاحتـلال والنزاعـات والحـروب التـي تزيـد مـن معانـاة الإنسـان في كل مـكان.

أن تعيـش البشريـة أزمـةً مـا أو كارثـةً مؤقتـةً غـير أن تعيـش معهـا مـدةً قـد تطـول، وبخاصـة مـع هـذا الوبـاء بالتحديـد أو غـيره مـن الأوبئـة الماثلـة. وهـو غـير أن تعيـش في ظـل دفـقٍ مربـكٍ مـن المعلومـات التـي لا تنقطـع بحكـم وسـائل الاتصـال الحديثـة ووفـرة التحليـلات والتعليقـات المتناقضـة أحيانـاً، وهـي كثـيرة السـخف والترويـع أحيانـاً أُخـرى، بحكـم مـا توفـره هـذه الوسـائل مـن مسـاحةٍ شاسـعةٍ للحماقـة والإشـاعات. في فـتراتٍ سـابقةٍ لم يكـن انتشـار الإشـاعات ممكنـاً بهـذا الشـكل والاتسـاع، وبخاصـة عندمـا كان الاعتـماد عـلى الجريـدة والراديـو مصدريـن وحيديـن مسـيطرين عـلى الأخبـار، وقبـل أن يدخـل التلفـاز عـلى الخـط، أمـا الآن، فأصبحـت وسـائل التواصل الاجتماعـي هـي مصـدر المعلومـات الأول في كثـير مـن مناطـق العـالم، خاصـة أنهـا مـن دون ضابـط أو محـرر. هـذا لا يلغـي حقيقـة أنهـا قـد تكـون المتنفـس الوحيـد للنـاس للتواصـل في ظـل سياسـة المنـع والإغـلاق والتباعـد، ومصـدراً أساسـياً لنـشر الأخبـار ومتابعـة التطـورات. في حالـة جائحـة «كورونـا» فـاق مسـتوى تفاعـل الجمهـور مجريـات الوبـاء وتداعياتـه وأخبـاره، وعـلى مسـتوى العـالم، أي مسـتوى آخـر مـن التفاعـل مـع أي قضيـة أخـرى، بسـبب طبيعـة التهديـد الـذي مثلتـه، وبسـبب سرعـة انتشـار الأخبـار عـلى هـذه الوسـائط والتطبيقـات، ومـا ولدتـه مـن توتـرٍ وقلـق.

قالـت لي أُمـي وهـي تتابـع الـ«فيسـبوك» إنهـا لم تسـمع عـن الإنفلونـزا الإسـبانية مـن قبـل، وفقـط سـمعت بهـا حديثـاً مـع أخبـار «كورونـا». إذن، مـع طفـرة وسـائل الاتصـال وتعددهـا لم يعـد

السؤال: هل هي طفرة فيروس فقط وستزول، أم طفرة معلومات أيضاً ومقدمة للعيش مع أشكال مختلفة من الوعي ومن الفيروسات في آن معاً ومع مخلفاتها التي ينتجها نمط الحياة المعاصرة الذي يعيشه الإنسان؟ وهل هي مخلفات تؤثر بالمقابل على حياته بشكلٍ جذري؟

فيما مضى كان يمكن محاصرة وباء في دولةٍ أو منطقةٍ ما. كان هذا في زمنٍ كان السفر والتنقل فيه محدودين، والآن أصبحت محاصرة المرض أصعب. وكان يمكن محاصرة التداعيات. الآن التداعيات قد تفوق المرض والفيروس نفسه، وتؤثر على نطاقٍ أوسع بحكم تشابك الاقتصاد والأعمال العابرة للحدود. الأمر يختلف عندما يكون هناك وباء ووسيلة التنقل الأساسية هي العربة والحصان. الأمر غيره في أيام السرعة الفائقة: السيارة والقطار والطائرة والمطارات الضخمة. وأن ينتشر الوباء في بعض الدول غير أن ينتشر في كل مكان ويتفاقم أكثر في الدول المركزية منها والقوية، أوروبا وأمريكا إلى جانب الصين وروسيا والبرازيل ودول الشرق الأوسط على سبيل المثال، وصحيح أيضاً أن الأضرار التي يُلحقها تفشي فيروس «كورونا» المستجد بالصحة قد تكون مؤقتة، إلا أن الاضطرابات السياسية والاقتصادية والثقافية التي أحدثها الوباء هي الأخطر بسبب هشاشة الأوضاع، وقد تعم أكثر، وتستمر لأجيال عدة.

أياً كان الأمر، ما أصاب العالمَ شيءٌ كبيرٌ وخطير، وأثر في الجميع، وإن بدرجاتٍ متفاوتة، وطائر الغراب ما زال يحلق فوق رؤوس الجميع. فقد أثبتت هذه الكارثة الإنسانية أنّ ما يحدث في سوق يوهان في الصين يؤثر في سوقٍ في البرازيل، والعكس صحيح أيضاً، وأن وجبةً من البروتينات الغريبة العجيبة في مطبخٍ ما تؤثر على فيتامينات الكرة الأرضية كلها، وأن منسوب الديمقراطية في الغرب أو غيابها في الصين لم يَحوُلا دون تفشي الوباء في كليهما، بل سرّعا في انتشاره.

صدمة

في هذه الجائحة التي اجتاحت كل أرجاء العالم وأثرت فيه لأكثر من حقبة مقبلة، كما تتوقع منظمة الصحة العالمية، في هذه التجربة الخاصة جداً وغير المسبوقة، بدت الصدمة والحيرة على كل شيء. إن تحويل حياة الإنسان إلى مجرد الشرط البيولوجي الأول فجأة، وكل ما دون ذلك يصبح مهدِّداً حياة الإنسان، قلب الكثير من المفاهيم، تاركاً آثاره على السلوك الإنساني، وفي المقدمة على العلم والثقافة والفن. هناك صدمةٌ وارتباكٌ ومحاولات تكيّف مع حالة العزلة والحجر المنزلي، وسؤال الجدوى من إنتاج المعرفة أو استهلاكها. وقد أتى الوباء ليعزز الغرائز السطحية على حساب غرائز الإنسان العميقة.

الصدمة تجلت في كيف أنّ هذه الجائحة -غير المسبوقة في الكثير من المعاني- أربكت الفرد والمجتمع، أربكت الدولة والمؤسسات، وبالرغم من أن البشرية عاشت ظروف وباء وحروباً

كانت أكثر شدةً وأكثر خسائر من جائحة «كورونا»، فإن هذه الجائحة عرّت الدول وأظهرت عجزها.

محور الصدمة والارتباك تجلى في أن الوباء جاء بشكل مفاجئ، فلم يكن سهلاً التعامل معه. بدت الصدمة على سلوك الناس؛ تفسير ما يحدث، وتعدد النظريات، والتكيّف، وإطلاق العديد من المبادرات التي محورها البقاء في المنزل، وغسل اليدين، والتباعد خوفاً على الآخرين، وخوفاً منهم. لقد بات لمجرد الخروج من المنزل دلالات جديدة؟ وأصبح البيت القلعة الأخيرة. أين تذهب الأحلام وطموح الناس وخططهم؟ واجهت البشرية هذا الوباء الطارئ بارتباك ظاهر، سواء أكان ذلك في الدول الغنية أم في الدول الفقيرة، وارتبكت المنظمات والمؤسسات الثقافية، ارتبك الفنان والمتحف، مثلما ارتبكت دور العبادة وغيرها.

البشرية كلها دخلت في حالة صدمة، وبصفتي أحد المصدومين، أعتقد أننا عندما نحاول أن نقول أو نفعل شيئاً في مواجهة هذا الوباء وما يترتب عليه الآن، فإنما نثرثر، ونكابر، لا أكثر ولا أقل. نحاول أن نضفي على هذه الكارثة الإنسانية شيئاً من الفهم في مشهدٍ دراميٍّ عبثي، كما أفعل أنا الآن بالضبط.

نحن مصدومون وعاجزون عن الكلام، وهذا أول هام، وهذا الانقلاب في الحياة الذي حلّ على وجودنا، بسبب مصابٍ جللٍ بكل المعاني، وضع حضارتنا الإنسانية في لحظة خاطفة، أمام أسئلة شائكة حول جدوى التقدم العلمي والتكنولوجي وحول الثقافة والمعلوماتية. وحتى اللحظة، لا نستطيع أن نقدّر خطورة وباء فيروس «كورونا». كل ما نفعله الآن متابعة الأخبار بعجز تام، ونحكي ونثرثر، ونتبادل الصور والتعليقات والأفكار العجيبة.

نضحك، نناور، نتفرج على الأفلام، التي صارت متاحةً على الإنترنت مجاناً، يا لسوء الحظ! هل يستطيع أحد مشاهدة أفلام أصلاً؟ «كورونا» وفيلمها المرعب باتا داخل الإنسان من رأسه إلى أساسه. ثم ماذا نقرأ؟ ولماذا؟ لقد اختلف طعم كل شيء. نقرأ، ننعزل ونُعزَل، نشتري من السوبرماركت مرةً ومرات، نذهب إلى الصيدلية، سدرة المنتهى، لنشتري، في الغالب، مواد التنظيف والكمامات.

كل ذلك يمكن أن يُعدّ حلاوة روح لا أكثر ولا أقل أمام الترويع والفزع اللذين من المطلوب أن يواجههما الإنسان بالعزلة والشك والخوف من كل ما هو حوله، وحتى من أقرب الناس إليه.

ثم ماذا كان يقول الكبار من المفكرين والفلاسفة والعلماء ورجال الدين والسياسة والأطباء والصيادلة؟ ماذا؟ لا شيء في الغالب، مجرد تحوّطات وتفسيرات عاجزة، وكأن البعض منهم يفهم كل شيء، ويتوقع بذكائه ما يحدث، بل يستطيع التنبؤ بما ستؤول إليه الأمور في المستقبل.

الصدمة بانت بعد أن بات الجميع يعلن فشله، بالرغم من محاولات البعض الحثيثة فعل شيءٍ ما، أو قول ما يطمئن هذه الإنسانية المعذبة. بات الكل يعلق أمله على العلماء والأطباء المنهكين والعاجزين حتى اللحظة عن إيجاد حل ما، ونحن على قلق ننتظر احتمال نجاحهم.

نصحو كل يوم على الأعداد التي تتزايد، وكأن المصابين والوفيات أرقام فقط، مع أن كلّ واحدٍ منهم أُم أو أب أو أخ أو ابن أو أخت أو صديق أو حبيب إلى ما لا نهاية من العلاقات الإنسانية والمعاني، هم ليسوا أرقاماً، بل هم مجتمع وأُسر كاملة ومحبون عاشوا الفقد من دون أن يتمكن ذووهم ومحبوهم من طبع قبلة الوداع على جباههم. مأساة كاملة الأوصاف مع سبق الإصرار والترصد. ثم ماذا؟ الناس فقدوا أعمالهم، زاد القلق وحالات الاكتئاب، تسرب اليأس إلى البعض.

علينا ألا ننسى ما كان يقول الإعلام. وماذا قال السياسيون الكبار؟ بوريس جونسون، رئيس وزراء المملكة المتحدة، مثلاً، قال: «ودّعوا أحبتكم»، وهو يقصد كبار السن، بكل فجاجةٍ وبساطةٍ قبل أن يصاب هو. قولٌ، حتى لو كان صحيحاً، هل هكذا يقال؟ بهذا القدر من الترويع والفظاظة والمرارة التي تسيّب الركب! وعلى أيّ حال، لم يكن سهلاً أن تصدق الناس ما تقوله الحكومات.

ثم ماذا قالت المديرة التنفيذية لمنظمة الصحة العالمية في المؤتمر الصحافي الذي أُعلن فيه اعتبار وباء «كورونا» المستجد وباء عالمياً، لا بل جائحة، قالت: «اغسلوا أيديكم بالماء والصابون، وتباعدوا»، إن هذا لا شيء تقريباً وعجز، وهي تتحدث مثل أي ممرضة بسيطة في مستشفى في اليمن، في لحظةٍ تاريخيةٍ ومصيريةٍ لجميع البشر.

من المؤسف حقاً أنه بعد غزو الفضاء والتقدم العلمي الهائل وفك شيفرة الآدمي وتعديل الجينات وخلافه من العلوم المبهرة، يأتي العلم ليقول فقط: «اغسل يديك، وخليك بالبيت»، إلى أن يقضي الله أمراً أراد، يا لحيرة العلماء! ثم ماذا فعل معظم رجال الدين في العالم؟ لقد رفعوا الرايات البيضاء لمن يلبسون الأبيض، أتوا بالأطباء إلى المنابر ليلقوا على الناس خطب الجمعة، وكأن في ذلك اعترافاً بدور العلوم وأهميتها، ولو متأخراً، وهو في الحقيقة تراجع عن دورهم. جُلُّ ما قاله هؤلاء الأطباء كان كلاماً، كلاماً عادياً جداً، مفاده أن لا علاج لهذا الوباء لغاية الآن، لا لقاح مضاداً، ويحتاج الأمر إلى وقت قد يطول. الحديث عن الوقاية خيرٌ من العلاج وعن أهمية النظافة، وغسل اليدين والوجه بالصابون، مع أن النظافة من الإيمان يا حضرات الشيوخ في المساجد، ويا آباءنا الأعزاء في الكنائس. هل أصبح الرهان فقط على العلم للبقاء على قيد الحياة، أم هو العجز فقط؟ ترك معظم رجال الدين دور العبادة وبيوت الله فارغة، فيما الناس أحوج ما يكونون في لحظات الشدة للسلوى والدعاء.

ثم ماذا قالت المتاحف ودور السينما، تفرجوا على الأفلام بحرية، وشاهدوا الأعمال الفنية، وتسلوا في بيوتكم. أيُّ فرجة يقترحون الآن؟ وهل في ذلك حل لمأساة الإنسان وقد تأزمت؟ جاءت هذه المبادرات الكريمة في وقتٍ لا تطاق فيه المشاهدة، وتشكلت علامات الاستفهام الكبيرة حول مَن هو المشاهد في تلك اللحظة!

خليك في البيت

نتابع قصة الفيروس وتداعياته من البيت، ونحن نتأمل في المصير، وكان لا بد من الصبر. ليس كخيارٍ فقط نتعلق به في المحن، وإنما لأنه ليس من بديلٍ لمواجهة اليأس وتهدئة النفوس. صلاحية التهدئة قد تطول، ولكن إلى متى؟ وهل ستكون البشرية قد نجت عند نشر هذا المقال مثلاً؟ أم ستكون لا تزال تعاني؟ هل سنعيش تداعيات الوباء المحدودة، فقط، وأثرها على الحياة والسلوك الإنساني والعمل بعد انقشاع خطره الذي يقطع الأنفاس بسرعة، أم ستتدهور الحياة أكثر؟ نحن لا نعلم شيئاً. والأسئلة تزداد وتتسارع.

عليّ أن أعترف أنني قد ترددتُ كثيراً في الكتابة عن هذا الأمر، من أين تأتي المقدرة على الكلام أمام الخراب؟ وهل لديّ ما أقوله أصلاً؟ هل من جديدٍ يمكن أن يُضاف إلى آلاف التعليقات والاستنتاجات والمواقف التي تمطرنا بها وسائل الإعلام يومياً؟ حتى المشاعر والرؤى الشخصية أصبحت تتشابه وتتوافق وهي أقرب إلى ما يشعر به أو يراه الآخرون من قلق وخوف وعدم يقين. هل من جدوى لأيّ خطابٍ في حياةٍ مهددةٍ بالعزلة والمجهول والغياب؟

بالرغم من ذلك، تبقى الكتابة ضروريةً في وقت العزلة وفي كل وقت، حتى وهي تسجل اليوميات، أو وهي تشير لغموض اللحظة المكتوب عنها، أو حين تعلن بصريح العبارة كم أننا لا نعرف؟ فالكلام يكون من ذهب أحياناً والسكوت من فضة. والإنسان يحاول بالكتابة أن يرتب الأفكار، والإعلان بقوة للناس أن اندفعوا بفكرةٍ أُخرى غير اليأس. اندفعوا بحلولٍ مبتكرة. ولنتذكر قول ابن سينا المأثور: «الوهم نصف الداء، والاطمئنان نصف الدواء، والصبر بداية الشفاء».

لا داعي لأن نتنبأ في هذه الحالة، يكفي أن نتأمل اللحظة. كيف نعيش؟ وكيف نتصرف؟ وكيف سيكون المستقبل؟ أن نكتب مثلاً لنحلل الماضي ونخطط ونرسم للمستقبل. لا نعرف، ربما يكون هذا هو التحدي الآن، أن يعلن الإنسان جهله، وشكه في النظريات والعلم والأنظمة السياسية القائمة، أن يثير الأسئلة ويعلن عجز الأجوبة. من أين جاء المرض اللعين؟ وكيف؟ على الأقل هذان السؤالان الجوهريان لغاية كتابة هذه السطور لم تتم الإجابة عنهما، فيما تم تبادل الاتهامات على أساس الأيديولوجيا والمصالح السياسية والاقتصادية، وليس على أساس علمي، أو على أساس الحقيقة التي قد يحتاجها الناس في هذه اللحظة، ولتدارك

أي خطر مماثل في المستقبل. هل الفيروس قد تم تصنيعه، أم تسرب بالإهمال والخطأ من مختبرٍ جرثوميٍّ هنا أو هناك؟

يمكن النظر إلى هذه الجائحة على أنها نتيجة للسياقات السابقة، على أنها نتجت عن السياسات غير العاقلة التي حكمت العالم، عن التبجح والإفراط في التعامل مع الطبيعة، عن سياسات التعليم والاقتصاد ونظم الصحة المتهالكة، عن تغيير المناخ، عن جشع الاستثمار في كل شيء من دون مراعاةٍ لسلامة الإنسان والكوكب ولو بالحد الأدنى، وكأن هذه اللحظة هي بنت الأمس المريب، وأتت لتتوج هذا الانحدار بعد أن طفح الكيل وبلغ السيل الزُبى.

يفكر الإنسان بكل ذلك وأكثر وهو في بيته وليس في مركز أبحاث، يفكر في أسئلة الكون الكبرى وهو يقوم بالزراعة البيتية، أو وهو يعد الطعام، يفكر وهو يتمدد مرة على الكنبة أمام التلفاز، ومرةً في غرفة النوم، ساكناً لا يقوى على فعل شيء. يفكر الإنسان المخدوع في كيف أن هذا الفيروس الذي يمكن قتله بالماء والصابون، لا يوجد له لقاح مضاد إلى غاية الآن، يفكر مرة مثل ترامب (الرئيس الحالي للولايات المتحدة الأمريكية)، ومرةً أُخرى يفكر مثل المديرة التنفيذية لمنظمة الصحة العالمية وهي تتحدث عن كيفية تغسيل اليدين، فيما تعلن منظمتها اعتبار «كورونا» وباءً عالمياً، يفكر لماذا لا يزال القاموس التلقائي بالعربية يضع خطاً أحمر متعرجاً تحت كلمة «كورونا» وتحت كلمة ترامب فقط! وكأنه يتساءل مَن هذا وذاك.

الساعة التاسعة والنصف صباحاً، والساعة لا تكف عن الإشارة إلى الوقت في يومٍ من أيام العزل والبقاء في البيت، هل نستمع إلى نشرة الأخبار في ساعات الصباح الأُولى أم ننتظر الإيجاز الصحافي للناطق الرسمي؟ هل نطمئن أولاً على محيطنا أم ننظر إلى أنفسنا في إطار العالم ككل؟ أيهما أفضل للتكيّف ما يحدث لنا في حياتنا الخاصة أم في الحياة بشكلٍ عام؟ ما الذي يضمن للإنسان النجاة؟ ها هي البشرية تعيش هذا المصير المشترك للمرة الأُولى وبهذا الحجم، لكن كل أمة أو جماعة تعيشه بطريقة مختلفة. يعتمد ذلك على ظروفها وتجاربها الخاصة. هناك دول قوية اقتصادياً ومتقدمة طبياً وتتحمل الصدمات، وهناك دول لا تستطيع توفير الحد الأدنى للحياة، أن تكون في بيتٍ مستقلٍّ وكبيرٍ ومطلّ غير أن تكون في بيتٍ صغيرٍ مُكتظٍّ أو حاويةٍ أو خيمةٍ أو كرفان. هل هذا الفيروس والوباء سياسي وعنصري بامتياز، أم أنه محايد جداً يصيب الأغنياء والفقراء على حد سواء، ويصيب الأخيار والشريرين من دون تمييز أو تحيّز؟ يصيب الإنسان في أضيق حيز ويصيبه في الوساع. هل من المناسب الاستماع إلى الموسيقى مثلاً لقتل السأم اليومي والمتكرر؟ الموسيقى التي تصل مسامعها بلطف من شقة الجيران الآن تُحرك القلب، وهي تختلط بصوت العصافير وصوت الريح الخفيف الذي يحرك الستائر في الشرفة. مع العزلة وتوقف الحركة والأعمال أصبحت أصوات الطبيعة أوضح والكائنات تتنفس لحظات هدوئها. ربما هذه مجرد إيماءة صغيرة لاضطراب الكون على نطاقٍ أوسع.

نعيد التفكير مرة ثانية بالوقت، اليوم الثلاثاء، والساعة أصبحت الواحدة، دون أن أفعل شيئاً، الوقت دوار، وهو مسترسل في اللف والدوران من دون خط نهايةٍ أو مواعيد محددة، كل شيء مؤجل، ما يمكن أن تفعله اليوم تستطيع القيام به غداً. لا أحد ينتظر، والوقت لم يعد كالسيف، لا مشاريع محددة، اترك الأفكار جانباً وقم بزراعة نبتة؛ أقول لنفسي، المقال الذي يجب أن ينجز، أحمد الله عليه وهو يشغلني، شذرات الأفكار والذكريات تسرح بحرية في الرأس، لا داعي للبوح والشكوى، ربما هذا التفكير أو ذاك ليس منطقياً الآن، شيء ما يسيطر على الدماغ. فراغ وخدر والعالم الخارجي ينسحب أمام النظر، أصبح الإنسان يخوض هذا المونولوج الصامت باستمرار. اتصلت بصديقي طبيب الأسنان، أسأله عن آلام أحسَّ بها في الصدر. لم يجبني بشيء، واكتفى بالقول: «سلامتك عزيزي»، فيما أعطاني رقماً لدكتور آخر مختص، لكنه لم يجب بدوره أيضاً. لا وقت للمشاكل الصحّية الأُخرى التي نواجهها. الساعة الآن الثالثة، واليوم الأحد، والمؤذن لصلاة العصر بدأ بتلحين كلمات «الصلاة في بيوتكم» التي أضيفت إلى الأذان منذ نكبة «كورونا»، يلحنها كما باقي الجمل والكلمات. الساعة الآن الثامنة ليلاً، لكنني لا أستطيع تحديد اليوم. أُفكر في الهند وكثافتها السكانية، أُفكر في غزة ما الذي سيحدث لها؟ لا بد أن الكل يفكر بالكل، ولكن من حجرةٍ منفردة.

شك وحيرة

بعد الصدمة، أتى الشك وعدم التصديق وتجلياته في النفس والأشياء من حولنا، الشك ليس في الماضي فقط أو في المستقبل، وإنما في اللحظة الراهنة. الشك وعدم اليقين اللذان يرافقان الأزمات الكبرى. لقد ساورني الشك بخصوص حقيقة جائحة «كورونا»، وحجم الإجراءات والتغطية الإعلامية التي رافقتها. اعتراني الشك أكثر من مرة وأنا أطرده أمام أرقام الضحايا المتزايد وأعداد المصابين. اعتراني الشك ليس على قاعدة نظرية المؤامرة وخلافها التي يروَّج لها عند كل نائبة، وكيف اعترانا الشك حتى في العلم وحدوده، الشك في المنظومات السياسية وردود فعلها. الشك كاستراتيجية دفاعٍ أحياناً، ومحاولة التفسير في لحظة العجز، الشك بما لا شك فيه.

اعتراني الشك أكثر، ولا يزال، بخصوص الإجراءات المتبعة وسياسات حجر الناس وترويعهم. الشك في حجم هذه الإجراءات ونوعها التي قد يفوق أثرها حجم الخطر المترتب على الفيروس نفسه، انقطاع الأعمال، وإغلاق أبواب الرزق، والبطالة، وفي كيف أن تداعيات «كورونا» ستؤثر على الجميع حتماً أكثر بكثير من الفيروس نفسه.

اعتراني الشك ببراءة الإنسان من المسؤولية في إنتاج هذا الفيروس! الإنسان بوصفه مذنباً تارةً، وبوصفه بريئاً نبيلاً تارةً أُخرى. هل من أحد بريء في هذه الحالة.

اعتراني الشك بـ«السيستم»، بمنظمة الصحة العالمية التي كغيرها من المنظمات الدولية هي موضع شك أصلاً، وهي عرضة للفساد والإفساد. من الصعب إقناع الناس بالمنظومات السياسية التي تحكم العالم، وفي الظل منها المنظومات الصحية والاقتصادية وغيرها، وذلك على أهمية حاجة الإنسان ليطمئن لشيءٍ ما في النظام العام، يطمئن على صحته وعلى سلامة من يحب... وهكذا.

على الرغم من ذلك، تمكنت هذه الجائحة من ترك بصماتها على عالم ما بعدها، أو معها، ولكن من سيدفع الثمن أكثر ومن سيعالج الفشل؟! هل تتساوى الأمور في كل الدول؟ هل هو نفس الشعور بالقلق الوجودي عند الألماني أو الكوري الجنوبي وعندنا في العالم العربي؟ إذا ارتبك الجميع، فهل يتساوى الشر والخير في الارتباك والشك؟ ساورني الشك في سياسة العزلة، وعلى الرغم من ذلك واظبتُ على اتباع التعليمات.

لا تزال الأمور غامضة، ولا تبشر بخير على معظم الصعد، ولا تشي بتحسُّنٍ على أوضاع البشرية المختلة أصلاً قبل الفيروس، وبشكلٍ عميقٍ في كثيرٍ من البلدان والمجالات، وذلك على الرغم من عذوبة فكرة الهدوء والفرملة من شدة الهرولة، وأخذ نفسٍ عميقٍ للتفكير وإعادة تدوير الأفكار حول الحياة والعالم. إن كوكب الأرض يحتاج إلى أخذ نفس، فهل أخذه؟ في شريط حياة البشرية الممتد، وضع الأمر في حالة «البوز»؛ ثبات الصورة أو إيقاف مؤقت كما يقال.

ثمة أمران يثيران الحيرة عند التعرض لهذا الوباء:

الأمر الأول: هو أنّ كل الحكومات والأنظمة والسلطات، حتى الفاسدة منها وتلك الأشد فساداً، بدت كأنها حريصة على صحة مواطنيها وسلامتهم فجأة، وصارت الدولة ومؤسساتها هي المرجع للتصرفات، وهي الجهة التي يسمع إليها.

الأمر الثاني: هو المثقف، وقد أصبح مطيعاً في زمن الخوف، لم يعد لخطابه نفعاً. والفوضوي والدرويش والثائر أصبحوا بقدرة قادرٍ منصاعين للنظام وتعليمات السلامة العامة التي تقترحها الدول وأولو الأمر، حتى إن المعارضين الدائمين صمتوا برهةً عن الكلام.

أمام حالة الهلع والخوف الغريزيّ من الموت، يسلّم المواطن أمره للدولة وقراراتها، يصبح مواطناً صالحاً، وينفذ الأوامر عن طيب خاطر، ويتوقّف الحسّ النقدي والريبة. ويستبطن المراقبة والضبط والتعليمات، فيتشبّث بها على أنّها خشبة النجاة. أصبح الإنسان في الغالب محكوماً بعقدةٍ تشبه الجريمة والعقاب، وعليه أن يسمع الكلام أمام إحساسه بالذنب «خليك في البيت أيها المشبوه والمتهور. اغسل يديك»، هذا هو العقاب.

فن

ذاهلةٌ هي الفنون على اختلافها أمام هذه الجائحة، حتى هذه اللحظة لا نعرف عن أيّ مشروعٍ فنيٍّ يُعتد به ويعبر عن اللحظة، فيما تداول كثير من الناس أعمالاً فنية سابقة جديرة بالتأمل. وحاولت الكثير من المؤسسات الثقافية التكيف وفعل شيء ما للتخفيف عن الناس: أفلام، ومعارض افتراضية، وموسيقى، ونقاش، ورسائل تطمين للحيلولة دون الهلع. وبالطبع، اختلفت هذه الاستجابة بين بلدٍ وآخر، بين مؤسسةٍ وأُخرى، بين فنانٍ وآخر. بينما يمكن اعتبار ذلك يتعلق أكثر في استهلاك الفن وتداوله، فإن الإنتاج الفني مسألة أُخرى، وتحتاج بالتأكيد إلى فترة ابتعاد عن الحدث أطول حتى يتم استيعابه وهضمه، كما يحتاج الفن إلى ظروفٍ مواتية، وليس الفنان بمعزل عن هذه الظروف العامة، ربما يكون منسوب القلق لدى الفنانين بالطبع أعلى. ماذا يفكر الفنان في الأوقات الصعبة؟ يفكر كغيره من الناس حين تتعطل أمام الخوف والهلع كل المشاعر الأُخرى. أيضاً المجتمع والتبادل والتضامن هي أُمورٌ مركزيةٌ في عملية صناعة الفن، وعندما تغيب هذه العناصر أو معظمها تصبح العملية من الأُمور الشاقة. يرتبك الفن، أيضاً، ويتردد أمام أسئلة الحياة المعقدة.

تأثر الفن والثقافة في فلسطين كما في العالم. ارتبك الفن ومؤسساته، وهذا طبيعي جداً، كما تأثرت كرة القدم وأي نشاطات إنسانية تحتاج إلى جمهورٍ مباشر، مثل المسارح والجاليريات والمتاحف. كيف لا وقد أثّرت جائحة «كورونا» على المتاحف والمهرجانات في كل العالم، ليس في مهرجان «كان» السينمائي العالمي فحسب، وإنما في كل حارة وبيت، وشارع في هذا الكون. الاستجابة التي بادرت إليها بعض المؤسسات في فلسطين لم تكن كافيةً بالتأكيد، ولم يُنظر للفن على المستوى الرسمي كأحد القطاعات الأكثر تضرراً كما صُنف الأمر في دول مثل فرنسا وألمانيا، اللتين اعتمدتا سياسات عاجلة تنقذ الموقف وتحافظ على حياة المبدعين بالحد الأدنى، التحديات في فلسطين مختلفة؛ لا مخصصات للفن والفنانين، ولا نفقات للعاطلين عن العمل، والأولويات الصحية والاجتماعية كانت أهم.

حاجة الجمهور للفن لم تنقطع، بل ربما زادت مع فائض الوقت الذي يقضيه الإنسان في البيت وحاجته للترفيه عن نفسه والتسلية. كما هي حاجته للفهم وإضفاء المعاني الكبيرة التي غالباً ما يصبغها الفن على الوجود والحياة. عُزفت الموسيقى على الشرفات في مشاهد مؤثرة في إيطاليا وغيرها، كما عزفت الفرقة السمفونية للشجر في أستراليا، ابتكرت الظروف طرق عرض مختلفة. أُنتِجت أفلام قصيرة، وافتُتحت منصات افتراضية لتداول الفن وانتشاره. شاهد الجمهور أفلام الخيال العلمي والأفلام التي تتحدث عن نهاية العالم بنهم. أُعيدت مشاهدة الأفلام التي تصور مواقف وحالات تشبه ما صورته جائحة «كورونا».

لا أعرف إذا كان من الحكمة أن يعبر الفن عن الجائحة، ربما من الأفضل التحريض على

نسيانها، والتعلم فقط من دروسها. إن ما خبره الناس في هذه التجربة يفوق الوصف والتوقع، ويحتاج ربما إلى أن يُعاد النظر في نوع الفنون التي تصمد في هكذا ظروف، ومقولاتها أيضاً، وطريقة تقديمها. على رغم أن كثيراً من الأشياء قد ثبت فشلها في زمن «كورونا»، فإن الفنون، لحسن الحظ، لا تزال تستطيع وممكنة.

وليام شكسبير، في زمن الحجر الصحي بسبب الطاعون القاتل، لم يكتب نصاً عن الوباء، بل استغل الوقت المتاح ليبدع الملك لير وماكبث وروميو وجولييت. غير أن جائحة «كورونا» قد تتسبب بإغلاق مسرح شكسبير «الغلوب» في لندن، ونحن هنا نتحدث عن بلدٍ متقدمٍ جداً في الإنتاج الثقافي والفني إذا علمنا أن في إنجلترا مثلاً أكثر من 1100 مسرح، وأن جمهور المسرح وحده، غير جمهور باقي الفنون، يفوق جمهور الدوري الإنجليزي لكرة القدم. فإذا كانت الحكمة ضالة المؤمن، فما هي حالة الشكاك؟ الله أعلم.

على المستوى الشخصي عندما كنت أبحث عن الفنان في داخلي، كنتُ أجد عامل الصيانة. لم أكن فناناً، ولم أشعر بقدرة الفن على مساعدتي في تلك اللحظة. حتى الخيال وأحلام الإنسان أتت عليهما هذه الجائحة، وصارت كابوس أحلامنا وأفعالنا. على رغم ذلك، شعرتُ أنني بخير..... ما زال في عينيّ بَصر، ما زال في السماء قمر، كما يقول محمود درويش.

فلسطين إلى أين؟

هذه الجائحة واجهها الشعب الفلسطيني الذي يتعرض لإجراءات غير مسبوقة من الاحتلال الإسرائيلي تستهدف وجوده وتصفية قضيته، من خلال تصعيد إجراءاته التعسفية وقرار الضم للأغوار وبعض الأراضي الفلسطينية المحتلة، تنفيذاً لوعد صفقة القرن التي أعلنها ترامب، ويضاف إلى ذلك جائحة «كورونا» والحصار المالي والاقتصادي الذي تفرضه دولة الاحتلال، الأمر الذي صعّب من محاولات السيطرة على تفشي المرض وتبعاته الاقتصادية وآثاره المدمرة على المجتمع، خاصة أن السلطة الفلسطينية لا تسيطر على المعابر والحدود، وهي بالتالي لا تتحكم بالداخلين إلى منطقة سيطرتها المحدودة، التي بالكاد تقتصر على مناطق «أ»، أو الخارجين منها، وقد أبرز كل ذلك دور الاحتلال في مفاقمة هذه الأزمة، لا بل مسؤوليته المباشرة عن تدهور حياة الفلسطينيين على مدار الوقت.

ثمة سياقات محلية وأُخرى كونية لهذه الطامة، وثمة تاريخ، الإصابات والوفيات كثيرة في بريطانيا وإسبانيا وبلجيكا وإيطاليا ودول أُوروبية أُخرى، وهذه الدول شهدت هشاشةً في نظامها الصحي وتهاويه أمام الوباء، فكيف بمن ليس لديهم حول ولا قوة ولا نظام صحي معقول، وأجهزة التنفس الاصطناعي والإنعاش معدودة على أصابع اليد في بعض الدول، وكذا الأسرّة (6 أسرة لكل مليون مواطن أفريقي). دولة سيراليون، مثلاً، فيها جهاز تنفس

اصطناعي واحد، فيما توجد أربعة أجهزة تنفس في توغو، وخمسة في النيجر، حسب مجلة (Jeune Afrique)، هل يُعقل هذا؟ معلومات مرعبة وكثيرة، تضاف إليها الأمراض الأُخرى. وكأن فيروس «كورونا» المستجد أتى من بين أشياء أُخرى مريبة يفعلها ليفضح اختلال العالم.

قال مدير مستشفى في لاغوس بنيجيريا، إنه في بلد يفوق تعداده الـ٢٠٠ مليون إنسان، هناك ٣٢٠ إصابة بـ«كورونا» فقط، والطريف أن من بين أسباب قلة انتشار المرض في نيجيريا وأفريقيا عموماً أنّ معظم المجتمعات الأفريقية هي من الشباب، وأنه ليست هناك أصلاً نسبة يُعتد بها من كبار السن، إلى جانب أسباب أُخرى. يعني ذلك أنه ليس هناك عدد كبيرٌ من كبار السن صمدوا أمام «إيبولا» لتتسنى لهم معاصرة «كورونا» في تلك البلاد لأسبابٍ كثيرة، أهمها: سوء الأوضاع الصحية وانتشار الفقر والأمراض الأُخرى والحروب التي تفتك بها.

لنعد إلى فلسطين إذن، إلى مدينةٍ ما هناك، إلى شارعٍ معين، لنعد إلى البيت، إلى غرفةٍ ما في هذا البيت، لنعد إلى النفس، إلى السياق الصغير ما أمكن. مع أن ذلك قد يبدو كعجزٍ أمام السياق الأكبر، هل الراحة الحقيقية هي أن ترتاح من نفسك كما يقول إحسان عبد القدوس «أن تجد ما يشغلك عنها!»؟ علينا أن نهتم بما يحدث في مكانٍ آخر؟ ولا ننطوي على أنفسنا؟ علينا أن نتساءل لماذا لا نضع قضيةً مثل قضية فلسطين في السياق العام لهذه المشكلة، ليس في إطار مكافحة المرض فقط، وإنما في الإطارين السياسي والثقافي العامين للبشرية في هذه اللحظة بالذات، وأن الاحتلال لم يعد مشكلة خاصة بالفلسطينيين أو بالإسرائيليين فقط، إنه مشكلة للعالم؟ صداع مثل الفيروس آن أن ينتهي لأسباب طبية على الأقل، إن لم يكن لأسباب حقوق الإنسان السياسية الأُخرى. نواجه احتلالاً استعمارياً طويل الأمد ومستمراً مضافاً إليه «كورونا» معجونة بالسياسة العنصرية التي يتبعها الاحتلال، وهو لا يرى الفلسطينيين أو ينظر إليهم كبشرٍ يمكن أن يمرضوا أو يتعافوا، أمر لا يمكن تحمله ولم يعد مقبولاً في أي شرع؛ حصار واستيطان ومصادرة أرض وصفقة قرن وقلة عقل، وكل ما يريده الفلسطيني هو العدل فقط.

في فلسطين لم يكن الحال الذي سبق «كورونا» طبيعياً، لنأمل العودة إليه بفارغ الصبر، وربما أضفى هذا الوباء ظلالاً على كيفية النظر من جديد إلى الحالتين السياسية والثقافية، وعلى المعنى الثقافي لهذا الصراع في ظل الوضع العالمي، سماع الأخبار، وفكرة المشترك الإنساني في لحظة الخطر، والتأمل في كثيرٍ من الأشياء، وإعادة التفكير في وضع الفرد المهدد بالقلق والتوتر على نحوٍ شخصيّ.

هل سنعود في فلسطين قريباً إلى هموم الحياة العادية، وتبقى المواجهة مفتوحةً بين ما هو إنساني وما هو غير ذلك؟ أم ماذا؟ هل كانت تنقصنا نحن سكان هذه المنطقة من العالم حماقة الاحتلال الدموية مضافاً إليها منع التجوال الذي مللناه نحن على وجه التحديد؟ لا

بالطبع، ينقصنا قبل الوباء وبعده أن يُرفع منع التجوال عن كل العالم مرةً وإلى الأبد، وفي قلبه فلسطين المحتلة. هكذا يمكن النظر للوباء كفرصةٍ أيضاً ليس على قاعدة «ضع رأسك بين الرؤوس»، بل على قاعدة «يا قاطع الرؤوس توقف».

ما بعد حداثة «كورونا»

ليس خافياً على أحد نوع الصراعات التي تحكم العالم منذ زمنٍ وحتى اليوم، الصراع على النفوذ، والتبعية، والإبقاء على التخلف، وعلاقة الشمال بالجنوب المختلة، وسباق التسلح، واستخدام السلاح بالفعل، وحتى محاولة توظيف التحكم بالجين البشري والتطور العلمي الهائل في كثيرٍ من المجالات لأغراض السيطرة وإحكام السياسة هنا أو هناك على مقاس المنتصر. لا شك أن شعوباً ما كانت تدفع فاتورةً أكثر من غيرها في هذا الإطار من احتلال مدنٍ وتدميرها بالكامل، وتهجير وصراعات طائفية ومذهبية لا حدود لها، ولم تشهد لها البشرية مثيلاً منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، لا بل أُنتج في هذا الصراع المرير على الطاقة والأسواق والجشع اللامتناهي أبشع ما في الفكر والسلوك الإنسانيين من وحشية وظلم، واستُدعيت من تاريخ الجنون الأسود فكرة بيع البشر من جديد وذبحهم بالسكين كما فعلت «داعش» باسم الدين. علينا حينئذٍ ألا نتوقع من هذه النظم السياسية التي تحكم العالم الخير، لا في مجال الطب ولا في مجال الوقاية، وتجنب الأمراض أو اختراعها، لا بد من أن تخلق هذه الأزمة أنماطاً اقتصاديةً وسياسيةً وحتى اجتماعية جديدة.

الثورة على الحجر

علينا ألا ننسى أن فيروس «كورونا» اجتاح كثيراً من مناطق العالم والناس كانت لا تزال في الشوارع في حالة احتجاجٍ ومظاهراتٍ تطالب بالتغيير وتحسين الأوضاع، كما كان الحال في فرنسا ومظاهرات السترات الصفراء، وفي لبنان ومظاهراته لمكافحة الفساد، ومظاهرات العراق، وغيرها من البلدان. ثم سرعان ما تفجرت المظاهرات في الولايات المتحدة الأمريكية في ظل أزمة «كورونا»، المظاهرات والاحتجاجات اللافتة لحركة الحقوق المدنية التي تطالب بالعدل، وهي ترفع شعار «حياة السود مهمة»، والفيروس لم ينتهِ أو يختفِ بعد.

ثم ماذا نتوقع بعد نهاية أزمة «كورونا»؟ وماذا ستكون الخيارات؟ هل ستكون هناك دول أكثر استبداديةً ووحشية، أم دول أكثر أخلاقاً وعدالةً تحاول إعادة بناء جديد وجذري للمجتمع بشروط أكثر إنسانية؟ علينا ألا نفقد الأمل كما يقول الشعراء. ولكن، قبل ذلك وبعده متى تتعافى الإنسانية من هذا المرض؟ وما الذي تحتاجه المجتمعات المظلومة والواقعة تحت احتلال كولونياليّ، كما في فلسطين، قبل الفيروس وبعده؟ هل فقط الأمل؟

كما لن يكون ممكناً على ما يبدو حل الأزمات الناتجة عن هذا الوباء على المستوى الوطني فقط، بل إن سياسةً عالميةً جديدةً أصبحت الآن مطلوبة، سياسة أكثر عدلاً وإنسانية، لأن تداعيات هذا الوباء هي الأُخرى -كما الفيروس- لن تعترف بحدود. الحلول لن تكون محلية. هل ستتعظ البشرية وتقترح ما يعزز روح التضامن الإنساني، أم ستنشغل بإنتاج نظامٍ جديدٍ أكثر قسوةً من السابق؟

هذا العالم المتشابك لن ينجو من دون أن تصاحبه رؤية مغايرة للسياسة والقوى التي تحكمه، رؤية تعزز من قيم التعاون الدولي لمواجهة الأزمات، هذا العالم لن يحتمل الفشل، كما أنه لا يحتمل أي حروبٍ جديدة. وقد أثبتت الأحداث فشل النظام الدولي القائم، وافتقاره للعدالة، وتسببه في نزاعات كارثية حطت معظم الإنجازات البشرية على المحك.

أمّا لماذا استعرت عبارة إلبرت آينشتاين في مقدمة المقالة، فهي أن الخطورة في الحرب القائمة بطرق عدة بين أقطاب العالم الكبرى، خاصة الصين والولايات المتحدة الأمريكية، بالرغم من أنها قد لا تندفع إلى مواجهة عسكرية نووية -لا سمح الله-. وهي لن تكون أيضاً بمستوى الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي السابق والغرب بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أنها حرب ضروس على الاقتصاد وعلى كل وسائل الاتصال، ومنها الجيل الخامس، حرب فيروسات وحروب عسكرية بالوكالة، حروب قائمة تُستخدَم فيها الدول الصغيرة كأدوات وساحات مواجهات مستعرة تدفع فيها الشعوب الثمن.

جائحة «كورونا» بالمعنى السياسي استُخدمت في هذه المعركة، وعمقت هذه الأزمة، الأمر الذي قد يدفع هذه المواجهة إلى نقطة أصعب ومنطقة قاسية تعيد البشرية إلى العصر الحجري. حرب لا رابح فيها، فالكل سيخسر.

رام الله، فلسطين ٢٠٢٠

خالد حوراني: من مواليد الخليل سنة 1965. كان مدير الشؤون الفنيّة في الأكاديميّة الدوليّة للفنون-فلسطين (2007-2010)، ثم ترأّسها (2010-2013). كما عمل قبل ذلك مديراً عاماً لدائرة الفنون الجميلة في وزارة الثقافة الفلسطينية (2004-2006). شارك الحوراني في الكثير من المعارض المحليّة والدولية، كما نظّم وعمل قيّماً للكثير من المعارض أيضاً. شارك في عدد من ورش العمل والمنتديات الثقافية والفنّية المحلية الدولية، كان آخرها القمّة الثقافية في أبو ظبي سنة 2019.

كورونا أوقعت بنا

مات أوفدرهورست

كورونـا أوقعَـت بنـا. تحـت السـيطرة تمامـاً، مصابـون بالسـأم، مشـككون؟ ملهمـون، متواصلـون، محفّـزون؟ مهووسـون، أنانيّـون، بخـلاء؟ أكـثر شـجاعةً، تعاطفـاً، كرمـاً، تحـرّراً؟

كيـف يمكـن للمـرء أن يكتـب عـن أزمـة كورونـا مـن دون أن تغيـب عـن أنظـاره فكـرة الحـب والمجتمـع؟

مـا هـي الكلـمات التـي يمكـن إيجادهـا مـن دون أن نـدقَّ ناقـوس الخطـر؟ أو مـن دون أن نسـتخدم التعابـير نفسـها مـراراً وتكـراراً؟ أو نبـدو متهوّريـن، أو مفرطـين في السـوداويّة؟

كيف يُغيّر الفيروس نظرتنا لأجسادنا؟

كيف يؤثّر على وعينا تجاه أنفسنا والآخرين؟ تجاه محادثاتنا؟

كيف يغيّر كورونا علاقاتنا بأصدقائنا وعائلاتنا، ومن نلتقيهم صدفةً؟

إلى أيّ درجـةٍ تقـوم كلٌّ مـن الثقافـة واقتصـاد السـوق والرأسـماليّة والنظـام الصحـي بمواجهـة هـذا التحـدّي بقـوّة؟

يواجـه مـات أوفدرهورسـت هـذه الأسـئلة في مقالـةٍ بعنـوان «كورونـا أوقعـت بنـا»، أو «الحيـاة والحـبّ في زمـن الوبـاء». لغتـه شـاعريّة وحسّاسـة، وبليغـة، نعـم، حتّـى أنَّهـا طريفـةٌ بـين وقـتٍ وآخـر. أشـدّ مـا قـد يفاجئكـم في هـذا المقـال العميـق هـو مـدى وصفـه لأنفسـكم.

بريا باسيل

من الخارج

1. كل مرض يعرف الرابحين ويخلقهم. من النادر أن يكون الحسّ السليم أحدهم.

2. دعونا نحافظ على هدوئنا في زمن الوباء. فالساعات فيها من الضوضاء ما يكفي، خاصّةً عندما تأخذ الحياة نفساً عميقاً-وتتوقّف مؤقتاً.

3. الرعب كان، ولا يزال، وسيظلّ جزءاً من كلّ وباء. كلّ من يعود خطوةً حذرةً إلى الوراء قد اتّخذ خطوته الأُولى نحو الصواب. من ناحيةٍ أُخرى، كلّ من يتخذ خطوة رعناء إلى الأمام، يُحاط أوّلاً بآخرين مهمِلين، ثم يجري تخطّيه ودعسه، أو يُحمَل معهم قدُماً نحو الهاوية.

4. الحذر هو فكرةٌ جيّدةٌ في زمن الوباء؛ تبيّن المساحة التي تقع أمامك. أمّا التريّث فهو فكرةٌ أفضل؛ اعرف المساحة التي تمضي وقتك فيها. لكنَّ أفضل نصيحةٍ هي الاحتراز؛ احترم المساحة، مساحتك ومساحة الآخرين.

5. أن ندفن أنفسنا بصمتٍ في زمن الوباء هو أمر لا يؤذينا نحن فحسب، بل يؤذي أصدقاءنا أيضاً، ناهيك عن العائلة. الحسّ السليم دائماً يتنفّس من الحوار الودّي. فلئن أحطت نفسك بسور، فإنَّ الهواء والماء يصبحان نادرَين على المدى البعيد. حتّى لو كان هناك قدرٌ كافٍ من الموارد في البداية على الأقل.

6. إنَّ التشارك بإنصافٍ هو مسألةٌ أخلاقيّة وليست جماليّةً في زمن الوباء.

7. إنَّ فنَّ الحياة النموذجيّة والمثاليّة هو مجرّد خرافةٍ على الأقل في أيّ منطقٍ عقلانيّ، ما عدا في المناسك. حتى «والدن»، التي كتب عنها هنري دافيد ثورو،[1] هي والحقُّ يُقال، قريبةٌ جداً من بلدةٍ صغيرة، إلى درجة أنّها في مسمع صرخاتها. لو أنَّنا نُصحنا بالخلوة، فمن الجدير أن نسأل لماذا، وما هي نيّة الناصحين من هذا الاقتراح.

8. ولكن في حالة وجود مرضٍ مُعدٍ، يُنصح، حسب الخبرة الطبية، بالانسحاب طوعاً، وبالقيام بذلك بشكلٍ دائمٍ ومن دون استثناءات. من غير المقبول عدم إطلاع الآخرين بشكلٍ متعمَّدٍ على احتمال إصابتك. في هذه الحالة، من المفيد تذكّر الضرورة الحتمية لإيمانويل كانت: تصرّف فقط وفق مبدأ يمكنك في الوقت نفسه أن تريد له أن يصبح قانوناً عاماً (افعل بحيث يكون فعلك قانوناً عاماً). هذا مبدأ أخلاقيٌّ عام، إذ إنَّه يضع جميع الناس تحت المُساءلة في الظروف كافة. ببساطة، يمكن للمرء أن يقول: أنا لا أُلحق أيَّ شيءٍ بالناس، لا أريد أن أخوضَه أنا نفسي.

9. إذا صدر الأمر بالحَجر، في حالة المرض الساري، فعلينا ألاّ نتمرّد. فقط دعونا نكون مهذّبين أوّلاً: فقمّة الوقاحة هي أن نفترض أنه لأنّنا أصحّاء لا نشكّل خطراً على الآخرين.

10. إذا ثبت أنّنا أصحّاء، وبسبب خطأ جسيم في الحسابات، كنّا الوحيدين الخاضعين للحجر، فيما جميع الآخرين يتمتّعون بحريّة الحركة، من الطبيعي أن نفضّل الهرب، جسدياً وفكرياً. إنَّ التضامن الكاذب غير مفيدٍ لنا ولا للمجتمع، خاصّةً عندما نكون قادرين على المشاركة النشطة في مكانٍ آخر. في هذه الحالة، لا يكون هروبنا غايةً بحدِّ ذاته، بل يكون غائياً.

11. يُنصح عموماً بحياةٍ نشطةٍ ومشاركة. فلَئن عُزل الإنسان، يقصر فتيل وجوده.

12. تُمنَحُ المساعدة إلى المرئيّ. في زمن الوباء، يجب أن يصبح الخَفيُّ مرئياً من قبَل من هم مرئيّون أصلاً.

13. الابتعاد له تبعاتٌ أشدُّ خطورةً في زمن الوباء من الأوقات الأقلّ دراماتيكيّة.

41. أولئك الذين يشيحون بأبصارهم ستُشاح عنهم الأبصار في المحصّلة.

15. في زمن الوباء، يتغيّر مفهوم «الأُسرة». فهو يتّسع ويصبح أكثر مرونةً، ويتعرّض من وقتٍ إلى آخر إلى مدٍّ وجزر. فإن كنّا محظوظين، فإنه تُجرَى إعادة تعريفٍ للنظريّة التي تُميّز بين «الإنسانيّة» و«الأُسرة»، ويزداد التطابق. وإن كان الوضع مثالياً، فالأمر ينتهي في «الإنسانية» و«الأُسرة» في الدائرة نفسها.

16. يمكن إيجاد أيّ شيءٍ يُمكن قولُه تقريباً حول تكوين الشخصية في زمن الوباء في كتاب جيوفاني بوكاتشيو ديكاميرون أو الكوميديا البشرية.[2] لو قرأنا الكتاب، فقد ندرك أنَّ المرض بحدِّ ذاته لا يُغيّر أحداً، بل هو يستثير ما هو موجودٌ فيه أصلاً، الخير والشرّ.

17. في زمن الوباء، يُنصَح بشكلٍ خاصٍّ بالبحث عن الحكمة بمساعدة ما أسماه الإغريق القدامى أتاراكسيا (الطمأنينة) -حالة من الهدوء والرزانة الشديدة. فسكينة النفس هي قرارٌ واعٍ يُمكننا أن نتّخذه بشكلٍ مستقلّ، مثل اضطراب النفس-والأمر ليس مفاجئاً. فمن ينجرفْ يتعرّض للاحقة، أمّا من يتّجه نحو ملاذٍ آمن، فهو يجد نفسه في السابقة.

18. أمّا أكثر الأُمور زوالاً فهو الزوال عينه. فالأزمات تأتي وتروح. وأولئك الذين يعتبرون زمانهم زماناً مختلفاً هم على خطأ فادح.

19. في صلب السعي لتقليل المطالبات، وهو أمرٌ ضروريٌّ ومنطقيّ، تقع أهمّ فكرةٍ قد نكون استخلصناها في زمن الوباء: معرفة أنَّ الأقلَّ بالتأكيد يكفي، ويساعدنا على التشكيك في مستقبل يتكوّن من السعي مرّةً أُخرى إلى المزيد والمزيد والمزيد.

20. من لا يريدون التعلّم، لا يتعلّمون شيئاً حتّى في زمن الوباء.

21. من لا يريدون الشعور بشيء، لا يشعرون بأيّ شيء، حتّى في زمن الوباء.

22. إنَّ مصدر رزق الخبراء هو تعدّد آرائهم، إضافةً إلى حقيقةِ أنَّ العلوم تتطوّر من خلال إثبات أو دحض فرضيّاتٍ مُتضاربة. ومن غير الممكن الإثبات بشكلٍ معقولٍ أن لا أحد يمتلك الحقيقة إلاّ بأثرٍ رجعيّ. فالحقيقة هي جزءٌ من الصالح العام. نحن جميعاً -وبكلِّ صدقٍ- مسؤولون عن الحقيقة كصالحٍ عامّ. أمّا خصوصيّة الحقيقة، فهي محفوظةٌ للفنّ.

23. ماذا بشأن الكذبة؟ لا يتعيّن علينا أن نقلق بهذا الخصوص. فالكذبة تزدهر في أوقات الطاعون. يمكننا القول عموماً إنّه يمكن التعويل دائماً على الكذبة لترعى نفسها. فغريزة الازدهار حادّةٌ جداً لديها. دعمُنا مُرَحَّبٌ به، لكنَّها لا تحتاجنا للعيش، حتّى أنَّ الكذبة تنبذ مساعدتنا من دون أن يرمش لها جفن لو تعلّق الأمر بها. نعم، هي تخونُنا بدمٍ باردٍ بمجرّد ألّا نعود -الكذبة ونحن- نتمالك أنفسنا.

24. كلُّ من يصادق كذبةً في زمن الوباء عليه أن يستعدَّ لخيبة أملٍ مفهومةٍ وغير قابلةٍ للفهم في الوقت نفسه.

25. تتمتّع الصداقات الجديدة أو الصداقات التي توطّدت أواصرها خلال زمن الوباء بقوّةٍ وثباتٍ لا تتمتّع بهما الكثير من علاقات الصداقة البديهيّة الأُخرى. فكثيراً ما تتعثّر تحالفات الطقس اللطيف في زمن الوباء. فنحن نعرف قدرَ بعضنا من بعض عندما نحتاج شيئاً من بعضنا بعضاً. والمساعدة الحقّة، في النهاية، كانت وستبقى متبادَلة.

26. على من نعوّل عندما تكون علامات الوباء الخطير لا تزال قائمة، هو أمرٌ بحدِّ ذاته واضحٌ مباشرةً. كذلك يمكن تبيُّن الوعود الفارغة بشكلٍ فوريٍّ أيضاً. فإن لم تأتِ المساعدة فوراً، بصرف النظر عمّا تأمر به السلطات، فهي في الغالب تصل متأخّرة جداً.

27. تتضاعف جميع الأباطيل خلال زمن الوباء. وللأسف، هذا لا ينطبق على الحقيقة. لماذا؟ تتّسم الحقيقة عادةً بسمة التركيز. فإن ركّزت على مشكلةٍ ما، فهي تغوص في التفاصيل، وقد تغفل بعض المهامّ الأُخرى. وهذا يعني أنَّه ينبغي علينا، أو على الأقلّ يمكن لنا في زمن الوباء أن نكون أقلّ قسوةً على الحقّ. فهو يحاول بكلّ ما بوسعه، فيما الباطل لا يتمسّك وديّاً بأسوأ ما في زمن الوباء فحسب، بل إنه يكرّس نفسه له بأسنانه وأظافره وجلده وشعره وأعينه وفمه وأُنوفه وآذانه وأيديه وأقدامه، وكذلك بشوَكه وسكاكينه، وعن طريق فيسبوك، وإنستغرام، ويوتيوب وتويتر.

28. إنَّ الثقة بقدرات المرء وصلاحه، ودعونا نكون دقيقين بدل المداورة، إنَّ الثقة بالقدرة على النبل والتعاطف بشكلٍ دائمٍ تصبح أكثر صعوبةً من المعتاد في زمن الوباء. في النهاية، جميعنا يدرك جيّداً أننا أَضَعنا نقطة البداية مراراً وتكراراً، بأنّنا تردّدنا، من دون تفسيرٍ مُقنع، عن الانخراط الحقيقيّ في الحياة، وأنَّنا كرّسنا أنفسنا لما هو غيرُ صالحٍ

ورخيصٌ وغثٌّ من دون تردّدٍ ومن دون حساباتٍ عقلانية، وهو أمر مخجل. أن نقوم بشكلٍ مفاجئٍ بما هو ضروريٌّ تماماً، بما يتوقّعه منّا الآخرون، والذات الأفضل، هو أمرٌ مستحيل. ومع ذلك، ليس من الضروري الشعور بالقنوط. ففي زمن الوباء، كلُّ خطوةٍ تؤدّي إلى الصلاح لها أهمّيتها. فلَئن قام الآخرون بقفزاتٍ كُبرى تؤدّي إلى الهدف (أو على الأقلّ تبدو جيّدة)، دعوهم يتباهون ودعوهم يفعلون ذلك دون تحفّظ. لنكن كرماء في تقدير عطاء الآخرين، حتّى لو جرى ذلك أمام مرايا عامّة.

29. هناك طرقٌ عدةٌ نحو الهدف في زمن الوباء. وكثيراً ما يكون هناك الكثير من الأهداف أيضاً.

30. يتبيّن أنَّ معظم الأحكام هي تحامل، لذا فهي سيّئة، وفي غير صالح المجتمع.

31. الموت لا يأتي بهدوءٍ في زمن الوباء. فإذا سمعناه عن بُعد، يجدر بنا أن نحاولَ الهروب.

32. كلّما درسنا استراتيجيّة عدوّنا بشكلٍ أفضل، زادت قدرتنا على مراقبته. يقول سون تزو في فنّ الحرب:[3] «إذا كنتَ تعرف نفسك وعدوَّك، فلا تخشَ من نتائج مائة معركة». ما تجدر إضافته هو أنَّ سون تزو نفسه، الذي خاض بنفسه الكثير من المعارك الدموية، يعتبر أنَّ الانتصار من دون قتال هو الأفضل.

33. أكبر الأعداء يعيشون داخل النفس. كلُّ الآخرين لهم قدرٌ أقلّ من السلطة عليّ. وهذا أمرٌ ينطبق على أوقات السلم كما في أوقات الأزمات.

34. أن تكون جيّداً فقط هو أمرٌ يُعدُّ بدايةً مرغوبة. ولكن، إن لم تُشرك الآخرين في هذه الجودة، فإنَّك أنت نفسك لن تنتفع من جَودتك، حتّى على المدى القصير.

35. لا يقدّر أتباع مذهب اللذة كم من السهل اكتشاف نواياهم.

36. من الطبيعي الشعور بالتعب. وفي زمن الوباء على وجه الخصوص، على المرء أن يهتمَّ بإيجاد الراحة المستمرّة. فأُولئك الذين يستعجلون يكونون أكثر عرضةً لاستعجال الكارثة.

37. إنَّ من يُوفّرون لأنفسهم السلام والهدوء قادرون أكثر من غيرهم على تحمُّل الضجيج في الحاضر والمستقبل. ومن أجل السلامة والعطف فقط، يُنصَح بأن تكون الأذان مفتوحةً دوماً.

38. بشكلٍ خاصٍّ في زمن الوباء، على المرء أن يُميّز بدقّةٍ من أين تأتي المساعدة تماماً، وألاّ يدع نفسه تُوجَّه بحسن نيّةٍ نحو منزلق التعهّدات الكاذبة. يشرح لوكيوس سينيكا[4] أنَّ المرء لا يكون كريماً عندما يُسرفُ فيما يمنحُه الآخرون، بل عندما يأخذُ من نفسه ما يمنحه للآخرين.

39. كلُّ مـرضٍ يسـكن فينـا مـن حيـث المبـدأ؛ مـا مـن مـرضٍ دخيـلٍ علينـا. أمّـا الصلـة الأقـرب والأكـثر حميميّـةً لـدى المـرء، فهـي الصّلـة بمـرضٍ وجـوديّ، إذ إنَّ المسـألة في هـذه الحالـة تتعلّـق بالحيـاة أو المـوت. كلُّ مـن يقـول إنَّ المـرض هـو أمـرٌ خارجـيٌّ يكـون في منتصـف الطريـق نحـو هزيمتـه أمامـه. الرجـاء عـدم الخلـط بـين هـذه الفكـرة والقبـول، تحـت أيّ ظـرفٍ كان، لأنّـه بالطبـع تجـدر مقاومـة المـرض الـذي دائمـاً يسـتوطن الـذات.

40. في أزمنـة الوبـاء، لا تتوقّـف الأعـمال. حتـى لـو بـدت الحوانيـت مغلقـة، بحكـم النظـام والقانـون، بـل عـلى العكـس مـن ذلـك، يجـد المـال ثغـراتٍ، ويتّخـذ أشـكالاً جديـدة، قليلـون كانـوا يعتقـدون أنَّهـا ممكنـة. في أوقـات الوبـاء، ينـزع المنتفعـون مـن الحـرب أقنعـة البـراءة عـن وجوههـم، فيظهـر الجشـع المطلـق الـذي يختبـئ خلـف هـذه الأقنعـة. ولهـذا السـبب يُنصَـح تمامـاً بالتفكـير المـليّ وإعـمال الشـكّ. فـإنْ كنـتُ أنـا مسـتقيماً، فهـذا أمـرٌ جيّـد، ولكـن لـن يكـون الآخَـر كذلـك بالـضرورة، ومـن الأرجـح ألاّ يحـذو حـذْوي، عـلى الأقـلّ ليـس بشـكلٍ فـوريّ.

41. في زمـن الوبـاء، يتمتّـع المتلوّنـون fickleبنفـوذٍ أكـبر مـمّا يسـتحقّون. فهُـم يجـدون أذانـاً صاغيـةً لأنَّ أصواتهـم أعـلى مـن الكثـير مـن الأصـوات المُحكَمـة.

42. إذا تمسّـكنا في زمـن الوبـاء بالأطـراف الراسـخة، فـإنَّ الأطـراف المترابطـة تكتسـب القـوّة. أمـا إذا عوّلنـا عـلى الأفّاقـين، فإنّنـا نواجـه خطـر الوقـوع.

43. في زمـن الوبـاء، ينبغـي أن يـأتي مـع كلِّ وعـدٍ تعهّـد. وكلّـما كان التعهّـد أكـثر أهميّـةً، كان ذلـك أفضـل. ولكـن، لا توجـد أيّ ضمانـاتٍ بتسـديدها أو تسـديد أيّ شيءٍ إطلاقـاً.

44. للضمانـات أهميّـةٌ في زمـن الوبـاء، إن كانـت قابلـةً للإنفـاذ، مـن ناحيـة، ومتبادَلـةً، مـن ناحيـةٍ أُخـرى، مـا يجعلهـا أكـثر قـوّة.

45. إنَّ مـن يطـرح جلـده أو جلدهـا في السـوق في زمـن الوبـاء لا ينبغـي أن يفاجـأ إذا اعتـبر النـاس ذلـك إذنـاً بالتحديـق مـن دون اسـتئذان. فالأخـلاق قلّـما تتغـيّر مـع مـرور الزمن.

46. إنَّ المبالغـة في الحـذر والتباعـد بـين الأصدقـاء في زمـن الوبـاء أمـرٌ مـضرّ. مـاذا يعنـي هـذا بالنسـبة للتقـارب؟ هـل يقـوّي أو يُضعـف الحميميّـة؟ القاعـدة تقـول إنَّ الإجابـة تكمـن في الحالـة الفرديّـة فقـط.

47. ليـس مـن المقبـول التراخـي في خدمـة الصالـح العـام في زمـن الوبـاء، بـل عـلى المـرء أن يتّبـع أخلاقيّـات العمـل البروتسـتانتيّة أو المتشـدّدة، أو أن يتّبـع مبـدأ ماركـوس أوريليـوس المنفعـي: «اعمـل! ولكـن ليـس مثـل شـخصٍ تعيـسٍ أو شـخص يرغـب في اسـتدرار الإعجـاب أو الشـفقة. اعمـل أو اسـترِح عـلى النحـو الأفضـل للمجتمـع».

48. المـوارد محـدودة، خصوصـاً في زمـن الوبـاء. إنَّ عـدم وجـود حـدود لاحتياجـات الإنسـان أمـرٌ غـير مناسـبٍ لهـذا السـبب وحـده. فأولئـك الذيـن لا يزالـون غـير قادريـن عـلى ضبـط جشـعهم سيشـعرون عاجـلاً أو آجـلاً بغضـب المجتمـع. فقـط البارعـون في الخـداع هـم الّذيـن سـيتمكّنون مـن إقنـاع النـاس مـن دون التعـرّض لـلأذى. يمكـن للفـنّ الـرثّ والأرعـن أن يزهـو أحيانـاً، لكنَّـه لا يسـتحقّ الإعجـاب عـلى الإطـلاق.

49. إنَّ مـن يرغبـون في الاسـتدانة سـيجدون فرصـاً كثـيرةً في زمـن الوبـاء. أمّـا إن كان التبذيـر جديـراً، فهـذه مسـألةٌ أُخـرى.

50. في زمـن الوبـاء، الحـبّ فقـط هـو مـا يفيـد. فلـئن لم يكـن متوفّـراً، لأيّ سـببٍ كان، يُنصـح بالطيبـة والعطـف والتسـامح.

مـات أوفدرهوسـت: درس التاريـخ والأدب الألمـاني في كيـل وهامبـورغ. وعمـل مراسـلاً إذاعيـاً وتلفزيونيـاً وكتـب تقاريـر عـن العـمارة، والسـينما، والمـسرح. أمـضى مـات سـنوات عـدّة في منتصـف عشرينياتـه وهـو يعـزف الموسـيقى الصاخبـة في أحـد النـوادي المليئـة بالدخـان تحـت الأرض. وقـد نـشرت مقالاتـه حـول العـمارة، والفلسـفة، والذاكـرة في مجلّتَـي ليـتر أنترناسـيونال وبريـك.

يعيـش مـات في برلـين، وهـو مؤسّـس مشـارك لـ»مؤلّفـون مـن أجـل السـلام»، وهـي منصّة يقـوم فيهـا الكتّاب باسـتخدام الأدب لتشـجيع السـلام.

Endnotes

1 هنري دافيد ثورو، Walden (والدن)، لندن: Penguin Clas-sics), 2016).

2 جيوفاني بوكاتشيو، The Decameron (ديكاميرون)، لندن: (Penguin Classics), 2003).

3 سون تزو، The Art of War (فنّ الحرب)، هوبوكين، نيوجيرسي: (Capstone, 2010).

الهجوم بواسطة الخدعة، الفصل 18: «من هنا القول: إذا كنت تعرف نفسك وعدوَّك، فلا تخشَ من نتائج مائة معركة. وإذا كنتَ تعرف نفسك، ولكن ليس العدو، فمقابل كل انتصارٍ تحقّقه ستعاني من هزيمة. وإن كنتَ لا تعرف العدو ولا نفسك، فإنَّك ستستسلم في كل معركة».

4 سينيكا لوكيوس،

De Clementia, I, XX, 3: “Nam quemadmodum non est magni animi, qui de alieno liberalis est, sed ille, qui, quod alteri donat, sibi detrahit.” https://www.thelatinlibrary.com/sen/sen.clem.shtml.

دار: بيت بين العام والخاص

ساندي هلال وأليساندرو بيتي

في صيف العام 2007 في فلسطين، وقبل ثلاثة عشر عاماً على حجرنا جميعاً بسبب فيروس كوفيد-19، قمنا بإنشاء **دار** (جمعية دار للتخطيط المعماري والفني)،[1] وهو مكتب معماري وفني يعني اسمه دار، أي منزل. أحد الأهداف الرئيسية لدار هو البحث وتحدي المفاهيم السائدة للمساحات الخاصة والعامة. من خلال التركيز على العلاقة بين المساحة الخاصة للمنزل كموقع للرعاية والمساحة العامة كموقع للحكم، أوجدت **دار** مساحات جماعية مختلفة على الحدّ القائم بينهما.

لقد تغيّر دور البيت وعلاقته بالعموم بشكل جذري أكثر من أيّ وقت مضى خلال الجائحة، التي شكلت نقطة تحول أجبرت سكان العالم على إعادة التفكير في البيت ودوره في المجتمع. فيما يلي، سنستند إلى تجاربنا في العمل في دار على الأعتاب القائمة بين الفنّ، والعمارة، والتعليم.

عندما دعانا يزيد عناني للتفكير في أزمة فيروس كورونا لهذا المنشور، سألنا أنفسنا: هل هذه أزمة أخرى؟ ما هي هذه الحالة الجديدة التي نواجهها بالضبط؟ اعتبرنا المحادثة مع يزيد نقطة انطلاق، وبدأنا في كتابة هذا المقال عن طريق تسجيل محادثتنا. فكّرنا معاً كيف أنَّ الوضع الحالي قد غيّر فكرة البيت بشكل جذري. وعلى الرغم من أنَّ الحياة بدت وكأنّها تتباطأ أثناء الإغلاق، فإنَّ الأمور كانت تتغيّر بسرعة. في الواقع، عندما قرأنا نصّ الحوار المكتوب مع يزيد بعد بضعة أسابيع فقط، شعرنا أنَّ أساس محادثتنا قد تغيّر كلياً.

لذلك، بدلاً من محاولة إعطاء لمحة سريعة عن واقع في تحوّل سريع، قرّرنا أن نربط أفكارنا بتجربتنا مع دار، وأن نركّز على سؤال محدّد انبثق من المحادثة مع يزيد: كيف تغيّرت العلاقة بين العامّ والخاصّ في هذه اللحظة التاريخية؟ وبالفعل أشار يزيد في جزء من المحادثة إلى التالي:

لا ينبغي للمرء، أيضاً، أن يتجاهل فكرة الحبس باعتبارها عمليّة انعزال عن الحيّز العام، وتحوّل جذري في تعريفه. تصبح الأماكن العامة، في حالة الطوارئ، ضماناً لبقاء المرء على قيد الحياة وتأمين معيشته فقط من خلال الشراء، أو الذهاب إلى العمل لأولئك الذين يضمنون سلامة العامة. لقد أحدثت جائحة فيروس كوفيد-91 مفهوماً مختلفاً عن الأماكن العامة يحتاج إلى التحقيق، لا سيما فيما يتعلق بالمشروع الاستعماري، حيث تعد المساحة المادية عنصراً ضرورياً للغاية للهيمنة والسيطرة وفي المحصّلة للمقاومة. وهذا جانب آخر مهمّ يمكن للمرء أن يدرسه، أيضاً، بين التجربة الغامرة عبر التواصل عن طريق الإنترنت وبين حميميّة المساحة الخاصة وعدم الاتصال والتحوّل في معنى المساحة العامة والجانب المادّي لجغرافيّتها.

بالفعل، في لحظة الأزمة نرى، أيضاً، أشكالاً مختلفة ناشئة من المساحات الجماعية غير المتوفّرة في الحيّزين العام والخاص. خلال الانتفاضة الأولى، تحوّلت البيوت إلى مساحات لبيئات التعلّم ذاتيّة التنظيم، التي حلّت محلّ الجامعات والمدارس، وتحوّلت غرف المعيشة إلى منظّمات سياسيّة سريّة. يمكننا أن نسأل اليوم في الوقت الذي يحظر فيه التجمّع في الأماكن العامّة، هل يمكن للأماكن داخل البيوت أن تستضيف ظهور أماكن جماعيّة للعمل السياسي؟ يمكن إعادة تخيّل البيت ليلعب دوراً مركزياً في تشكيل مساحات مدنيّة جديدة، في الوقت الذي أصبحت فيه التجمّعات في المنازل صعبة للغاية بموجب شروط «حالة الاستثناء» الناتجة عن مخاوف العدوى والقيود المفروضة على حركة الأشخاص.

وبالأساس، يمكننا، أيضاً، أن نسأل أين يقع البيت. لقد فُرض هذا السؤال خلال هذه الفترة على الجميع، وليس على النازحين والمهاجرين واللاجئين فقط، ولكن كذلك على الكثير من الأشخاص الذين كانوا مستغرقين سابقاً في حياة عامّة مزدحمة لبناء حياة مهنيّة وشخصيّة كان البيت فيها مجرّد مكان للنوم في نهاية اليوم. انتهى وقت السفر إلى الجانب الآخر من العالم لبضعة أيام، وذهب وقت العيش بين مدينة وأخرى. لقد أجبر تقييد الحركة بسبب الجائحة الجميع على البقاء في مكان واحد، والتعامل معه مؤقتاً على الأقلّ.

لطالما اتّخذت جمعيّتنا؛ **دار**، البيت كنقطة انطلاق رئيسيّة في محاولة لفهم كيفيّة تحليل وتحويل المساحات العامة من بعد حميميّ من الحياة المنزلية. كيف ننطلق من غرفة المعيشة لنفهم الجماعيّة؟ ما الذي يمكننا أن نتعلّمه عن الإبداع والإدارة من المطبخ؟ هذه أسئلة حاولنا الإجابة عنها من خلال عملنا مع **دار**.

بمناسبة نشر كتاب **المؤقّت الدائم** (*Temporariness Permanent*)، تأمّلنا في كيفية إدارة المنزل كموقع عمل في جمعيّتنا مع المؤسّس المشارك لدار أيال ويزمان.

المحادثة التالية هي مقتطف من كتاب **المؤقّت الدائم**، لساندي هلال وأليساندرو بيتي (ستوكهولم: الفنّ والنظرية، 2019).

أيال وايزمان: أجد أنّه استثنائي وذو قيمة كبيرة أن يكون مشروع أو جمعيّة قادرة يا أيال على أن تكون بمثابة انعكاس لزمنها. قد يبدو الوضع في فلسطين كأنّه ساكن ويائس، ولكن إذا نظرت إلى عملك وأعمال دار (جمعيّة دار للتخطيط المعماري والفني) بعناية، يمكنك أن ترى أنَّ هناك لحظات متعدّدة مرَرْنا بها، تحكي قصّة عن مدى تغيّر الأشياء. خارطة الطريق،[2] والانتفاضة الثانية، والوضع في فلسطين ليس كذلك الآن. بدأنا العمل معاً في وقت العنف الهائل، وهو ليس النوع نفسه من العنف الذي نعيش فيه الآن، والذي أصبح عنفاً أكثر بنيويّة وبيروقراطيّة. عندما بدأنا، كانت القيادة عبر الضفة الغربية خطرة، حيث قد تتعرض لإطلاق النار، إمّا من الجيش الإسرائيلي وإما إحدى مجموعات المقاومة الفلسطينية. كانت هناك معارك بالأسلحة النارية ليلاً ونهاراً. وفي خضمّ هذا كلّه، وصدمة انهيار عملية السلام، كان هناك كتابك أليساندرو، (Archipelaghi e Enclave)،[3] وكتابي «الأرض الجوفاء» (Hollow Land)، وهما عملان بين الصحافة والعمارة، في محاولة لفهم وتحليل الصراع. في العام 2007، عندما أنشأنا دار، وفي العام نفسه الذي نُشر فيه كلا الكتابين، كان السفر عبر الضفة الغربية لا يزال خطراً. لذلك، فالأشخاص الذين كانوا يأتون إلينا يخاطرون كثيراً ويبقون معنا لفترة أطول. ولذلك كانت الإقامة شبيهة بالملجأ إلى حدٍ ما، كانت مكاناً للبقاء معاً رغم كلّ الصعاب. ما زلت أذكر مدى قلق ساندي عندما كنت أتلقّى مكالمة من أختي وأتحدث باللغة العبرية، لأنّ الإحساس بالخطر كان موجوداً دائماً. تغيّر الوجود الدولي في الضفّة الغربيّة خلال الانتفاضة الثانية، حيث بدأ النشاط الدولي وأفادت الإقامة من هذه الطاقات.

أليساندرو بيتي: أتذكر ردود أفعال الأشخاص الذين زارونا في بيت ساحور في ذلك الوقت، وكيف فوجئوا بوجود بيئة نشطة ثقافياً رغم العنف المحيط بها. كتبت آن ستولر4 نصاً غنياً للغاية يصف منزلاً مليئاً بأشخاص من جميع أنحاء العالم يعملون في مشاريع تتبنى فكرة النقد التي تتماشى مع تعريف فوكو: ألّا تُحكم لا من قبل هؤلاء الأشخاص، ولا في هذا الوقت، ولا في هذه الطريقة. ما أشعر أنّه مهمّ في الممارسة الجماعيّة هو القدرة على خلق مساحة وإمكانيّة للّقاءات غير الموجودة في أيّ مكان آخر في الوقت الحاضر. خلقت الإقامة في منزلنا عالماً أصبحت فيه الحياة المشتركة ممكنة ومكاناً يعرف فيه الناس أنّهم سيجدون مساحة فريدة. أدرك أوكوو إنويزور (Okwu Enwezor)،5 أنّه كنوع من الآثار الجانبية لجمعيّتنا، أنشأنا مساحة مدنية شكّلت حقيقة واقعة، بدل الاعتماد ببساطة على تحليل النظام الاستعماري وتوثيقه وشجبه.

عندما أنظر إلى الخلف، أشعر بالتأثر لسخاء جميع الأشخاص الذين قرّروا المجيء والمساهمة في دار. جاءوا ودخلوا في علاقة تبادلية. أعتقد أنَّ ما جذب الناس هو إمكانية الاندماج الفوري في وضعٍ مشحون للغاية، وفي الوقت نفسه يتمّ تزويدهم بأدوات مفاهيميّة وعمليّة فعّالة لتحدّي الوضع الراهن. قدّمت دار إطاراً مفاهيمياً، وطريقة لرؤية حقيقة ذلك الزمن، وبالمقابل قدّم المقيمون مهنيّتهم، ووقتهم، والتزامهم وخبراتهم. في وضع عدائي كالوضع القائم في فلسطين المحتلة، حيث يتعلق كلّ شيء بالدمار، قدّمت الإقامة رؤى سليمة.

ساندي هلال: منذ أن انتقلنا إلى أوروبا في خريف العام 2017، أصبح واضحاً أكثر من أي وقت مضى مدى أهمية إنشاء المساحات العامة، وكيف نحتاج إلى معالجة مسألة من له الحق في استخدامها ومن يمتلكها. منذ المشاريع الأولى التي قمنا بها حول إزالة المستوطنات في الضفة الغربية، أدركنا أنّنا لم نتعامل فقط مع المستوطنات الاستعمارية، ولكن مع مصادرة المساحة العامّة الفلسطينيّة. أُقيمت معظم المستوطنات الإسرائيليّة في الضفّة الغربية على بقايا الأراضي المشاع الفلسطينية. وبالتالي أصبحت مسألة إنهاء الاستعمار هي كيفية إنهاء استعمار المساحة العامة الفلسطينية. كيف ستبدو المساحة العامة الفلسطينية، وبخاصة في ظل غياب الدولة؟

طُرحت، فيما بعد، أسئلة مماثلة فيما يتعلق بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين. ما هو مفهوم المساحة العامة في مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين؟ هل هو سؤال مشروع في مكان لم يكن يُفتَرض أن يوجدَ أصلاً؟ ما هو المعنى السياسي للتفكير في المساحة العامة في مخيّمات اللاجئين الفلسطينيّين؟ وكيف يرتبط ذلك بحقّ العودة للفلسطينيّين؟ في مشروعنا الذي يحمل اسم بساجوت،6 استنتجنا أنَّ العودة لن تكون ممكنة إلاّ إذا تمكّنا من تخيّل كيفيّة حدوث عودة جماعية. وهذا جعلنا ندرك محوريّة «المشاع»،7 ليس فقط في واقع مخيّمات اللاجئين، بل كركيزة أساسيّة لحق العودة أيضاً. أدّت هذه الاستخلاصات إلى إدراك أنَّ الإقامة في بيتنا، دار، هي، في الأساس، إنشاء مساحة جماعيّة بين العامّ والخاصّ. كان إنشاء شبه مؤسسة في مساحتنا الخاصة بمثابة استجابة لنقص المساحة العامّة في فلسطين.

أيال وايزمان: أعتقد أنَّ هناك مثلّثاً من المشاريع: هناك الإقامة في المنزل كشكل من أشكال المساحة المدنيّة وموقعان للعمل يعكسان بعضهما البعض بطريقةٍ ما: المستوطنة الإسرائيلية ومخيّم اللاجئين الفلسطينيّين، وكلاهما خارج الحدود الإقليميّة ويحدّدان الأرض المشاع بطريقة مختلفة. هذان الاثنان يشكّلان بعضهما البعض على نحوٍ ما: فالمستوطنة كمكان محظور عليك، جزيرة لا يمكنك الدخول إليها، ومكان عام حصري يجب إنهاء الاستعمار فيه، ومخيّم اللاجئين كموقع للمشاعات. ما زلت أريد أن أصرَّ على أنَّ مشاريع دار متجذّرة في التاريخ؛ لقد كانت فترة انتقالية من أحد أشكال العنف إلى الأشكال الأخرى. وهي تنبّأت التاريخ في الوقت نفسه. لقد كانت سابقة لعصرها على خريطة المؤسّسات الأخرى. أعتقد أنَّ ما ساعدها على أن تصبح ما كانت عليه هي سمة أساسيّة خاصّة بالهندسة المعمارية وغير موجودة في الفنّ أو

في أنواع أخرى من الإقامات. تتطلّب العمارة العمل الجماعيّ. فلا يمكن للمرء أن يأتي ويقوم بمشروعه الفردي الخاص به. هذا هو سبب عدم وجود إقامات معمارية. فالإقامة هي مكان تذهب إليه لتنقطع عن محيطك وتعمل على شيء خاصّ بك. كانت دار عبارة عن إقامة موجودة في وضع، كانت مساحة للانغماس بدل الانقطاع عن العالم. هي قامت بتجذيركم في مساحة مدنيّة أكبر من المكتب. هي نموذج لعالم مشترك لا يسمح به الفنّ.

أليساندرو بيتي: أعتقد أن الإقامة المعمارية عملت على أساس مفهوم الصداقة. أقام سكان دار علاقات قوية استمرّت إلى ما بعد فترة الإقامة. من الصعب جداً تكرار هذا النوع من العلاقات في الوقت الحاضر، وبخاصة في البيئات المؤسّسية. تخلق فلسطين، براديكاليتها، لحظات من مشاعر الصداقة الحادة والصادقة جداً.

أيال وايزمان: أعتقد أنه من المثير للاهتمام إلى حدٍّ كبير أنَّ دار تزامنت، أيضاً، مع مشاريع حياتنا، أطفالنا. فمن المثير للاهتمام بالنسبة لي أن أرى اليوم كيف نمت سما وتالا، لأنهما نشأتا في بيئة خاصة جداً. فمن ناحية، كانت بيئة مغلقة جداً شبه خانقة، بمعنى أنّه من الصعب جداً التنقل فيها، ولكن من ناحية أخرى، فقد زوّدتهم الإقامة بقدر مذهل من التعرض والانكشاف على عدد كبير من الأشخاص المختلفين. كانتا متواجدتَين دائماً، وكانتا متعرّضتَين دائماً لجميع هذه اللغات ولأشخاص مختلفين يأتون من جميع أنحاء العالم. لذا فهما تتحدّثان الآن أربع أو خمس لغات مختلفة، وتتمتّعان بقدر مذهل من التكيّف والطلاقة. الطريقة التي فتحتم بها حياتكما ووجبات الإفطار التي قمتما بتحضيرها في الصباح ووجبات العشاء في المساء... وبالطريقة نفسها التي يتحدّث بها أليساندرو عن ذلك من حيث الصداقة، يمكننا، أيضاً، التحدّث من حيث العائلة، والطريقة التي دخلت الإقامة عليها وأثّرت فيها. يمكن القول إنَّ هذا المقيم تزوّج هذه المقيمة، لكنَّ سما وتالا هما، أيضاً، نتاج هذا الشكل من الحياة الذي قرّرتما أن تعيشاه.

ساندي هلال: وليس هما فقط. أعتقد أنَّ إحدى القضايا الرئيسية التي واجهتنا عندما تزوجنا، وبخاصّة بالنسبة لأليساندرو، كانت كيف نتجنب أن نصبح عائلة برجوازيّة صغيرة. لقد كان قلقاً حقاً بهذا الشأن، حيث كان يقول طوال الوقت «لا أريد أن نعيش نحن الأربعة فقط، هذا ليس شكل الحياة الذي أريده». لذلك كانت الإقامة شكلاً من أشكال الهروب من بعض طرق العيش داخل عائلة. وقد اتبعنا استراتيجيّة مماثلة عندما قرّرنا تعميد سما وتالا في المخيّم. كانت هذه هي اللحظة التي شعرت فيها أنَّ اللاجئين الذين كنّا نعمل معهم منفتحون علينا فعلاً.

فقد كانت لفتة تقول: يمكننا التشارك مع المخيّم في أكثر الأشياء حميميّة في حياتنا. كنّا منفتحين على مشاركة عائلتنا، ليس على شكل الكيبوتس أو تجربة مماثلة للحياة الجماعيّة أو المجتمعيّة، ولكن ببساطة يمكننا القول أنّه ليس لدينا مشاكل في مشاركة حياتنا مع الآخرين.

ربّما أدركت سما وتالا بشكل غريزي أنَّ لدينا ما أسمّيه عائلة عامّة، وليست عائلة خاصة. شكّلت الإقامة، أيضاً، جزءاً من الرغبة في الخروج من عزلة العائلة النوويّة.

أيال وايزمان: أصبحت الإقامة متشابكة مع مساحة عائلتكما الممتدّة أيضاً.

ساندي هلال: والآن بعد أن انتقلنا إلى السويد، نسأل أنفسنا ماذا يعني أن يكون لدينا عائلة عامّة، أن يكون لدينا عائلة هناك. هذا البعد هو أكثر ما افتقده في فلسطين.

أيال وايزمان: بسبب المنزل؟ كانت الإقامة في منزلكما في فلسطين تدور حول المطبخ وغرفة المعيشة كمساحات للنقاش. كانت وسيلة للمقيمين ليس للحديث عن المشاريع فقط، ولكن للعيش فيها. كان دائماً بيت العائلة، الذي امتد ليشمل، وليصبح شيئاً آخر، ما يعني حقاً أنَّه كان يتعلّق بإيجاد الحميمية والعيش فيها. كذلك من المثير للاهتمام رؤية اللحظات المختلفة في تحوّلها. كانت السنوات التي سبقت العام 2010 سنوات من النضال إلى حدٍّ ما. لقد كانت سنوات من العنف والهشاشة، ولكن كانت هناك، أيضاً، فكرة مشروع سياسي يمكن أن ينشأ من هذا الصراع العنيف. كانت هناك طاقة ثوريّة. في مثل هذه المواقف، تقول حسناً، نحن نعيش في ظل قدر هائل من العنف، ولكن شيئاً ما يجعل المستقبل يبدو قريباً. وعندما تكون في خضمّ الصراع، تعتقد أنَّ هناك تحولاً ما سيحدث. في العقد الثاني من هذه الألفية، ابتعد المستقبل أكثر فأكثر. أعتقد أن هذا، أيضاً، مؤشّر على تحوّل عمل دار من المستوطنة إلى المخيّم. فالمخيّم هو، أيضاً، معمل لنضال أطول؛ المخيّم يعمل لمدّة مختلفة. لكنّني أعتقد أن ذلك التحوّل في جمعيّتكما كان لأسباب مختلفة، أحدها الوظيفة التي حصلت عليها ساندي في وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين (الأونروا). لقد كان ذلك مزيجاً من الخيارات المفاهيميّة والخيارات المهنيّة، ولكنّه كان، أيضاً، تحوّلاً في شكل النضال؛ بات من الواضح أنَّ هذا النوع من المقاومة المسلحة والنضال الجذري لا يعمل كما ينبغي له أن يعمل، بل إنَّ أمده كان يطول بشكل كبير.

ساندي هلال: أعتقد أن التحوّل في المخيّم حدث مع انهيار فكرة بناء الدولة. وليس فقط في فلسطين بل في العالم العربي كلّه. عندما كنّا نعمل على المستوطنات، كانت فكرة بناء الدولة حاضرة للغاية. كنّا محصورين في هذه الفكرة. ما زلت أذكر مرّةً عندما كنّا في البندقيّة وقلت لك «نعم، لم لا للجدار؟ أريد أن يكون لديّ مكان مستقلّ، فلنبنِ الجدار إن كان هذا يفصل إسرائيل عن فلسطين».

أيال وايزمان: دولة واحدة، دولتان ... .

ساندي هلال: أجل، دولة واحدة، دولتان. كنّا لا نزال نفكّر في الشكل الذي قد تبدو عليه الدولة الفلسطينيّة وكيف يمكننا تغيير هذه المستوطنات والتدخّل فيها. ولكن بعد ذلك بدأنا ندرك أنَّ الطريقة الوحيدة التي يمكننا فيها الخروج من الوضع السياسي الذي كانت فيه

فلسطين هي أن نبدأ العمل في مساحات خارج الحدود الإقليميّة مثل مخيّمات اللاجئين. لقد غيّرنا منظورَنا في اجتماع عام،ACommon Assembly ،[8] وحتّى في بساجوت؛ ما يهمّنا ليس أنَّ البرلمان[9] كان في موقعه، بل إنَّه مكّننا من العمل في الشقوق. لقد رأينا أنَّنا لن نتمكن من تحدّي الوضع الراهن إلاّ من موقع اللاجئين.

أيال وايزمان: هذا صحيح تماماً. وأعتقد أنَّ هذا هو من بعض النواحي سبب التراجع المفاجئ للمستقبل. ولهذا السبب، أيضاً، أعتقد أن خطوتكما اللاحقة كانت «جامعة في المخيم»، وهو مشروع بنية تحتيّة ليس فقط للمستقبل القريب، ولكن للمستقبل البعيد. يتشابه تسلسل المشاريع التي وصفتماها برسم دائرة، ولكلٍّ منها نقطة وصل، وكلّما ابتعدت عن نقطة الوصل، فإنّك تأخذ المركز وترسم. أعتقد أنَّها كانت سلسلة مشاريع مثيرة للاهتمام؛ حيث أصبح طرف كل مشروع عبارة عن النقطة التي تدخل فيها الإبرة للمشروع التالي. لكنكما ناضلتما ضد حالة المستقبل المتردّي هذه، وضد التحدّيات الفكرية والمعمارية للتعامل مع ذلك. هناك دائماً شيء ملحٌّ في عمارتكما المبنيّة، إن كان في شعفاط، أو الفوّار، أو في الخيمة الإسمنتيّة، ولكنَّ المستقبل الذي تتنبآن به هو مستقبل بعيد المدى.

أليساندرو بيتي: لا أنظر للأمر بالطريقة نفسها. أعتقد أنَّ ما فعلناه؛ والذي كان أكثر راديكالية وأكثر براغماتية في الوقت نفسه، هو إيجاد مواقف في الوقت الحاضر تسمح بنوع مختلف من التعايش دون أن يتشكّل لدينا الوهم بأنَّ الأشياء ستتغيّر جذرياً في المستقبل القريب. وفي هذا السياق، كانت 2011 سنة فارقةً بالنسبة لي، حيث كانت المرّة الأولى التي أشعر فيها بأنَّ هذا الوضع الذي كنا نعمل عليه؛ والذي أسميته بالمستقبل، أصبح أقرب. كانت لحظةً نادرة، عندما تشعر أنَّ التاريخ ليس معادياً جداً للطريقة التي تعيش بها أخيراً. أصبح الحديث عن المشترك مركزياً، وفجأة أصبحت كلّ الأفكار التي كنّا نعمل عليها في المخيّمات، وانهيار مشروع بناء الدولة مهمّة للجميع. وحدث تحوّل ثانٍ في صيف العام 2014، مع ما يسمّى بـ «أزمة اللاجئين»، عندما أصبحت حالة اللجوء مركزيّة للنقاش العام في أوروبا، بحيث اعتبرت تهديداً للدول القوميّة ولتجانسها الاجتماعيّ الوهمي. أدّت هذه التغييرات إلى وضع عملنا على مدى السنوات العشر الأخيرة في فلسطين في طليعة النضال. انتقل إنهاء الاستعمار من الأراضي المحتلّة إلى الحاضرة الاستعمارية. أنا أقف ضدّ هذا الخطاب حول المستقبل لأنّنا وجدنا طريقة للتفكير في التحوّل السياسي هي أكثر فاعليّة من الماركسية المسيانية. لقد فهمنا إنهاء الاستعمار على أنّه نضال لا نهاية له وهو نضال يحدث الآن وهنا. ثمّة أجزاء من المستقبل في الحاضر.

فأنت تتخيّل شيئاً ما وتعيشه في الوقت نفسه. إنّه لمن دواعي التحرّر أن نفهم التحوّل السياسي دون الوقوع في فخّ فكرة أنّه في يوم من الأيام سيتمّ حلّ كلّ شيء، وأنّنا سنعيش جميعاً في ثبات ونبات. العمل الذي كنّا نقوم به في مخيّمات اللاجئين هو المستقبل بالفعل؛ إنّه شيء يتعامل مع الأشخاص الذين يعيشون خارج الدولة القومية. إنَّ العمل ضمن وضدّ

شرط المؤقت الدائم يعني معارضة جبهتَين في الوقت نفسه: إدامة الوضع الراهن الذي يفرض على الناس حالة عدم استقرار لا تُحتمل، والتطبيع، أي محاولة إعادة كلّ كِسَر الدولة القوميّة إلى صندوقها. عندما يتحوّل العمل من التخمين إلى الإدراك، فهو يبين أنَّ الطريق الثالث هو أمرٌ ممكنٌ بالفعل. والأهمّ من ذلك، كذلك نبدأ برؤية كيف تترابط النضالات المختلفة ببعضها البعض، ولا تقع حبيسةَ منطق المرجعيّة الذاتيّة، مع النجاح العالمي الذي تحقّقه حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS)؛ إننا نرى فلسطين تصبح معملَ مقاومة، وليس فقط ضد العنف الإسرائيلي.

لو نظرنا إلى جمعيّتنا، يتّضح تماماً أنَّ البيت أصبح موقعاً للنضال من أجل الحرية في لحظة الاضطهاد والطوارئ.

هناك عملان من أعمالنا المعمارية والفنية يظهران، بشكل ملموس، كيف يمكن تحويل مساحة المنزل إلى مساحة جماعية للعمل الاجتماعي والسياسي.

صورة الساحة في مخيّم الفوار

في العام 2006، تمّ تعيين ساندي رئيسةً لوحدة بحثيّة في الأونروا في الضفّة الغربيّة للعمل في مخيم الفوّار للّاجئين في فلسطين، حيث قادت البحث ومنصّة التصميم التشاركي التي استمرت لأكثر من ثماني سنوات (2006-2014). كان أحد أهمّ التدخّلات لهذه المنصة هو إنشاء مساحات جماعية داخل المخيّم. وقد نشأ تحدٍّ كبير يتمثل بتحديد مفهوم «العام» و«الخاص» داخل المخيّم. فما يتمّ تعريفه على أنّه خاص ليس خاصاً في الحقيقة، لأنَّ المنازل لا يمكن تسجيلها كملكيّة خاصّة، وما يتمّ تعريفه على أنّه عامّ ليس عاماً بالفعل لأنَّه لا الحكومة المضيفة ولا السكان يعتبرونه كذلك. إن لم تكن هناك سلطة عامة، فمن سيكون مسؤولاً عن صيانة المساحات الجماعيّة؟ وما نوع التشكيل المكاني المطلوب للمساحة لكي تدار ذاتياً؟ من سيقرّر كيف يمكن استخدامها ومن يمكنه استخدامها؟ إضافة إلى ذلك، هل يُسمح للنساء بالتجمّع في هذه المساحة في بيئة محافظة؟

خلال الاجتماعات التشاركية أثناء عمليّة التصميم، سألت ساندي النساء في الحيّ عمّا إن كان بإمكانهنّ التجمع لشرب القهوة أو الشاي في الساحة. أجابت إحدى النساء بقوّة ولكن بمزاح: «من العار أن تغادر المرأة منزلها دون سبب مناسب. أيُّ امرأة ستترك منزلها وأطفالها لتناول القهوة والشاي في الخارج؟ نحن بالكاد نستطيع التعامل مع أزواجنا، فما بالك لو خرجنا لشرب الشاي والقهوة في الساحة!».

بعد بضعة أشهر، وعندما توجّهت النقاشات نحو الشكل المحتمل لهذه الساحة، قرّر الأهالي أن تكون الساحة محاطة بجدران. كان الكثير منهم مقتنعين بأنَّ الساحة لن تصلُح بدون أبواب

وأقفال وحارس. أكّد الجيران أنّهم لا يريدون أن تكون واجهات منازلهم جزءاً من الساحة لأنّهم شعروا أنّهم سيفقدون الخصوصيّة، وأنّه من خلال تسوير الساحة، سيكون على كلّ من يريد أن يكون بداخلها أن يدخل بشكل متعمّد، وبالتالي سيشعر بقدر أكبر من المسؤوليّة في احترامها والعناية بها.

أوضح أبو عطا، وهو أحد الجيران: «أعتقد أن إغلاق الساحة سيكون خطوة مهمّة وضروريّة للغاية. تخيّلوا لو قام الأطفال بركل الكرة عبر نوافذ أحد الجيران!».

وهكذا، أصبحت هناك ساحة محاطة بأربعة جدران. فجأة، تذكّرت تلك اللحظة الأولى في تاريخ المخيّم عندما استبدل اللاجئون الخيم بمنزل بلا سقف. كان ذلك حلاً وسطاً جيداً: كانت الساحة مفتوحة ويمكن الوصول إليها دائماً، ولكنّها مسوّرة وليست عامّة ولا خاصّة بالكامل. لا توجد أبواب مقفلة ولا حرّاس، ولكنَّ الجدران حوّلت الساحة إلى غرفة معيشة بدون سقف، سرعان ما أصبحت مكاناً مثالياً لحفلات الزفاف، والتعازي وتجمّعات النساء. وسرعان ما بدأ المشكّكون في فهم الغرض من المساحة.10

صورة لغرفة المعيشة في بودن

على بعد أميال في بودن شمال السويد، يكافح اللاجئون القادمون حديثاً من سوريّا ليفهموا كيف يعيشون في بيئة جديدة تماماً. في العام 2017، كلّفت الوكالة العامّة السويديّة للفنون ساندي بالقيام بتدخّل من أجل المجتمعات المهمّشة في بودن، المدينة التي أصبحت واحدة من الأماكن الرئيسية لاستضافة اللاجئين في السويد خلال «أزمة اللاجئين في أوروبا». وقد قال اللاجئون الذين التقت بهم ساندي في بودن أنّهم أدركوا أنَّ السويد لم تكن كما حلموا. فقد وجدوا أنفسَهم في هذا المكان المظلم البعيد، في درجة حرارة تصل إلى 30 درجة مئوية تحت الصفر، ووحيدين تماماً. وستعمّ حالة من السلبيّة كما لو أنّهم فقدوا قدرتهم السياسيّة، التي كانت سابقاً قدرات قويّة جداً.

من خلال تصوّر أنفسهم في مكان آخر، فإنَّهم يلومون المدينة ويقنعون أنفسهم أنَّ بودن لم تكن وجهتَهم النهائيّة. كانت ساندي تبحث بشدّة عن شخص كان يخطّط للبقاء في بودن. إن كان الجميع يتطلّع إلى مغادرة بودن، فمن هم «المواطنون الجدد» في هذه المدينة؟ وفوجئت بوجود ياسمين محمود وإبراهيم محمّد حاج عبد الله. زارت منزلهما للمرّة الأولى مع جوانا زويجا ومارتي مانين، وهما قيّمان من الوكالة العامّة السويديّة للفنون. استقبلهم اللاجئان السوريّان الشابّان بدفء وكرم عظيمَين. كان شعوراً شبه سريالي. ولعب ياسمين وإبراهيم دور المضيفين. كانا يستضيفان ممثّلين عن الدولة السويدية في غرفة المعيشة الصغيرة الخاصة بهما، رافضين قبول الدور المنوط بهم كضيوف أبديّين.

كان اللقاء مع ياسمين وإبراهيم بداية لمشروع غرفة المعيشة الأول.11 اعتبرت شركة الإسكان البلدية (BodenBo) ياسمين وإبراهيم مضيفَين، وقدّمت لهما شقّة في الطابق الأرضي في البيت الأصفر؛ وهو بناء خاصّ باللاجئين، لإنشاء غرفة معيشة جماعيّة دائمة، حيث يمكن للاّجئين الآخرين ممارسة حقّهم في الاستضافة، بدل أن يكونوا زائرين فقط. كان التحدي يتمثّل في إعطاء بُعد عام للمجال الخاص.

غرفة المعيشة هي المكان الذي يفتح فيه المنزل الخاص نفسه للضيف والأجنبي والغريب. هي بمثابة مساحة انتقالية وممر بين المنزلي والعام. تعتبر غرفة المعيشة في الثقافة العربيّة مساحة جاهزة دائماً لاستقبال ضيوف غير متوقَّعين؛ وهي الجزء الأكثر زخرفةً في المنزل، ولا يوجد فيها فوضى أبداً وغالباً، ما توجد فيها فواكه ومكسّرات وقهوة سوداء جاهزة للتقديم في جميع الأوقات. قد تكون المساحة الأقلّ استخداماً، ولكنّها لا تزال الأكثر رمزيّة، والتي يتمّ الاعتناء بها وترتيبها. ينظر مجتمع اللاجئين إلى بودن على أنّها مكان انتقالي إلى حدٍّ كبير. ولكنَّ ياسمين وعائلتها يريدون البقاء. من خلال المطالبة بالحق في استضافة أشخاص متنوّعين والترحيب بهم في منزلهم؛ والآن في البيت الأصفر، تتيح لهم غرفة المعيشة الجمع بين حياتهم المفقودة في سوريا وحياتهم الجديدة في السويد. منذ افتتاح أوّل مضافة/غرفة معيشة في بودن، قمنا بافتتاح غرف معيشة أخرى في متحف فانابي لجعل طالبي اللجوء المرفوضين مرئيين أكثر ولإسماع قصصهم. أصبحت هذه الغرف المؤقتة معارضَ فنّية في أوروبا وفلسطين.

عندما غادرنا فلسطين، كنّا خائفين من فقدان وطننا وقوّتنا في الاستضافة بالطريقة التي مارسناها في دار. أكثر ما شجعنا هو القدرة على التفكير وفهم حياتنا وجمعيّتنا في هذا المكان البعيد في شمال السويد. أدركنا أنّه خلال سنوات ممارستنا الطويلة في فلسطين، قمنا بتطوير جمعية لتحويل مساحة المنزل الخاصة إلى مساحة جماعيّة ومشتركة. يمارس العديد من الأشخاص حقّ الاستضافة دون إدراك القوّة التي تحملها.

لحين كتابة هذا المقال، لا يزال الوباء بعيداً كلَّ البعد عن النهاية؛ ما يبدو واضحاً، في هذه اللحظة، هو ضرورة إعادة بناء المساحات المدنيّة الجديدة من المساحة الأنثوية الحريصة في المنزل، وليس من المساحة العامة الحداثيّة المهيمنة الأبوية والمتجانسة. أمّا المهمة التي تنتظرنا، فهي طرح كيفيّة إنشاء وإعادة صياغة تلك المساحات في زمن القيود المفروضة على الحركة وفي ظل سياسات الإغلاق.

ساندي هلال وأليساندرو بيتي: قاما بتأسيس ممارسة فنية قائمة على البحث والمشاريع ذات طموح نظري، وتتّسم بانخراط عملي في النضال من أجل العدالة والمساواة. قام الفنّانان بتأسيس «جامعة في المخيم»، وهو برنامج تعليمي في مخيّم الدهيشة للّاجئين في مدينة بيت لحم، ويهدف إلى تجاوز الهياكل التعليمية التقليديّة من خلال إيجاد مساحة للإنتاج المعرفي النقدي والمتأصّل، والمرتبط بالتحوّلات الأوسع ودمقرطة المجتمع.

في العام 2007، قاما مع إيال وايزمان بتأسيس دار (جمعية دار للتخطيط المعماري والفني) في بيت ساحور، فلسطين، بهدف المزج بين استوديو معماري وإقامة فنية قادرة على جمع المعماريّين، والفنّانين، والنشطاء، وخبراء التطوير الحضري للعمل بشكل جماعي على مواضيع في السياسة والعمارة. أمّا عملهم الأخير، المؤقت الدائم، فهو عبارة عن كتاب، وكتالوج، وأرشيف يغطي 15 سنة من الأبحاث، والتجريب، والإبداع الذي يتّسم بالتوتر الداخلي والرؤية الدافعة نحو إعادة النظر في ذاتها من خلال العمل الجماعي. وصدر كتاب المؤقّت الدائم خلال المعرض الاستعادي الذي يحمل الاسم نفسه، والذي تم افتتاحه في رواق الفنّ التابع لجامعة نيويورك أبو ظبي سنة 2018، وفي متحف فانابي في أيندهوفن سنة 2019.

Endnotes

1 www.decolonizing.ps

2 خارطة الطريق هي عمل فني قام بإنتاجه (multiplicity) في العام 2003 حول «مساميّة» أو قابليّة الدخول إلى الأراضي حسب الهوية الوطنية ونظام الحركة الذي تتحكم به جوازات السفر.

3 الأرخبيل والمعازل (Arcipelaghi e Enclav)، هو كتاب من تأليف أليساندرو بيتي عن النموذج المكاني الناشئ كنظام تحكم (برونو مونيادوري 2007).

4 آن لورا ستولر هي أستاذة متميزة (Willy Brandt Distin-guished University Professor) في الأنثروبولوجيا والدراسات التاريخية في جامعة نيوسكول للأبحاث الاجتماعية. عملت حوالي ثلاثين عاماً في سياسات المعرفة، والحكم الاستعماري، ونظريّات المعرفة العرقية، والسياسة الجنسية للإمبراطورية، وإثنوغرافيا الأرشيف.

5 شاعر وناقد فنّي ومؤرّخ فنّي نيجيري المولد واجه قانون الفن الأوروبي.

6 يتنبّأ المشروع بإعادة استخدام وتخريب المستوطنات الإسرائيلية بعد إخلائها.

7 «المشاع» يختلف عن «العام». يتوسط جهاز الدولة في وجود العام، في حين أن المشاع موجود خارج مؤسّسات الدولة. العام هو مساحة يتمّ منحها للناس من خلال هياكل السلطة، في حين أنَّ المشاع هو مساحة تمَّ إنشاؤها من خلال تفاعل الناس. يمكن أن توجد الأماكن العامة بدون أشخاص. أمّا المشاع فلا يوجد إلّا إذا كان الناس ينتجونه باستمرار.

8 عمل فني تركيبي يعيد استخدام البرلمان الفلسطيني في اجتماع عام، منطقة خارج الحدود الإقليمية قادرة على تمثيل جميع الفلسطينيّين: الذين يعيشون في إسرائيل وتحت احتلالها وفي المنفى.

9 مبنى المجلس التشريعي الفلسطيني، أي البرلمان الفلسطيني، هو عبارة عن موقع بناء وعن أثر في الوقت نفسه.

10 “Abu Ata, Architect: a play in four acts” by Sandi Hilal , in “Architecture is All Over” ed. Marrikka Trotter and Esther Choi, (2016)

11 /http://www.decolonizing.ps/site/boden

من الديستوبيا إلى اليوتوبيا: تخيّل مستقبل راديكالي

بقلم: يارا هواري

اعتقـد الكثـيرون أنَّ جائحـة كوفيـد-19، والخَـراب الـذي وجـد العـالم نفسـه فيـه، تشـكّل مصـدراً عظيـماً للمسـاواة-فهو فـيروس لا يعـرف لونـاً، أو معتقـداً، أو طبقـة. غـير أنَّ الإحصائيّـات تبـيّن بوضـوح عـدم صحّـة هـذا الاعتقـاد. في الولايـات المتّحـدة، يمـوت الأميركيّـون مـن أصـول أفريقيـة ولاتينيّـة بمعـدّلات غير متكافئـة، وكذلـك الأمـر في المملكـة المتحـدة، حيـث حـذّرت الخدمـات الصحيّـة الوطنيّـة (NHS) مـن أنَّ السـود، والآسـيويّين والأقليّـات العرقيّـة الأخـرى هـي في الغالـب أكـثر تأثّـراً بالفـيروس.[1] مـن الواضـح أنَّ الفـيروس يسـلّط الضـوء عـلى بنـى وأنظمـة القـوّة داخـل المجتمـع، التـي تمنـح امتيـازات لبعـض الحيـوات دون أخـرى. عـلاوةً عـلى ذلـك، وكـما تذكّرنـا نعومـي كلايـن في كتابهـا ***Shock Doctrine*** (عقيـدة الصدمـة)، كثـيراً مـا تقـوم الـشركات والبنـوك باسـتغلال أزمـات مثـل هـذه، فيـما تسـمّيه كلايـن «رأسـماليّة الكـوارث».[2] فالحكومـات في كلّ أنحـاء العـالم تعطـي الأولويّـة للقطاعَـين الخـاصّ والمـصرفيّ مقابـل القطـاع العـام، والطبقـة العاملـة والأقليّـات الإثنيـة. كذلـك الأمـر، تحـاول الـشركات جاهـدةً تحقيـق الأربـاح مـن الجائحـة، مـن أحـدث التصميـمات للكمّامـات إلى «ضروريّـات» الحجـر.

عبثيٌّ هـذا العـالم الـذي نعيـش فيـه اليـوم، كثـيرون يشـبّهونه بحلقـة مـن المسلسـل التلفزيـوني *Black Mirror* (المـرآة السـوداء)، الـذي يعـرض نقـداً للمجتمـع الحديـث مـن خـلال عـرض حقائـق ديسـتوبية (تعكـس واقعـاً مريـراً) وعـوالم متوازيـة. في بدايـة الإغلاقـات في أوائـل السـنة، علّـق الفلسـطينيّون قائلـين إنَّ العـالم فهـم الآن مـا يعانيـه الكثـيرون منهـم (مـن الفلسـطينيين)، وبشـكل خـاص في الضفّـة الغربيّـة وغـزة، ومنـع التجـول، وإغـلاق الأماكـن العامّـة، ومنـع أو إعاقـة الحركـة، والقلـق المسـتمرّ بسـبب حالـة عـدم اليقـين الدائمـة التـي هـي سـمةُ حيـاة الفلسـطينيّين. إنَّ الواقـع الجديـد الديسـتوبي الـذي وجـد العـالم نفسـه فيـه، يتضمّـن الكثـير مـن سـمات الحيـاة اليوميّـة التـي يعـاني منهـا الكثـير مـن الفلسـطينيّين بسـبب مـا يقـارب مـن القـرن مـن الغـزو الاسـتعماري-الاسـتيطاني المستمرّ.

واليـوم، تخلّى المـشروع الوطنـي الفلسـطيني عـن خطابـه المعـادي للاسـتعمار، وتحـوّل إلى نظـام لفـرض النيوليبراليـة، يمنـح الامتيـازات للنخـب السياسـيّة والاقتصاديّـة حتّـى في أوقـات الأزمـات العالميّـة. وفي تلـك الأثنـاء، يواصـل النظـام الإسرائيـلي الاسـتعماري الاسـتيطاني التوسّـع في الأرض الفلسـطينيّة، ويواصـل تشريـد الفلسـطينيين وسـجنهم، سـكّان البـلاد الأصليّـين. ومـع ذلـك، وبينـما يسـتغلّ الأقويـاء أوضاعـاً مثـل هـذه، فهـي قـد تشـكّل فرصـة لتخيّـل نظـام عالمـي وجهـاز سـياسي مختلفَـين. تبحـث هـذه الورقـة كيـف يمكـن للجائحـة وللواقـع الراهـن المختـلّ أن يشـكّلا أرضـاً خصبـة لتخيّـل هـذا النـوع مـن العـالم، وبخاصـة في فلسـطين، حيـث مـن الـضروريّ أكـثر مـن أيّ وقـت مـضى، الابتعـاد عـن الواقـع الديسـتوبي، وتخيّـل مسـتقبل راديـكالي لفلسـطين.

***

تـأتي كلمـة ديسـتوبيا (dystopia) مـن اللغـة اليونانيـة وتعنـي حرفيـاً «مـكان سـيئ». أمّـا في الأدب والثقافـة الشـعبيّة، فهـو نـوع أدبيّ (يسـمّى أدب المدينـة الفاسـدة) يسـلّط الضـوء عـلى بنـى القـوة والظلـم في المجتمـع. هنـاك أعـمال عـدّة ترصـد مجتمعـات مليئـة بالطغيـان والعنـف، ولكنّهـا تحتفـظ ببعـض خصائـص العـالم «الحقيقـي». إنَّ الاحتفـاظ ببعـض هـذه الخصائـص يجعلهـا مجـازاً نقديّـاً مؤثّـراً، مـا يـترك القارئـين أو المشـاهدين يتسـاءلون مـا إن كان مـن الممكـن أن يحـدث هـذا لهـم.

في الأدب، جـاء أدب المدينـة الفاسـدة ردّاً عـلى المدينـة الفاضلـة، التـي ترسـم الفـردوس أو المجتمـع المثـالي. وأشـهر هـذه الأعـمال الأدبيّـة هـي روايـة 1984 لجـورج أورويـل (1949)، وروايـة ألـدوس هكسـلي (Brave New World) (عـالم جديـد شـجاع) (1932)، وروايـة مارغريـت أتـوود (The Handmaid's Tale) (حكايـة الخادمـة) (1985).[3] أمّـا الأخـيرة، وهـي واسـعة الانتشـار وتُـدرّس في مناهـج الكثـير مـن المـدارس، فقـد أصبحـت مسلسـلاً تلفزيونيّـاً قبـل بضـع سـنوات حقّـق شـعبيّة واسـعة جـداً. مـا كان بالإمـكان أن يكـون توقيـت المسلسـل أفضـل: فقـد اعتُـبر مسلسـل «حكايـة

خادمـة»، ونقـده للأبويّـة وللشـعبويّة الزاحفـة، انعكاسـاً سـينمائياً لأمـيركا ترامـب. بالفعـل، فـإنَّ أفضـل الأعـمال الديسـتوبية وأكثرهـا تأثـيراً هـي تلـك التـي تكـون مجتمعاتهـا معقولـة وليسـت شـديدة البعـد عـن الواقـع.

في مجموعـة قصصيـة صـدرت، مؤخـراً، تدعـى (فلسـطين100+: قصـص مـن قـرن بعـد النكبـة) (Palestine +100: Stories From a Century After the Nakba)،[4] قـام كتّـاب فلسـطينيون بجمـع عـوالم الخيـال العلمـي والديسـتوبيا لتخيّـل فلسـطين بعـد مائـة عـام مـن التطهـير العرقـيّ الـذي وقـع سـنة 1948. وتـشرح المحـرّرة بسـمة غلاييني في مقدّمتهـا، أنَّ الخيـال العلمـيّ ليـس شـائعاً في الأدب الفلسـطيني، وتفسّـر قائلـة:

«... إنّـه تـرفٌ لم يشـعر الفلسـطينيّون أنَّ بإمكانهـم الهـرب إليـه. فالواقـع الديسـتوبي (والمـاضي الأليـم) يشـدّدان قبضتهـما عـلى خيـال الكتّـاب الفلسـطينيين، ويمنعانهـم مـن أن يغامـروا بتخيّـل مسـتقبل محتمـل».[5]

ولا يعتـبر الأمـر ترفـاً فقـط في هـذا النـوع الأدبي بعينـه، بـل إنَّ تخيـل مسـتقبل يبـدو وكأنـه رفاهيـة، بينـما يتـمّ اسـتهلاك قـدر كبـير مـن الطاقـة في الحـاضر.

ومـع ذلـك، توفّـر هـذه المجموعـة انسـلاخاً عـن الحـاضر مـن خـلال سلسـلة مـن الحكايـات المثـيرة التـي تـدور في المسـتقبل غـير البعيـد جـداً - بعـد أقـلّ مـن 30 سـنة مـن الآن. وهـي تسـتلهم مـن مظاهـر الاضطهـاد الحاليّـة لخلـق تلـك العـوالم، مـن قصّـة أحمـد مسـعود (Application 39) (تطبيـق 39)، حيـث يتـمّ ربـط الولايـات الفلسـطينيّة بأنفـاق تحـت الأرض تتمتّـع بتكنولوجيـا رفيعة، إلى قصـة سـمير اليوسـف (The Association) (الجمعيّـة أو الرابطـة)، حيـث يُعتـبر المؤرّخـون أعـداء للدولـة لأنّهـم يشـكّلون تحدّيـاً أمـام فقـدان الذاكـرة الجماعـي المفـروض. لكـنَّ القصـة الافتتاحيّـة لسـليم حـداد بعنـوان (Song of the Birds) (أغنيـة الطيـور)، هـي التـي بالفعـل تطمـس الخـطّ الفاصـل بـين الخيـال العلمـي وبـين الواقـع الفاسـد. يستكشـف حـدّاد عالمـاً «لا يكـون فيـه المـوت موتـاً بالفعـل»، مـن خـلال البطلـة آيـة، التـي يزورهـا أخوهـا زيـاد، الـذي مـات منتحـراً قبـل ذلـك ببضـع سـنوات. يقـول لهـا أخوهـا، «نحـن مجـرّد جيـل آخـر مسـجون بحنـين والدينـا» محـاولاً إقناعهـا بـأنَّ عالمهـا ليـس حقيقيـاً.[6]

وتسـتخلص غلاييني أنَّ الخيـال العلمـي لا يشـكّل «... تغيـيراً حـاداً جـداً للكتّـاب الفلسـطينيين، وبخاصـة للمقيمـين منهـم داخـل فلسـطين. فالحيـاة اليوميّـة بالنسـبة لهـم، هـي شـكل مـن أشـكال الديسـتوبيا».[7] فالديسـتوبيا هـي عـالم يتـمّ فيـه التجـرّد مـن الإنسـانيّة، وفي فلسـطين، حيـث تجـري عمليـة محـو متواصلـة تنكـر عـلى الفلسـطينيين حتّـى أبسـط الحقـوق في حيـاة كريمـة، هـذا هـو الواقـع إلى حـدٍّ بعيـد.

***

غالباً ما تحرّف الأعمال الأدبية الديستوبية مفهوم الزمن، بحيث تشير إلى نقطة ما في التاريخ انقلب عندها العالم الاعتياديّ رأساً على عقب. بالنسبة للفلسطينيّين، انقلب العالم رأساً على عقب سنة 1948 خلال النكبة، عندما أزيلت فلسطين وشعبها من الخارطة ومن الوعي العالمي، نتيجةً للغزو الصهيوني الاستعماري الاستيطاني وإقامة دولة إسرائيل. إلاّ أنَّ النكبة لم تنتهِ سنة 1948، بل إنَّها عملية متواصلة تعكس ما وصفه الباحث باتريك وولف بأنّه، «بنية وليس حدثاً».[8] فالتشكيلات الاستعماريّة الاستيطانيّة عموماً يجب فهمها من ناحية عدم اكتمالها، والتشريد، ومحاولات المحو المستمرّة للشعوب الأصلية. ويتمّ التعبير عن هذه العملية وفهمها على أنّها النكبة المستمرة، التي تتمظهر في التشريد، والطرد، وسرقة الأرض، والسجن، والكثير من الاعتداءات العنيفة الأخرى.

في مقالته «Out of Place, Out of Time» (خارج المكان، خارج الزمان)، يشرح إلياس صنبر النكبة ليس فقط من حيث إنّها خروج من المكان، بل خروج من الزمان أيضاً:

«بمغادرتهم المكان، فإن الفلسطينيّين الذين اتّفق العالم بأسره على أنّهم «غير موجودين»، غادروا الزمان أيضاً. جرى إنكار تاريخهم وماضيهم. تمّ حظر تطلّعاتهم ومستقبلهم. لذا، وجدوا أنفسهم عالقين في فخّ البعد المؤقت، ولمدّة نصف قرن عاشوا في عالم النسيان، فتوصّلوا إلى علاقة شديدة الخصوصيّة مع مفهوم المدة. وبما أنَّ الحاضر ممنوع عليهم، فهم سيحتلّون حيّزاً زمانياً يتكوّن من ماضٍ تحفظه ذاكرة مصابة بالجنون، ومن مستقبل يحلم به ويأمل منه أن يستعيد الوقت. أمّا هاجس الأماكن الذي يسكنهم، فيترافق مع رغبة محمومة باستعادة الحياة اليوميّة الطبيعيّة.[9]

هذا البعد المؤقّت هو حالة من اللاهنا واللاهناك، التي تصرّ على أن لا تاريخَ ولا مستقبلَ للفلسطينيّين. وفي محاولة لغزو المكان والزمان الأصليَّين، تستبعد أنظمة الاستعمار الاستيطاني الطبيعة المتواصلة للعمليّة الاستعماريّة بوصفها متواصلة، وتواصل عرقلة الزمان الأصلي. وكجزء من هذه العمليّة، فقد تمّ محو وطمس التاريخ والتراث الفلسطينيَّين، وخلق واقع زماني جديد، و«نقطة تركيز لما يمكن أن يدعى الزمن الفلسطيني».[10] بالفعل، تشكّل النكبة نقطة زمنيّة تربط جميع الفلسطينيّين-إن كانوا في المنفى لاجئين أو مواطنين اسميّين في إسرائيل أو قابعين تحت الحكم العسكري في أراضي -1967 إلى نقطة محدّدة في التاريخ. هذه النقطة في التاريخ هي التي يتمحور حولها الزمن الفلسطيني، والتي أصبحت نقطة مرجعيّة لجميع الأحداث الأخرى في السرديّة الفلسطينيّة. هي تعمل كحدود مرسومة،[11] فكثيراً ما يصف الفلسطينيّون الأحداث في ذاكرتهم وحكاياتهم الجماعيّة قبل النكبة أو بعدها. كذلك الأمر، في الأدب الديستوبي، غالباً ما تتمّ الإشارة بغموض إلى حدث يشكّل نقطة تحوّل من العالم «الطبيعي» إلى العالم المريرّ.

إن أحد الجوانب الرئيسية في الواقع الفلسطيني الخرب هو المأساة المتواصلة زمنياً، التي لا تنتهي. وكما تفسّر الأمر الدارسة روزماري الصايغ:

«يجب فهم المعاناة التي تسبّبت بها النكبة من حيث الحالة المتواصلة من فقدان الحق ... فالنكبة ليست مجرّد ذكرى صادمة، بل إنها تولّد بشكلٍ مستمرٍّ كوارث جديدة، وتُفرغ الحاضر من أيّ إحساس بالأمن، وتُظلم المستقبل برمّته».[12]

هذا «الظلام» ليس مصادفة، بل إنّه محاولة متعمّدة للَجم مقاومة الأصليين. كتب فرانز فانون حول الاستعمار الفرنسي للجزائر أنَّه «طالما تطوّر على افتراض أنّه باقٍ إلى الأبد»، مشيراً إلى أنّ «المباني التي تمّ تشييدها، ومرافق الميناء، والمطارات وحظر اللغة العربية» كلّها تعطي الانطباع أنّه من المستحيل وضع حدّ للزمان الاستعماري. بالفعل، «كلّ تعبير عن الحضور الفرنسي عبّر عن تجذّر دائم في الوقت وفي المستقبل الجزائريَّين، ويمكن قراءته كرمزٍ للاضطهاد إلى أجلٍ غير مسمّى». إنَّ تخيّل الذي سوف يأتي ما يبدو أنَّه حالة وجود دائم أو ركود مطبَّع ليس بالأمر اليسير.

في ظلِّ الواقع المرير في فلسطين، تجري مراقبة كلّ جانب من جوانب الحياة الفلسطينية تقريباً والتحكّم فيها. ويتراوح هذا بين بقعة جغرافيّة وأخرى. على سبيل المثال، فالقيود مفروضة بشكلٍ أكثر حدّة في غزّة منها في الضفّة الغربيّة، وهي أقلّ حدّةً بالنسبة لفلسطينيّي الأراضي المحتلة سنة 1948. ولكن، هذا التباين في درجات القمع هو جزء من النظام الديستوبي الذي جرى من خلاله تجريد الفلسطينيين من إنسانيّتهم إلى درجة أنَّ جودةَ الحياة والامتيازات باتت تُقاس حسب قلّة عدد الانتهاكات لحقوقهم الأساسيّة.

***

وفي ممارسة معرفيّة تهدف إلى الانعتاق المؤقّت من الواقع، يلجأ الكثير من الفلسطينيّين إلى الحنين إلى الماضي، أو «النوستالجيا» للتعامل مع الحاضر. وقد يكون من المناسب هنا وضع تعريف للمصطلح. فأصل كلمة «نوستالجيا» هو كلمتان يونانيّتان: «نوستوس»، وتعني «العودة إلى البيت»، و«ألجوس»، وتعني الشوق. وقد وُضع هذا المصطلح في القرن السابع عشر، حين اعتبرت النوستالجيا حالة مرضيّة يمكن علاجها. ولكن مع حلول القرن 21، اعتُبرت «حالة حديثة غير قابلة للعلاج»،[13] حيث يحلم الناس بالماضي. وبشكل شاعري، فسّرت الدارسة سفتلانا بويم الحالة بأنّها «الاشتياق إلى بيت لم يعد موجوداً، أو لم يكن موجوداً قط».[14] وكثيراً ما تنظر الأجيال الجديدة إلى هذه الحالة بازدراء. زياد في قصّة سليم حداد القصيرة في كتاب فلسطين100+، مثلاً، يصف بمرارة كيف كان سجينَ حالة النوستالجيا لدى والديه، ما يعكس فهماً مشتركاً لهذا الشعور كعاطفة مشلولة.

يقول فوّاز تركي، الكاتب الفلسطيني الذي عاصر النكبة، عن الذاكرة النوستالجية لفلسطين، التي تكاد تكون لاإرادية:

«دائماً تعود، للماضي، كأنّه كان ألماً، ألم من مرض لم يكن المرء يدرك أنّه مصاب به. مثل رائحة التين الناضج في السوق، التي تنقلني إلى لحظة فرحة تحت شجرة التين الكبيرة في الحديقة الخلفيّة لبيتنا في حيفا. مثل طعم ملح البحر في فمي وأنا أسبح في المحيط الهندي الذي يعيدني إلى البحر الأبيض المتوسط، بحرنا نحن القديم».[15]

إنّ تأمّلات تركي في فلسطين هي مرّة مثل «ملح البحر»، وحلوة مثل «التين الناضج»، وهي تلخّص بشكل شاعريّ هذه الطبيعة الثنائيّة لمشاعر النوستالجيا. وبصرف النظر عن معانيها السلبيّة، فإنّ النوستالجيا هي، إلى درجة كبيرة، آليّة للتعامل مع الحاضر، وبالنسبة للفلسطينيّين، فإنّ خلق مدينة فاضلة من ذكريات الماضي يشكّل طريقة فعّالة للإبحار في الحاضر الديستوبي. كما أنّ النوستالجيا مفيدة لجمع جزء ضخم من الذاكرة الفرديّة والجماعيّة لفلسطين قبل النكبة. ويظهر هذا بوضوح في الأدب الفلسطيني الذي صدر في العقود التي أعقبت سنة 1948، والذي باتت النوستالجيا «هي السمة الأهمّ فيه».[16]

وبينما قد تكون النوستالجيا مدمّرة، لكن يمكنها أن تلعب دوراً في تمكين الناس الذين يواصلون خوض تجربة الفقدان والتشرد. فالنوستالجيا هي طريقة لحفظ معرفة الماضي رغم المحاولات المستميتة لنَفيه. ورغم أنّ النوستالجيا تقفز في كثير من الأحيان عن الجوانب الأقلّ جاذبية في الماضي، إلا أنّها في الوقت نفسه تلقي الضوء على تلك الجوانب الغائبة من الحاضر. وعلى هذا النحو، هو شعور لا يعترف بالتسلسل الزمني، بل إنّه قد يشكّل وسيلة للطعن في المفهوم الحديث للوقت، وقت التاريخ والتقدّم».[17]

وبعيداً عن هذه الحدود التقليديّة للزمان، فإنّ النوستالجيا تضع فلسطين في مزاج غير واقعيّ «لما كان يمكن أن يكون». ترى الأكاديمية لينا الجيّوسي أنّ ذاكرة وشهادات الفلسطينيّين كثيراً ما تدمج صيغة الماضي بصيغة الافتراض أو الاحتمال، أي الصيغة التي تُستخدم للتحدّث عن الأمور غير الواقعيّة، أي عن شيء لم يحدث بالفعل، ولا هو حالة شَرْطيّة. ويمكن استخدام هذه الصيغة أيضاً للتعبير عن نتائج مرغوبة أو غير مرغوبة. وتصف الجيّوسي استخدام هذه الصيغة على أنّه «مجازٌ بنيويّ يرتبط مباشرة باللحظة الآن وهنا؛ إلى معرفة الآن ما كانت ستصل إليه الأمور، وعدم معرفة آنذاك ما ستصل إليه الأمور؛ هذه الصيغة ضمن صيغة الماضي: المستقبل الماضي».[18] بكلماتٍ أخرى، هذا ليس مجرّد تعبير عن ماض يتمّ التعبير عنه بصيغة سياق اليوم الحاضر، بل هو، أيضاً، تعبير عن الماضي الذي لا يزال يجد طريقه إلى الحاضر، وكأنّ فلسطين نفسها هي في صيغة الافتراض، أو في صيغة «كأنّ»، حيث تتغلّب على الواقع اليومي الذاكرةُ المتوارَثة لماضٍ أكثر أهميّة.

وإضافة إلى النوستالجيا الزمانية، يمكن للنوستالجيا أن تكون مكانيّة. وهذان التعبيران عن فكرة النوستالجيا لا يلغي الواحد منهما الآخر، بل أنّهما كثيراً ما يتقاطعان في الذاكرة الجمعيّة وفي سرديّة الفلسطينيّين. فالعودة إلى فلسطين قبل العام 1948 هي بالنسبة للكثيرين عودة إلى الريف، حيث إنّ فلسطين كانت في غالبيّتها مجتمعاً زراعيّاً. ويظهر هذا المثال جيّداً لدى المحامي والكاتب الفلسطيني رجا شحادة، الذي كتب عن النوستالجيا في كتابه «سرحات فلسطينية: ملاحظات عن مشهد متلاشٍ (2010).[19] يتحدّث شحادة عن مشاويره في تلال الضفّة الغربيّة، ومن خلال حكايات وطرائف، يرصد التغييرات الكبيرة في المشهد السياسي. تشكّل الصور المليئة بالحنين للريف الفلسطيني عنصراً مركزياً في الذكريات الفلسطينيّة، وبخاصّة ضمن سياق التحوّل المديني السريع.

إنّ تسخير النوستالجيا الزمانيّة والمكانيّة معاً للانتقال من الحالة غير الواقعية «لما كان يمكن أن يكون» إلى «ما قد كان» و«ما سيكون»، يشكّل ممارسةً حيويّةً في الوقائع الاستعماريّة الاستيطانيّة المتواصلة. يمكن للنوستالجيا أن تساعدنا، ليس في الندب والرغبة في العودة إلى ماضي ما قبل الغزو، بل في بناء رؤية جديدة لعناصر الماضي التي نفتقدها أكثر من غيرها.

***

يجب علينا أن نحكي قصصاً مختلفة عن تلك التي يتمّ غسل دماغنا لنصدّقها ... تذكّروا هذا: العالم الآخر هو ليس أمراً ممكناً فحسب، بل إنّه في طريقه إلينا».[20]

هذه الدعوة الصادرة عن أروناداتي روي تعني الكثير للوضع الفلسطيني. منذ عقودٍ مضت، يُقال للفلسطينيّين أنّ الطريق الوحيد أمامهم للخروج من الواقع الديستوبي (المرير) هو من خلال الرؤى المحدودة للمستقبل، والقائمة على أساس الأطر السياسيّة المفروضة. وتحديداً، يقال للفلسطينيّين الذين يجرؤون على التخيّل خارج الأطر التقليديّة، إنّ تطلّعاتهم للتحرير والسيادة ليست «مجدية»، وإنّ «السياسة هي فنّ الممكن». إلا أنّ الجدوى تستند عموماً إلى فكرة الإمكانيّة، والعقلانيّة والعملانيّة، التي يحدّدها أصحاب النفوذ.

في فلسطين، حدَّد إطار عمل أوسلو الجدوى على مدى عقدين من الزمن، حيث أملى أنّ مستقبل الفلسطينيّين يجب أن يُحدَّد ضمن إطار حل الدّولتين، وأنّ السيادة الفلسطينيّة ستُمنح فقط في عمليّة مشروطة ومتدرّجة (إن مُنحت أصلاً). بمعنى آخر، فإنّ تلبيةَ الحقوق الفلسطينيّة الأساسيّة مشروطة بإقامة دولة فلسطينيّة، ويتمّ صرف أيّ شيء آخر على أنّه وهم طوباويّ غير قابل للتحقيق. وتتضمّن حجج الجدوى إنكار حقّ العودة للاّجئين الفلسطينيّين على أساس أنّ الأمر مستحيل من ناحية لوجستيّة، وأنّ العودة تعني نهاية إسرائيل كدولة ذات أغلبيّة يهوديّة. إنّ عودة اللاجئين الفلسطينيّين ليست مستحيلة من ناحية لوجستيّة ولا هي مستهجَنة سياسيّاً؛ لقد تمَّ بذل جهود كثيرة لإثبات العكس.[21] ليس من السهل

تجاوز فكرة الجدوى هذه، ليس فقط بسبب "غسيل الدماغ" كما تصفه روي، ولكن، أيضاً، بسبب الوضع الذي يبدو دائماً للكيان الاستعماري. يشرح الأكاديمي والمفكر وازياتاوين من السكّان الأصليّين في (Turtle Island) جزيرة السلحفاة (الولايات المتحدة وكندا) حول الاستعمار الاستيطاني، وكيف أنه يصعب تصوّر الحياة بعد الاستعمار ضمن سياق سيطرة «أكبر وآخر قوة عظمى».[22] بالنسبة للفلسطينيّين، فإنَّ تخيّل مستقبل لا تكون فيه النكبة المستمرّة سمةً للحياة اليوميّة هو أمر ينطوي على قدرٍ من التحدّي. على سبيل المثال، يجد كثير من الفلسطينيّين صعوبةً في تخيّل مستقبل يتحقّق فيه حقّ العودة ويُمنح فيه جميع الفلسطينيّين حقوقهم الكاملة في وطنهم التاريخي. إنَّ دعوة وازياتاوين السكّان الأصليّين إلى التفكير خلف القيود الزمانيّة والمكانيّة هي خير تعبير عن هذه الصعوبة:

كشعوب أصليّة، من الأساسيّ أن نفهم مدى تراجع الوضع العالمي، وأن ندركَ الخطأ الشائع حول مناعة الحضارة الصناعيّة، وأن نبدأ بتخيّل مستقبلٍ ما بعد الإمبراطورية وما بعد الدول القومية الاستعمارية التي أخضعَتنا.

وليس تخيّل ما بعد الإمبراطوريّة عودةً إلى الماضي ما قبل الغزو، أو في حالة فلسطين، عودة إلى ما قبل العام 1948، بل إنَّه فرصة لخلق شيء أفضل وشيء عادل. إنَّه عمليّة يتمّ فيها استكشاف طرق لتفكيك الاستعمار وهياكل الاضطهاد الخاصة به، وكذلك طرق إعادة البناء الراديكاليّة بعد التفكيك؛ هذا هو إنهاء الاستعمار بجوهره. ولكن لا يمكن أن يتمَّ هذا دون تذكّر الماضي والتمزّق الديستوبي. فالماضي مرتبط بشكل لصيق بتخيّل المستقبل، والنظر إليهما على هذا النحو يشكّل رفضاً للتساوق مع الإخضاع الاستعماري الاستيطاني لأزمنتهم.

ولكن ما هو المعنى الدقيق للتخيّل في هذا السياق؟ يصف أرجون أبادوراي التخيّل بأنَّه «حقلٌ منظّم من الممارسات الاجتماعيّة، شكل من العمل ... وشكل من التفاوض بين مواقع الفعل الذاتي (الأفراد) وبين الحقول المعرَّفة عالمياً للإمكانية».[23] بتعبيرٍ آخر، التخيّل هو مزيج من وجهات نظر خاصّة بأفراد وأخرى خاصّة بمجتمعات تجاه ما هو ممكن. وإن ما يميّز التخيّل عن التّوهم هو هذا العنصر الجمعي. ويميّز أبادوراي بينهما بوضوح:

تحمل فكرة التّخيل معها مغزىً لا مفرَّ منه لفكرة منقطعة تماماً عن المشاريع والأفعال، كما تتضمّن أيضاً معنى خاصاً أو حتّى فردياً. أمّا التخيّل، من ناحية أخرى، فيحمل مغزى إسقاطياً ... وبخاصة إن كان جماعياً، فيمكنه أن يصبح وقوداً للتحرك. إنَّ التخيّل، بأشكاله الجماعيّة، هو الذي يخلق أفكاراً مثل الجوار، وبناء الأمة، والاقتصادات الأخلاقيّة والحكم الظالم، ورفع الأجور، وآفاق العمالة الأجنبية. إن الخيال اليوم أصبح منصّةً للفعل، وليس فقط للهروب.[24]

هذا التمييز الجوهريّ هو الذي يفرّق، بوضوح، الخيال عن التوهّم المجرّد، ويضعه في حيّز الإمكانيّة والفعل. وإنَّ هذا التمفصل للتخيّل الجماعي أمرٌ مهمّ، لكنّه يطرح بعض الأسئلة

المهمّة المتعلّقة بالمساحات التي تجري فيها عمليّة التخيّل هذه. فبينما من المهمّ أن ننقد حقيقة أنَّ الكثير من المساحات الفلسطينيّة، بما فيها المؤسّسات السياسية والمجتمع المدني، هي رهينة أجندات تفرض عليها حيّزاً محدوداً جداً من الإمكانيّة، من المهمّ أن نشدّد في الوقت نفسه على الحاجة إلى تخيّل جذريٍّ من القاعدة إلى القمّة. والتاريخ الفلسطيني يقدّم لنا أمثلة على ذلك، قد يكون أهمّها الانتفاضة الأولى (1987-93)، عندما بدأ الفلسطينيّون مرةً أخرى بتخيّل بنى مختلفة للقيادة وللعلاقات الاجتماعية، إضافة إلى نماذج بديلة للاكتفاء الذاتي الاقتصادي.

جاءت تلك الانتفاضة الثوريّة نتيجة لسنوات من التنظيم القاعدي، ووضع أساس للعمل السياسي الجماهيري وللنضال الشعبي. شكّلت الاتّحادات، والقوى الطلابيّة، والتعاونيّات، والفصائل السياسيّة ائتلافاً عرف باسم «القيادة الوطنيّة الموحَّدة للانتفاضة». وكانت القرارات تُتّخذ في هذا الإطار، وكانت القيادة تتغيّر بنظام تناوبيّ ضمن روحيّة من التمثيل. وقد تمحورت الانتفاضة حول فكرة «سلطة الشعب» كشكل من التوافق الشعبي والثوري. وكما كتبت لينda طبر:

«تولّى اليسار قيادة هذه العملية ... مؤكّداً على الشعب كوسيلة وكهدف للنضال، واستثمرت الحركة في إمكانيّات، وقدرات الشعب وقناعته بقوّته ... رأى اليسار في الشعب الحيّز الذي يمكن أن يتمّ فيه بناء أشكال مستقلّة من السلطة، تكون قادرةً على مساندة النضال من أجل إيجاد حقائق بديلة.[25]

إن ممارسة خلق وتخيّل حقائق بديلة قد حدث، أيضاً، في أشكال مختلفة من خلال الأنشطة المؤخّرة التي تستكشف عودة اللاجئين، وإعادة بناء القرى المهجّرة،[26] إضافة إلى تفكيك وإنهاء الاستعمار لمشهد المستوطنات في الضفّة الغربيّة.[27] إنَّ المبادرات الصغيرة لإقامة التعاونيّات والمشاريع الشبابيّة الزراعيّة التي تهدف إلى إعادة إرساء صلات أقوى مع الأرض، تشكّل، أيضاً، مساهمات مهمة في تخيّل مستقبل مختلف اختلافاً جذرياً.

إن وضع الخطط، والمسوّدات والنماذج لمثل هذه الإمكانيّات، يعتبر فعلاً استفزازياً في وجه نظام يصرُّ على إنكار مستقبلنا. وعندما يضع المرء بديلاً للديستوبيا، وتتّسع مساحة استكشاف هذه البدائل، تكون هناك فرصة أكبر لكي يفعل الآخرون الشيء نفسه.

في فلسطين، أضافت الجائحة طبقة من الديستوبيا فوق أخرى، ما فاقم من اهتزاز الواقع ومن عدم اليقين في المستقبل. وبينما ترتفع معدّلات الإصابة ويتداعى النظام الصحي، تواصل إسرائيل اعتداءاتها واستيلاءها على الأرض، وهدم البيوت، واعتقال وتوقيف مئات الأشخاص.

أمّا خارج فلسطين، فلم تحقّق الجائحة المساواة، ولم تجسر الهوّة القائمة بين أصحاب النفوذ والأثرياء وبين المضطهَدين والفقراء، بل إنَّها سلّطت الضوء على هذه الانقسامات وعلى بنى

الاضطهاد. تكاد تكون العودة إلى ما قبل الجائحة أمراً مستحيلاً- فالعالم سيكون مختلفاً، ولن يكون بالإمكان قلب ذلك الواقع، حتّى أنّه انتقل باتّجاه المزيد من عدم المساواة والقمع. كما أنَّ الرقابة والقيود على السفر والممارسات الاستبداديّة التي تقوم بها الحكومات، ستصبح، في الغالب، جزءاً عادياً من الحياة اليوميّة، حتى بعد السيطرة على فيروس كورونا. بالنسبة للفلسطينيّين، الذين يشكّل هذا الوضع جزءاً من واقع الحياة لديهم، هذا أمر مخيف. ولكن هناك أملاً، وتعبّر عنه أروناداتي روي بشكل جميل:

«وسط هذا اليأس المريع، هو يمنحنا الفرصة لإعادة التفكير في آلة يوم القيامة (أو يوم الحساب) التي قمنا ببنائها لأنفسنا. ما من شيء قد يكون أسوأ من العودة إلى الطبيعي. تاريخياً، أجبرت الجوائح البشر على القطيعة مع الماضي، وعلى تخيّل عالمهم من جديد. هذه المرّة ليست مختلفة. هي بوّابة، هي باب بين عالم وما يليه».[28]

وبينما تشكّل فلسطين مثالاً صارخاً تجتمع فيه الكثير من بنى السلطة الأشدُّ قمعاً وخراباً، فإنَّ هذه الجائحة توفّر فرصة، على حدٍّ قول روي، لإعادة التفكير والتخيّل. بالفعل، فإنَّ البوّابة بين الديستوبيا واليوتوبيا تقع أمام ناظرينا، ولكن لنرى إن كنّا سنستطيع أن نخطوَ الخطوة لعبورها أم لا.

يارا هوّاري: محلّلة سياسيّة أولى في الشبكة؛ شبكة السياسات الفلسطينية. حازت على شهادة الدكتوراه في سياسة الشرق الأوسط من جامعة إكستر في بريطانيا سنة 2017، حيث قامت بتدريس العديد من المساقات لطلاب البكالوريوس وما زالت زميلة بحث فخرية. تركّز أعمالها البحثية وكتاباتها على دراسات الشعوب الأصليّة والتاريخ الشفوي. كما تنشر تعليقاتها السياسيّة في منابر إعلامية عدّة مثل صحيفة الغارديان، ومجلة فورين بوليسي والجزيرة الإنجليزيّة. يارا من قرية ترشيحا في الجليل.

Endnotes

1 Benjamin Butcher and Joel Massey, "Why are More People From BAME Backgrounds Dying From Coronavirus?" BBC, 19 June 2020, https://www.bbc.com/news/uk-52219070.

2 Naomi Klein, The Shock Doctrine: The Rise of Disaster Capitalism (Toronto: Random House of Canada, 2007).

3 الجدير ذكره أن مارغريت أتوود رفضت الاستجابة لنداء الفلسطينيين ولنشطاء حركة المقاطعة سنة 2010 وقبلت جائزة أدبية إسرائيلية:
https://boycottisrael.info/content/letter-exchange-margaret-atwood.

4 Basma Ghalayini, ed. Palestine +100: Stories From a Century After the Nakba (Manchester: Comma Press, 2019).

5 المصدر السابق، ص. X.

6 المصدر السابق، ص. 11.

7 المصدر السابق، ص. Xii.

8 Patrick Wolfe, "Settler Colonialism and the Elimination of the Native," Journal of Genocide Research 8, no. 4 (2006), pp. 397-409.

9 Elias Sanbar, "Out of Place, Out of Time," Mediterranean Historical Review 16 no, 1 (2001), p. 90.

10 Lila Abu-Lughod and Ahmad H. Sa'adi, eds. Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory (New York: Columbia University Press, 2007), pp. 4-5.

11 المصدر السابق، ص. 3.

12 Rosemary Sayigh, "On the Exclusion of the Palestinian Nakba from the 'Trauma Genre'," Journal of Palestine Studies 43, no. 1 (2013), p. 56.

13 Svetlana Boym, The Future of Nostalgia (New York: Basic Books, 2001), p. xiv.

14 المصدر السابق، ص. Xiii.

15 Fawaz Turki, Reflections on Al-Nakba, Journal of Palestine Studies 28 no. 1 (1998), p. 10.

16 Barbara Parmenter, Giving Voice to Stones: Place and Identity in Palestinian Literature (Austin: University of Texas Press, 1994), p. 43.

17 Boym, S., (2001), The Future of Nostalgia, New York: Basic Books, p.xv.

18 Jayyusi, L. (2007), Iterability, Cumulativity, and Presence: The Relational Figures of Palestinian Memory, In. Abu-Lughod, L. and Sa'di, A.H., eds. (2007), Nakba; Palestine, 1948 and the Claims of Memory, Columbia: Columbia University Press, p.118.

19 Raja Shehadeh, 'Palestinian Walks: Notes on a vanishing landscape, Profile Books, London (2008).

20 Arundhati Roy, War Talk (Cambridge, MA: South End Press, 2003), p. 127.

21 انظر/ي أعمال سلمان أبو ستّة وتحديداً:
http://www.plands.org/en/maps-atlases/maps/al-nakba-return.

22 Waziyatawin, "The pParadox of Indigenous Resurgence at the End of Empire," Decolonization, Indigeneity, Education and Society 1, no. 1 (2012).

23 Arjun Appadurai, Modernity at Large (New Delhi: Oxford University Press, 1997), p. 31.

24 المصدر السابق، ص7.

25 Linda Tabar, "People's Power: Lessons from the First Intifada," Centre for Development Studies, Birzeit University, April 2013, p. 3.

26 انظر/ي أعمال جمعية الشباب العرب-بلدنا، وبخاصة التصوير بالكومبيوتر للقرى الفلسطينية المهجّرة، مثل: https://www.youtube.com/watch?v=-pa9s3XX-Tk.

27 انظر/ي عمل جمعية دار للتخطيط المعماري والفني:
http://www.decolonizing.ps/site/

28 Arundhati Roy, The Pandemic is a Portal, 23 April 2020, 1:35:07: https://www.haymarketbooks.org/blogs/130-arundhati-roy-the-pandemic-is-a-portal

جائحة في فلسطين، لا وجه للمقارنة

شوريدة مولوي

في سـنة 2011، أصـدر المخـرج الإيـراني جعفـر بناهـي مقـالاً مصـوّراً تـمّ تسـجيله في طهـران بعنـوان "هـذا ليـس فيلـماً". كان قـد حُكـم عـلى بناهـي، إلى جانـب المخـرج والناشـط المؤيّـد للديمقراطيـة محمـد رسـولوف، بالسـجن لمـدة سـت سـنوات بتهمـة ارتـكاب "جرائـم" ضـد الدولـة الإيرانيـة، والتحريـض عـلى احتجاجـات المعارضـة بعـد انتخابـات 2009. وكجـزء مـن عقابهـما، أيضـاً، مُنعـت الشـخصيتان البارزتـان في السـينما الإيرانيـة مـن كتابـة أيّ نـوع مـن السـيناريوهات، أو صناعـة الأفـلام، أو السـفر إلى الخـارج أو التحـدّث مـع وسـائل الإعـلام المحليـة والأجنبيـة لمـدّة 20 سـنة.

خـلال سـعيهِ لاسـتئناف الحكـم الـذي يهـدف إلى حرمانـه مـن مصـدر رزقـه، كان بناهـي قيـد الإقامـة الجبريّـة الفعليّـة. في "هـذا ليـس فيلـماً"، كان بناهـي حبيـس شـقته، وكان حريصـاً عـلى الالتـزام بالظـروف القاسـية التـي فرضهـا عليـه الحكـم القضـائي، بحيـث اقتـصر عملـه عـلى التسـجيل بهاتفـه والتأمّـل في أفلامـه السـابقة. كان يتحـدّث إلى كامـيرا يحملهـا صديقـه، وهـي حركـة غريبـة لمخـرج اعتـاد أن يكـون وراء الكواليـس. كان بناهـي يقـرأ بصـوت عـالٍ سـيناريو الفيلـم الـذي أراد إنتاجـه. كان يتنقّـل حـول الأثـاث في غرفة معيشـته، ويسـتخدم الشريـط اللاصـق لتحويـل الغرفـة إلى موقـع التصويـر الـذي يتخيّلـه في ذهنـه، لفيلـم لم يعـد بإمكانـه الآن أن يخرجـه بشـكل قانـوني، وهـو حـول موضـوع الحبـس.

في إحدى لحظات هذا الارتجال الإبداعي، يرثي بناهي حاله المليء بالإحباط والإرهاق بسبب استحالة صنع فيلم في ظلّ هذه الظروف قائلاً: ما هي السينما في العزلة؟ كيف يمكن التقاط تجربة إنسانية دون القدرة على الوصول إلى عفويّة العالم الحقيقي؟ كانت أهمّ اللحظات في أعماله السابقة مرتجَلة، تمّ تصويرها دون نصّ، وجرى التقاطها من سليقة الناس المحيطين به.

في نهاية المطاف، تمَّ تهريب عمله من إيران مخزَّناً على بطاقة للذاكرة، قيل إنّه تمّ إخفاؤها في كعكة. وتعتبر القيود الشديدة التي عبّر عنها بناهي في عمل "هذا ليس فيلماً" مصدرَ إلهامٍ لمن يعيشون في ظروف الإغلاق والعزلة، والذين يصرّون على الاستمرار في تقديم مساهماتهم الفكريّة، والفنّية والسياسيّة إلى العالم الحقيقي.

وعلى الرغم من الاختلاف الشديد في الظروف، فقد قلبت الأشهر الأولى من انتشار جائحة كورونا وانتشار عمليّات الإغلاق العديد من ثنائيّاتنا اليوميّة، وحرّضت على سقوطها المؤقَّت إلى حدٍّ ما. بدأنا نشعر أنَّ الممارسات التي كانت تمرُّ بسرعة قبل الإغلاق، أصبحت تتباطأ. امتدَّت مساحاتنا الداخليّة الخاصّة نحو الخارج عبر وسائط الإنترنت المستخدمة للعمل، والتعليم والتعاون. وبالنسبة للبعض، جرى تدويل سياقاتنا المحلية على الفور مع زيادة المكالمات الهاتفية، وبعد أن أصبحت الاجتماعات العابرة للقارّات عادةً يوميّة.

في سياق الجائحة المستمرّة، حيث انتشرت عمليّات إغلاق البلدان والحدود في جميع أنحاء العالم، ما أدّى إلى منع الممارسين من الوصول إلى مجتمعاتهم ومواردهم، استلهمت أنا وزملائي في مشروع (Forensic Architecture) (الاستدلال الجنائي من خلال العمارة) [1] من استخدام بناهي المُستفزّ للعناصر الموجودة في محيطه المباشر، فبدأنا التحقيق في مجموعة إن إس أو (NSO)،[2] وهي شركة إسرائيليّة لتصنيع أسلحة إلكترونيّة تمّ ربط برامج المراقبة الخاصّة بها بالحكومات التي تخترق أجهزة الاتصال الخاصّة بالعاملين في مجال حقوق الإنسان، والمحامين، والصحافيّين ونشطاء المعارضة بشكل غير قانوني، والكثيرون منهم هم من أصدقائنا المقرّبين والمتعاونين السابقين.[3]

على الرغم من اعتمادنا على أشكال الاتصال الافتراضيّة التي تجعلنا جميعاً أكثر عرضةً للمراقبة، فقد قمنا بتنشيط مجتمعاتنا القائمة ومواردنا المباشرة لتوثيق صعود ووصول أدوات المراقبة الإلكترونيّة الخاصة بشركة "إن إس أو" حول العالم. كنّا نعرف أنَّ هذه التكنولوجيا، التي تشكّل جزءاً من النظام البيئي لشركات الأسلحة الإلكترونية الإسرائيلية، تستخدَم على الفلسطينيّين الذين يعيشون تحت الاحتلال الاستعماري منذ عقود.[4]

سعينا إلى حشد مهارات ومنهجيّات مشروعنا الاستدلال الجنائي من خلال العمارة (Forensic Architecture) لزيادة تنشيط البيانات والأبحاث التي أجريت حول التقارير التي أشارت إلى الاستخدام غير القانوني لبرنامج "إن إس أو" حول العالم. ولكن في تلك اللحظة التاريخيّة

التي أصبحت فيها حياتنا وبشكل متزايد مجرّدة وخلف الشاشات، أردنا إيصال الطرق التي تتقاطع فيها الطبيعة غير الماديّة للقرصنة الرقميّة بشكلٍ متكرّر مع العنف الجسدي والإرهاب النفسي. أثناء الإغلاق، وفيما كان بعضنا منفصلاً عن عائلاتنا عبر الحدود الفاصلة، أمضينا شهوراً في التنقيب عن البيانات حول أيّ تقرير، أو كشف أو توثيق يتعلّق بقيام الحكومات الليبراليّة الديمقراطيّة، و/أو الاستبداديّة، و/أو الاستعماريّة الاستيطانيّة، باستخدام أدوات المراقبة التابعة لـ "إن إس أو" بشكل واسع ضدَّ من يجرؤون على المعارضة.

لقد ساعدَنا حلفاؤنا الكرام والمنظّمات الملتزمة على إجراء عشرات المقابلات مع المحقّقين ومع المستهدفين من قبل برامج "إن إس أو" التطفّلية، وجميعهم شاركوا وهم يدركون أنَّ مساهمتهم قد تعرّضهم إلى المزيد من المراقبة. لدى حديثهم معنا، عدّد المدافعون عن حقوق الإنسان من جميع أنحاء العالم (بما فيها كندا، والهند، وإسرائيل/فلسطين، والمكسيك، والمغرب، ورواندا، والسعودية، والتوغو، والإمارات العربية المتحدة، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة) الطبقات العديدة لعنف الدولة وعنف الشركات الذي يواجهونه بشكل يومي، وهي صراعات اشتدّت مع تفاقم الأزمة الصحيّة العالميّة.

مع مرور الشهور، مكّنت الجائحة من ارتفاع وتيرة العنصرية في أعمال الشرطة، وزادت من الحرمان الاقتصادي والسيطرة على الحدود عالمياً، وذلك من خلال تفعيل "حالات الطوارئ". وبذلك، جعلت الأزمة الصحيّة العالميّة عمل حقوق الإنسان الذي يقوم به المستهدفون في برامج التجسّس التابعة لـ "إن إس أو"، الذين تحدّثنا معهم، أكثر أهميّة. وفي الوقت نفسه، عزّز الوباء رغبة الدول في استخدام تطبيقات الهاتف والتكنولوجيا الرقمية لتتبّع الأجهزة ومراقبتها بهدفٍ معلن؛ وهو الحدّ من انتشار الفيروس.

مع اندلاع الموجة الأولى من الإصابات في إسرائيل في آذار 2020، استخدمت الحكومة الانتقاليّة بقيادة رئيس الوزراء بنيامين نتانياهو "حالة الطوارئ" القائمة لإقرار لائحتين إضافيَّتين للطوارئ لهما هدفان مترابطان. أوّلاً، تفويض الشرطة الإسرائيليّة بصلاحيّات قضائيّة موسّعة لفرض قوانين العزل الاجتماعي في البلاد، وثانياً، استخدام الشاباك الإسرائيلي (وهو جهاز الأمن الداخلي التابع لها) المراقبة الرقمية لتعقّب موقع وتحرّكات الأشخاص المصابين بفيروس كوفيد 19-.[5]

عندما بدأت النقاشات العالميّة حول حقوق الخصوصيّة والصحّة العامّة بالانتشار في الأشهر الأولى من الجائحة، اكتشفنا ارتفاعاً متزامناً في عدد مصنّعي الأسلحة الإلكترونيّة الإسرائيليّين الذين يسعون إلى تسويق برامج التتبّع الخاصّة بهم للسلطات الصحيّة. وكانت شركة "إن إس أو" من ضمن هؤلاء، وكانت تعمل بنشاط على ترويج برنامج المراقبة الخاص بها لاحتواء الفيروس لدى كلٍّ من الحكومة الإسرائيلية وعشرات وزارات الصحة الأخرى في جميع أنحاء العالم.[6]

يبـدو للوهلـة الأولى أنَّ رغبـة شركات الأسـلحة الإلكترونيـة التـي تسـعى إلى تحقيـق الأربـاح في إنتـاج برامـج -مصمّمـة لانتهـاك خصوصيتنـا وتسـتخدَم في إسـكات وترهيـب المدافعيـن عـن حقـوق الإنسـان في جميـع أنحـاء العـالم- للمسـاعدة في منـع انتشـار جائحـة مدمّـرة، تبـدو أمـراً مثـيراً للسـخرية. ولكـن بعـد اسـتخراج البيانـات مـن عـشرات التقاريـر التـي توثّـق الـضرر الـذي لحـق بأصـوات المعارضـة مـن اسـتخدام حكوماتهـم لبرنامـج" إن إس أو" للقرصنـة، شـعرنا بقـدر أكـبر مـن القلـق حيـال إمكانيّـة حصـول الشركـة عـلى المعلومـات الطبيّـة للأشـخاص أيضـاً. كـما أنَّ جهـات أخـرى حقّقـت مثلنـا في "إن إس أو"، أعربـت، أيضـاً، عـن قلقهـا بشـأن قدرتهـا عـلى النفـاذ مـن الطـرف الخلفـي إلى المعلومـات الشـخصيّة، وتقاطـع هـذا النفـاذ مـع قـدرة الدولـة عـلى إسـكات الأصـوات السياسـيّة ومراقبـة الأفـراد والمجتمعـات الضعيفـة.

زدْ عـلى ذلـك أنَّ تداعيـات الانتشـار العالمـي وتطبيـق الأدوات الإسرائيليـة للمراقبـة والسـيطرة الجماعيـة مـن أجـل مواجهـة انتشـار فـيروس كورونـا، كانـت أمـراً يسـتحقّ التحقيـق. لا يمكن فصل تطبيـع اسـتخدام البرامـج الإسرائيليّـة حـول العـالم عـن عقـود مـن ممارسـات إسرائيـل الاسـتعماريّة الاسـتيطانيّة في فلسـطين وتوغّلاتهـا العسـكرية في المنطقـة.

كـما يقـول نديـم الناشـف ومـروة فطافطـة، فـإنَّ مراقبـة الفلسـطينيّين، عـن طريـق "سـجلّات السـكان، وبطاقـات الهويـة، ومسـوحات الأراضي، وأبـراج المراقبـة، والسـجن والتعذيـب"، قـد شـكّلت تاريخيـاً جـزءاً لا يتجـزّأ مـن الممارسـات الإسرائيليّـة للسـيطرة الاسـتعماريّة الاسـتيطانيّة.[7] وعـلى الرغـم مـن اسـتمرار اسـتخدام أدوات "المراقبـة منخفضـة التقنيّـة" كممارسـات للاسـتعمار الإسرائيـلي، فهنـاك مجموعـة مـن التقنيّـات الرقميّـة الجديـدة التـي تسـمح "بمراقبـة واعـتراض الهاتـف والإنترنـت، وكاميرات المراقبـة وجمـع البيانـات البيومتريـة"، التـي تمكّـن اليـوم مـن مراقبـة حيـاة الفلسـطينيين إلى درجـة عميقـة.[8]

وهكـذا، أشـار تحقيقنـا المسـتمر حـول "إن إس أو"، بشـكلٍ غـير مبـاشر، إلى الطـرق التـي تـمّ بهـا تنشـيط الهيـاكل الاسـتعماريّة الاسـتيطانيّة أثنـاء الجائحـة. بالفعـل، تعتـبر هـذه التطـوّرات مـؤشّرات أوسـع حـول الوسـائل متعـدّدة الأوجـه التـي أدّى تفـشّي فـيروس كورونـا مـن خلالهـا إلى تكثيـف الهيـاكل العنصريـة والممارسـات العسـكريّة القائمـة. ومـع ذلـك، كـما تطـرح هـذه الورقـة، وبينـما تشـكّل خطـوط التواصـل عـبر الحـركات المناهضـة للقمـع أشـكالاً فعّالـة مـن التعبئـة العابـرة للحـدود، فـإنَّ خطـوط الانقسـام الكبـيرة التـي تفصـل بـين هـذه النضـالات تسـتحقّ الاهتـمام أيضـاً. لذلـك، وإلى جانـب الانتشـار العالمـي لتقنيّـات التحكّـم هـذه، ينبغـي التشـديد عـلى الطـرق الفريـدة التـي تعمـل بهـا هـذه الممارسـات، وتـؤدّي إلى تشـكّل مقاومـة فعّالـة في سـياقات مختلفـة.

الجائحة بوصفها «لحظة استعمار استيطاني»

يذكّرنـا الراحـل باتريـك وولـف أنَّ الاسـتعمار الاسـتيطاني هـو "هيـكل وليـس حدثـاً".[9] وعـلى الرغـم مـن تحـوّل ممارسـاته وتقنيّاتـه بمـرور الوقـت، فـإنَّ السـمات البـارزة التـي تشـكّل المبـدأ الناظـم لهيـاكل السـلطة الاسـتعماريّة الاسـتيطانيّة، والمتمثّلـة في الحرمـان العنـصري للسـكّان الأصليّـين، تظلّ قائمـة. تعمـل هـذه الهيـاكل اليـوم، ولا سـيّما في أوقـات "الطـوارئ" جنبـاً إلى جنـب، وتعـزّز أشـكالاً أخـرى مـن التطفّـل، بمـا فيهـا الأشـكال الإمبرياليّـة، والتجاريّـة والاسـتخراجيّة للحرمـان العنـصري.

لفـت اسـتفزاز الهيـاكل الاسـتعمارية الاسـتيطانية حـول كيفيّـة مواجهـة انتشـار فـيروس كورونـا الانتبـاه في منتصـف آذار 2020، عندمـا سـافر زوجـان مـن السـكّان غـير الأصليّـين مـن مونتريـال آلاف الكيلومـترات عـبر البـلاد إلى أولـد كـرو، وهـو مجتمـع محـلي للسـكّان الأصليـيّن في شـمال يوكـون، خوفـاً مـن الفـيروس عـلى مـا يبـدو. قـام الزوجـان باللجـوء إلى "مجتمـع منعـزل للاختبـاء مـن فـيروس كورونـا"، معربَـين عـن اعتقادهـما أنَّ هـذا المجتمـع البعيـد هـو "المـكان الأكـثر أمانـاً" للاحتـماء مـن الوبـاء.[10]

بالإشـارة إلى الضعـف الخـاص الـذي تعـاني منـه مجتمعـات السـكّان الأصليّـين مثـل أولـد كـرو، قـال دانـا تيزيـا تـرام، الـذي انتخـب مختـاراً لمنطقـة فونتـوت جويتشـين Vuntut Gwitchin First Nation))، إنّـه، إضافـة إلى الخدمـات الطبيّـة المحـدودة، وانتشـار أمـراض الجهـاز التنفـسي وارتفـاع عـدد المسـنّين، "ليـس لدينـا حتّـى مـا يكفـي مـن المسـاكن لأهالينـا".[11]

فيـما هربـت النخـب المتحـضّرة في جميـع أنحـاء العـالم إلى منازلهـا الثانيـة وأكواخهـا الصيفيّـة احتـماءً مـن الوبـاء، فـإنَّ مطالبـة السـكان غـير الأصليّـين لمجتمعـات السـكّان الأصليّـين النائيـة مثـل أولـد كـرو بتوفـير سـكن آمـن إنّمـا هـي امتـداد للتاريـخ الاسـتعماري الكنـدي للإبعـاد. وتسـتمرّ هـذه الممارسـات في تشـكيل سـجلّها المعـاصر في تشريـد السـكّان الأصليّـين. ففـي سـياق الجائحـة، يجـري تنشـيط منطـق الإبعـاد والاسـتبدال الـذي يميّـز الهيـاكل الاسـتعماريّة الاسـتيطانيّة المعـاصرة مـن خـلال السـفر عـبر الحـدود الـذي يعـرّض حيـاة السـكّان الأصليـين وسـبل عيشـهم للخطـر. وكـما عـبّر المختـار تيزيـا تـرام، "مجتمعنـا، وإن كان بعيـداً، فهـو ليـس قـارب نجـاة لبقيـة العـالم".[12]

ينعكـس تنشـيط الإرث الاسـتعماري الاسـتيطاني، أيضـاً، في حقيقـة أنّـه في أمـاكـن مثـل الولايـات المتحـدة، كان السـكان الأصليّـون والأمريكيّـون السـود الأكـثر تـضرّراً مـن الفـيروس، كـما أنّهـم السـكّان الأكـثر تـضرّراً مـن سـجلّ هـذا الاسـتعمار الاسـتيطاني، وتحديـداً في قسـوة ممارسـات الشرطـة والسـجن.[13]

بالفعـل، فالحجـج التـي قدّمهـا الطبيـب الفرنـسي ورئيـس قسـم العنايـة المركـزة في مستشـفى كوشـين في باريـس جان-بـول مـيرا في نيسـان 2020، حـول إجـراء تجـارب اللقاحـات "في إفريقيـا حيـث لا يوجـد كمامـات، ولا علاجـات ولا أجهـزة إنعـاش"، والإعـلان في أواخـر شـهر تمـوز عـن سـفر

باحثين طبّيين إسرائيليّين إلى الهند لتجربة "طرق اختبار جديدة وسريعة لفيروس كورونا على الآلاف من مرضى فيروس كورونا في البلاد"، كلُّ هذا يدلّ على ارتفاع منسوب النشاط لدى هياكل العرق الأبيض خلال الجائحة المستمرة التي تشير إلى قابليّة الاستغناء عن الأجساد المُستعْمَرة والخاضعة للعنصريّة.

مدينة غزة خلال الحجر، صورة: عين ميديا غزة (أغسطس، 2020).

تفعيل التكنولوجيا الاستعمارية في فلسطين

يكمن جزءٌ من مواجهة الوضع الحالي في استبدال السرديّات المألوفة والمهينة للاستعمار الاستيطاني حول "معدّل الوفيّات للسكّان الأصليّين"، التي نشأت خلال الوباء، بإدراك للعنف الهيكلي الذي يسبقها. فطبيعة هذا العنف القائم وتركيبته، هي التي أدّت إلى تفاقم تأثير الوباء على الشعوب الأصليّة والمعرَّضة للعنصريّة.

أمضت إسرائيل أكثر من سبعة عقود في تقسيم المجتمعات الفلسطينية إلى معازل، وتصميم هياكل قانونية للهيمنة العنصريّة، لذا فهي كانت تمتلك البنية التحتيّة اللازمة لتطبيق الاستراتيجية الصحيّة العالميّة المتصاعدة والمتمثّلة في الإغلاقات من أجل مكافحة انتشار الوباء. تمَّ تفعيل أدوات الدولة على شكل عمليّات الإغلاق، وحظر التجوّل، والمراقبة

الجماعيّة، والتشدّد على الحدود، وهي أدوات أصبحت، فجأة، ممارسات عادية للحكومات الأخرى للحدّ من انتشار العدوى، والتي استُخدمت بما يتجاوز وظائفها الحالية في المشهد العسكري المفرط الذي يواجه الفلسطينيين.

مدينة غزة خلال الحجر، صورة: عين ميديا غزة (أغسطس، 2020).

منذ بداية الجائحة، وعلى غرار ما حدث مع المجتمعات الأخرى الأصليّة والمعرّضة للعنصرية، تمّ تجاهل صحّة وسلامة المواطنين، والمقيمين، واللاجئين الفلسطينيّن الذين يعيشون تحت سلطة السيادة الإسرائيلية بشكلٍ مستمر، مقارنةً بالمواطنين الإسرائيليين اليهود، كما أعاقت إسرائيل جهود الفلسطينيّين أنفسهم ومساعيهم إلى مكافحة انتشار فيروس كورونا في أحيائهم التي تخضع للرقابة المشددة.[14]

كثيراً ما أشاد المراقبون بالفلسطينيّين في الأشهر الأولى من الوباء كشعب "لديه خبرة" في التعامل مع عمليّات الإغلاق والعزل. تمّ وصف قطاع غزّة المحتل، على سبيل المثال، بأنّه واحد من الأماكن الوحيدة التي لم يتمّ التبليغ فيها عن إصابات، الأمر الذي اعتبره البعض من "حسنات" الحصار الإسرائيلي خلال جائحة عالمية.[15] لكنّ هذه الحجج، الشبيهة بالموقف الذي اتّخذه الزوجان غير الأصليين اللذَين هربا إلى أولد كرو، هي

امتـداد للسرديّـات الاسـتعمارية الاسـتيطانية. إنّهـم يتجاهلـون أنّـه في الأماكـن التـي تكـون فيهـا الهيـاكل العسـكريّة التـي تعمـل بشـكل مكثّـف عـلى الفصـل العنـصري قائمـة ونشـطة، فـإنَّ دولاً مثـل إسرائيـل قـادرة عـلى مواصلـة ممارسـاتها الهادفـة إلى حرمـان السـكان الأصليـين حتـى أثنـاء الجائحـة.[16]

مدينة غزة خلال الحجر، صورة: عين ميديا غزة (أغسطس، 2020).

بعيـداً عـن "الحمايـة" و"الأمـان" مـن الفـيروس، فـإنَّ المجتمعـات التـي تعيـش في عزلـة قسريّـة، سـواء في مخيّـمات اللاجئـين أو محميّـات السـكّان الأصليّـين، أو الأحيـاء الفقـيرة، أو المعـازل الاسـتعمارية، كلّهـا تصبـح أكـثر عرضـةً للخطـر خـلال الأزمـات الصحيّـة العالميّـة. أولئـك الذيـن يعيشـون في الأماكـن المغلقـة يعرفـون أنَّ الفـيروس سـوف يتكاثـر سريعـاً لحظـة وصولـه.

أمّـا الميّـزة الرئيسـيّة الأخـرى للنمـوذج الاسـتعماري الإسرائيـلي الـذي يسـتمرّ تفعيلـه بسـبب الوبـاء، فهـي بنيتهـا التحتيّـة الأمنيّـة والرقابيّـة. تـمّ اسـتحضار الـوكالات العسـكرية، وضبّـاط المخابـرات، وفـروع الحكومـة التـي تكـون مسـؤولة عـادةً عـن شـؤون "الأمـن القومـي" للعمـل في وظيفـة وبائيّـة. إضافـة إلى اسـتخدام الشـاباك لأدوات المراقبـة التطفّليـة لتتبّـع موقـع وحركـة الأشـخاص المصابـين بفـيروس كوفيـد-19،[17] تـمّ تكليـف الموسـاد، أي وكالـة الاسـتخبارات الأجنبيّـة الإسرائيليّـة، بتفعيـل شـبكاتها الدوليّـة للحصـول عـلى المعـدّات الطبيـة، والخـبرات وتكنولوجيـا التصنيـع مـن

خـارج البـلاد.[18] إضافـة إلى ذلـك، أطلـق قسـم الأبحـاث في شـعبة الاسـتخبارات العسـكريّة الإسرائيليّة والوحـدة 8200 مركـزاً وطنيـاً للمعلومـات حـول فـيروس كورونـا، "باسـتخدام القـدرة الفريـدة لفـرع المخابـرات لتجميـع المعلومـات التـي تـمّ جمعهـا في إسرائيـل وفي جميـع أنحـاء العـالم، واسـتخدام الـذكاء الاصطناعـي والتعلّـم الآلي" لمركـزة إحصائيّـات الإصابـة والمـرض التـي تُجمـع مـن جميـع المستشـفيات والمختـبرات والصناديـق الصحيّـة والـوزارات المتاحـة.[19]

مدينة غزة خلال الحجر، صورة: عين ميديا غزة (أغسطس، 2020).

ومـن أجـل تحسـين عمليّـة صنـع القـرار في وزارة الصحـة بهـدف الوقـف الفـوري لمعـدّلات الإصابـة، انطلقـت عمليـة إضفـاء الطابـع الأمنـي عـلى الاسـتجابة الإسرائيليـة للوبـاء مـن البنيـة التحتيّـة العسـكريّة الحاليّـة، التـي تتمثّـل وظيفتهـا المتزامنـة، إن لم تكـن الأساسـيّة، في حرمـان الفلسـطينيّين. وفي إشـارة إلى مخاطـر الاسـتعانة بالصناعـة الأمنيّـة مـن أجـل الاسـتراتيجية الصحيـة الوطنيـة، تقـدم كلٌّ مـن المركـز القانـوني لحقـوق الأقليّـة العربيّـة في إسرائيـل "عدالـة"، وجمعيّـة حقـوق المواطـن في إسرائيـل، بالتـماس قانـوني إلى المحكمـة العليـا الإسرائيليّـة في منتصـف آذار للطعـن في منـح صلاحيّـات واسـعة للحكومـة دون رقابـة برلمانيـة. [20] وعـلى الرغـم مـن أنَّ المحكمـة العليـا قـد حكمـت في البدايـة لصالـح هـذا الالتـماس،[21] فقـد تـمّ عكـس الحكـم عندمـا أقـرّ الكنيسـت "قانـون فـيروس كورونـا الرئيـسي" في 23 تمـوز 2020، مـا مكّـن الحكومـة مـن تنفيـذ قوانـين فـيروس

كورونا الطارئة التي تحدّ من الحقوق الفرديّة والحريّات للمواطنين الإسرائيليّين بدون إشراف برلماني.[22]

المقاومة في زمن الكورونا

رأيت، كما رأى المراقبون الآخرون خلال الأشهر الأولى للجائحة، وبشكل فوري، أنَّ التجربة الفلسطينية تشكّل عدسة سياسيّة مفيدة يمكننا من خلالها فهم تفعيل الهياكل الاستعماريّة الاستيطانيّة القائمة أثناء الجائحة. وفي حين أنَّ السياق الفلسطيني له أهميّة تتجاوز حدوده العسكرية المشدّدة، فإنَّه يجب التركيز، أيضاً، على الطرق الفريدة لهذه الممارسات الاستعمارية ضمن سياق سلطة السيادة الإسرائيليّة.

لقد استعرت عنوان هذا المقال عن قصد من مقالٍ كتبه صديقٌ عزيزٌ منذ أكثر من عقد بعنوان "لا وجه للمقارنة: إسرائيل وجريمة التمييز العنصري"، وهو نصّ كان له بالغ الأثر عليّ.[23] فقد أوضح في مقاله مخاطر الإفراط في التأكيد على أوجه التشابه والاختلاف في التجارب الجماعيّة لعنف الدولة، وهي ممارسة يمكن أن تضيّق المجال أمام التكتيكات المستخدمة في نضالات المقاومة لمواجهة تلك القوة.

يشكّل فحص الطرق التي يعمل بها الوباء على تنشيط الهياكل الاستعمارية الاستيطانية القائمة في فلسطين، إطاراً مفيداً يمكننا من خلاله فهم طريقة عمل الممارسات والهياكل القمعية المماثلة في أماكن أخرى. يساعدنا ذلك كباحثين، ومحقّقين، ومنظّمين مجتمعيّين على رسم خطوط الاستمراريّة فيما بين حركات مناهضة القمع، ما يجعل مطالب النضال الفلسطيني ضدّ الاستعمار أكثر صلةً لدى المجتمعات الأخرى في جميع أنحاء العالم. ولكن بقدر ما تشير إلى كيفيّة قيام الدول باستخدام هذه الممارسات الاستعماريّة بشكل مشترك في استراتيجياتها الصحيّة ضد الجائحة، فإنّها تكشف عن خطوط انقسام كبرى بين الحركات، ما يباعد بينها أيضاً.

وبدلاً من تقريب مدن مثل بيت لحم وحيفا ورام الله من أماكن مثل تورنتو أو روما أو كيب تاون، فإنَّ فرض عمليّات الإغلاق وحظر التجول والرقابة الصارمة على الحدود في هذه الأماكن، يشير إلى الاختلافات الرئيسيّة في أنظمة عدم المساواة العنصريّة الموجودة في كلّ من تلك السياقات. وكما لم تكن الإقامة الجبرية التي عانى منها جعفر بناهي مماثلة للإغلاق أو حظر التجول الذي اختبره العديد منّا، ولم تكن العزلة الذاتيّة أثناء الجائحة شبيهة بالحبس الانفرادي في السجن،[24] إلّا أنَّ استخدام تقنيّات الإغلاق الخاصة بالاستعمار الاستيطاني لا ينبغي له أن يمحو سياقات تجارب جماعيّة معينة. وربّما على القدر نفسه من الأهميّة، لا ينبغي أن يمحو خصوصيّة تكتيكات المقاومة التي لها مغزاها ومنطقها في السياق الفلسطيني.

وأختم هنا، باقتباس النصيحة التي قدّمها من غزّة إلى العالم الصديق محمّد عزايزة، الذي أدرك بشكل مسبق ومنذ الأسابيع الأولى للإغلاق، ما يكفي ليتساءل عمّا سيبقى بعد انتهاء "أزمة" الجائحة العالمية. وكتب عزايزة عن مشاعر الخوف والقلق على المستقبل الناجمة عن عمليّات الإغلاق والقيود التعسفيّة، وأعرب عن تضامنه العميق مع من فقدوا أفراد عائلاتهم في الخارج بسبب الفيروس وهم في عزلة. ولكن بينما انطلق من موقف الاختلافات الرئيسيّة في السياقات السياسيّة لعمليّات الإغلاق التي وقعت في جميع أنحاء العالم، شدّد عزايزة على الطرق التي يمكن للمجتمعات أن تتعلّم فيها من نضالات بعضها البعض، من خلال إطلاع الآخرين على بعض ممارسات المقاومة التي تفيده في التكيّف مع العزلة في غزة:

كونوا صبورين – لا أحد يعلم متى سينتهي العزل

حددوا روتيناً يومياً والتزموا به

استيقظوا باكراً، ولا تستسلموا للنوم

مارسوا التمارين الرياضية لمدّة عشرين دقيقة

جدوا وقتاً لقيلولة بعد الظهر

اغسلوا الأطباق، فهو يخفّف من التوتر ويحافظ على نظافة أيديكم

ابحثوا عن طرق للعمل من المنزل

لا تستمعوا للأخبار فقط، بل خصّصوا وقتاً للموسيقى والقراءة

فوّضوا الصلاحيّات لأطفالكم، فهم يحبّون القيادة

تعرّضوا لأشعّة الشمس من خلال النافذة كلّ يوم، فهي تمنحكم الطاقة

حاولوا الإقلاع عن التدخين

اطبخوا طعاماً جيداً

ابقوا في منازلكم

واعتنوا بأنفسكم.[25]

شوريدة مولوي هي باحثة متفرّغة في الشؤون الإسرائيليّة-الفلسطينيّة في مشروع فورنزيك أركيتكتشر (الاستدلال الجنائي من خلال العمارة)، حيث تقوم بربط تحقيقاتها حول عنف الدولة بأعمال وأبحاث جماعات ومنظّمي المجتمع المدني على الأرض. وهي مفكّرة في العلوم السياسية، ومتخصّصة في نقد العلاقات الدولية والنظريّات السياسيّة، ولديها خلفيّة في القانون الإنساني الدولي. لدى شوريدة خبرة تزيد على خمس عشرة سنة في التدريس، والأبحاث القانونية، والتجربة الميدانية في الشرق الأوسط حول موضوعات حقوق الإنسان والأقليّات، مع التركيز على العلاقة بين القانون، والعنف والسلطة. وتعمل حالياً محاضرةً أولى في الدراسات الحضرية في جامعة بازل.

Endnotes

1 أنا باحثة متفرّغة في الشؤون الإسرائيليّة-الفلسطينيّة في (Forensic Architecture) (الاستدلال الجنائي من خلال العمارة)، وهي مؤسّسة بحثيّة متعدّدة التخصّصات مقرّها جامعة جولدسميث في لندن، وهي تستخدم التكنولوجيا المكانيّة والإعلامية لإجراء تحقيقات في عنف الدولة والشركات، غالباً مع المجتمعات المتضرّرة وبالنيابة عنها. يمكن الاطلاع على عملنا على موقع: https://forensic-architecture.org/.

2 انظر إلى إعلان تحقيقنا هنا:
https://twitter.com/forensicarchi/status/1244974357190975488?lang=en

3 يتيح منتج «إن إس أو»، المعروف باسم بيغاسوس، الاختراق عن بُعد ومراقبة الهواتف الذكية لجميع أنظمة التشغيل الشائعة. تمّ تسويقه على أنّه برنامج «اعتراض قانوني» تجسسي حصري للحكومة، وتدّعي «إن إس أو» أن تقنيتها تُباع للدول فقط حتّى تتمكّن «الحكومات ذات السيادة من التحقيق ومكافحة الإرهاب، واستغلال الأطفال والجرائم الشنيعة الأخرى». غير أنَّ البحث الذي أجراه مختبر سيتيزن لاب، ومقرّه تورونتو، وهو مركز متعدّد التخصّصات يدرس الطرق التي تشكل فيها مراقبة الشركات والشبكات تهديداً لحقوق الإنسان والأمن العالمي، قد قدم دليلاً تجريبياً على أن الحكومات قد استخدمت تقنية «إن إس أو» كسلاح للتجسّس على المجتمع المدني بشكل غير قانوني. للاطلاع على أرشيفات تقاريرهم الكاملة المتعلقة بمجموعة «إن إس أو»، انظر: https://citizenlab.ca/tag/nso-group/

4 إيليا زريق. «استراتيجيات المراقبة: النظرة الإسرائيلية»، فصليّة القدس: بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، العدد 66 (2016): 38-12.

5 Library of Congress Law, Global Legal Monitor, "Israel: Emergency Regulations Authorize Digital Surveillance of Coronavirus Patients and Persons Subjected to Home Isolation," 18 March 2020: https://www.loc.gov/law/foreign-news/article/israel-emergency-regulations-authorize-digital-surveillance-of-coronavirus-patients-and-persons-subjected-to-home-isolation/.

6 في 26 نيسان 2020، تمّ الكشف عن أنَّ «إن إس أو» كانت تسوّق بنشاط تكنولوجيا التتبّع لفيروس كوفيد19- التي تدعى فليمينغ (Fleming) للسلطات الصحيّة الأمريكيّة. انظر شبكة (NBC)، «جهود تتبع جهات الاتصال الجديدة ذات التقنية العالية لفيروس كورونا تثير مخاوف بشأن الخصوصية» (New High Tech Coronavirus Contact Tracing Efforts Stoke Privacy Concerns)، 26 نيسان 2020:
https//:www.nbcnews.com/nightly-news/video/new-high-tech-coronavirus-contact-tracing-efforts-stoke-privacy-concerns82572869555-

إعلان «إن إس أو» لبرنامج فليمينغ،
https//:www.nsogroup.com/fighting-the-covid./19-

انظر، أيضاً، لتحليل جون سكوت ريلتون، باحث أول في سيتيزن لاب ومقره تورونتو، يُظهر العيوب الرئيسية في برنامج فليمينغ التابع لـ «إن إس أو» والقدر الكبير من عدم الدقة فيه:
https//:twitter.com/jsrailton/status1254206979289034760/

7 Nadim Nashif and Marwa Fatafta "Surveillance of Palestinians and the Fight for Digital Rights," Al Shabaka, 23 October 2017: https://al-shabaka.org/briefs/surveillance-palestinians-fight-digital-rights/.

8 المرجع السابق.

9 Patrick Wolfe, "Settler Colonialism and the Elimination of the Native," Journal of Genocide Research 4, (December 2006): 388.

10 National Post, "Quebec Couple's Covid-19 Escape to Old Crow, Yukon, Short-Lived, Says Chief," 31 March 2020: https://nationalpost.com/pmn/news-pmn/canada-news-pmn/quebec-couples-covid-19-escape-to-old-crow-yukon-short-lived-says-chief.

11 المرجع السابق.

12 Sabrina Tremblay-Huet, "Covid-19 Leads to a New Context for the 'Right to Tourism': a Reset of Tourists' Perspectives on Space Appropriation is Needed," Tourism Geographies 22, no. 3(2020): 720-23.

13 Kollibri Terre Sonnenblume, "Covid-19 Denialism is Rooted in the Settler Colonial Mindset," Counter Punch, 10 July 2020: https://www.counterpunch.org/2020/07/10/covid-19-denialism-is-rooted-in-the-settler-colonial-mindset/.

14 على سبيل المثال، تمّ اعتقال مسؤولين وقادة مجتمعيّين فلسطينيّين في القدس الشرقية المحتلّة بسبب «جريمة» إنشاء محطات تعقيم والعمل على توجيه الناس للبقاء في منازلهم. وكانت التهمة الرسمية لهم هي «النشاط الفلسطيني في القدس»، الذي تعتبره إسرائيل «غير قانوني» في ظل سعيها إلى إبقاء القدس تحت سيطرتها الحصرية. انظر إيال وايزمان وشوريدة مولوي، «حالة الطوارئ ضد الفيروس في فلسطين» (The Viral Emergency in Palestine)، مدونة فيرسو بوكس، 20 نيسان 2020:
https//:www.versobooks.com/blogs-4674/the-viral-emergency-in-palestine

15 Sahar Atrache, "Double Quarantine in Gaza: Covid-19 and the Blockade," Refugees International, 9 September 2020: https://www.refugeesinternational.org/reports/2020/9/9/double-quarantine-in-gaza-covid-19-and-the-blockade#_edn9.

16 المرجع السابق.

17 Yonah Jeremy Bob and Gil Hoffman, "Shin Bet Confirms it is Currently Using Surveillance Tools," Jerusalem Post, 17 March 2020: https://www.jpost.com/breaking-news/use-of-digital-means-to-track-coronavirus-patients-approved-621237.

18 Ronen Bergman, "Israel's Not-So-Secret Weapon in Coronavirus Fight: The Spies of Mossad," New York Times, 12 April 2020: https://www.nytimes.com/2020/04/12/world/middleeast/coronavirus-israel-mossad.html.

19 Yoav Limor, "Military Intelligence Joins War on CCoronavirus," Israel Hayom, 27 March, 2020: https://www.israelhayom.com/2020/03/27/military-intelligence-joins-the-war-on-coronavirus/.

20 Adalah, "Adalah, ACRI File Supreme Court Petition Against Israel's Major Coronavirus Law," 10 September 2020: https://www.adalah.org/en/content/view/10122?mc_cid=8696610843&mc_eid=aef-8bad7e1

21 Israeli Supreme Court Decision, 26 April 2020: https://www.adalah.org/uploads/uploads/SCT_decision_Shabak_26042020.pdf

22 Adalah, "Adalah, ACRI File Supreme Court Petition."

23 Hazem Jamjoum, "Not an Analogy: Israel and the Crime of Apartheid," Electronic Intifada, 3 April 2009: https://electronicintifada.net/content/not-analogy-israel-and-crime-apartheid/8164.

24 انظر شيكوفي، ساخي. «العزلة الذاتية كسجن؟» (Self Isolation as Imprisonment?)،
مدونة سوليتيودز باست أند بريزينت، 27 نيسان 2020:
https://solitudes.qmul.ac.uk/blog/self-isolation-as-imprisonment/.

25 Mohammed Azaiza, "Will the Coronavirus Make You Empathize With Us Gazans?" Haaretz, 16 April 2020: https://www.haaretz.com/opinion/.premium-will-the-coronavirus-make-you-empathize-with-us-gazans-1.8774867.

الوباء والقهر الاستعماري والرأسمالي

أميرة سلمي

مقدمة:

الوبـاء يخلـق حالـةً مـن اللاعاديـة، فـوضى، وخروجـاً عـلى الأنظمـة والمعايـير المعتـادة، لكنـه أيضـاً يخلـق حالـةً مـن التطـرف، إذ تتخـذ الإجـراءات السـلطوية والممارسـات المؤسسـية والعاديـة شـكلها الأقـصى، وبالتـالي تفتـح المجـال لأن تكشـف عـن أبعادهـا غـير المرئيـة، هـو ذلـك المتطـرف الـذي يفضـح السـلطة كـما يـرى ميشـيل فوكـو، ولكنهـا أيضـاً يمكـن أن تأخـذ شـكل حالـة الاسـتثناء، كـما وصفهـا جورجيـو أجامـبن، وبينـما هـذه الحالـة أيضـاً تزيـل اللثام عـن نفاق الديمقراطيـة الليبراليـة التـي طالمـا تضمنـت الاسـتثناء ولكـن بشـكل مغطـىً، إلا أن الخطـر الـذي يكمـن هنـا هـو إعـلان حالـة الاسـتثناء وقبولهـا باعتبارهـا العـادي، وبـدلاً مـن أن يعنـي هـذا نهايـة لثنائيـة العـادي/ الاسـتثناء، فإنـه يعنـي خلـق -كـما سـمعنا كثـيراً خـلال الأشـهر السـتة الماضيـة- العـادي الجديـد، ومعـه طبعـاً الاسـتثناء الجديـد، طالمـا لم تتضمـن التحـولات التـي يخلقهـا الوبـاء تغيـيراً في جـذور وبنـى علاقـات السـلطة، بـل توسـيعاً لمداهـا ومجـال عملهـا (تدخلهـا)، وربمـا إضافـة عنـاصر سـلطوية جديـدة، وأشـكال أخـرى مـن القمـع والاسـتغلال.

هـذا المقـال سـيحاول أن يبـين كيـف سـلّط وبـاء «كورونـا» الضـوء عـلى الثغـرات، والفجـوات والإشـكالات في النظـام العالمـي القائـم، بالتركيـز عـلى الاسـتثناء الـذي مثلـه العـمال غـير المهـرة في مـا تـم اعتبـاره صناعـات أو أعـمالاً «حيويـة» و«ضروريـة» مـن إجـراءات الوقايـة الصحيـة التـي تـم تطبيقهـا في دول مختلفـة مـن العـالم بمـا فيهـا فلسـطين، حيـث تحـاول الورقـة أن تطـرح أسـئلة، مـن خـلال أمثلـة مختلفـة، عـن الكيفيـة التـي يصبـح فيهـا الاسـتثناء والقمـع أكـثر انكشـافاً في حالـة الوبـاء، ولكـن أيضـاً كيـف يصبـح مضاعفـاً بشـكل أكـبر، وإلى أي مـدى يـؤدي هـذا الانكشـاف إلى تطبيـع أشـكال القهـر والاسـتغلال المضاعفـة التـي يعانيهـا العـمال والفقـراء، محتويـاً إياهـا ضمـن العـادي الجديـد الـذي يخلقـه الوبـاء أو بالتحديـد أكـثر سياسـات وإجـراءات التعامـل معـه، بـدلاً مـن أن يكـون الكشـف عنهـا كشـفاً عـن التناقضـات التـي تقـوم عليهـا الرأسـمالية، وبالتـالي فتحـاً لإمكانيـة النضـال ضدهـا.

بالرغـم مـن أن الوبـاء يشـكل أزمـةً للنظـام القائـم، مسـبباً تصدعـات في الممارسـات اليوميـة والمؤسسـة، فإنـه مـن الصعـب أن يـؤدي إلى خلـق ثـورة، فبالرغـم مـن أن فلاسـفة مختلفـين، وعـلى رأسـهم هيغـل وفوكـو، اعتـبروا أنّ مواجهـة المـوت تشـكل لحظـة حريـة، فـإن الفـزع والذعـر اللذيـن يجلبهـما الوبـاء لا يرتبطـان أو يؤديـان إلى الحريـة بقـدر مـا يؤديـان إلى الفـوضى، هـذه الفـوضى والخـروج عـلى مـا هـو معيـاري أو منظـم يعمـلان عـلى إعطـاء الشرعيـة لتدخـل الدولـة واختراقهـا تفاصيـل حيـاة النـاس المختلفـة، بحيـث تصبـح للدولـة سـيطرة مبـاشرة عـلى الوجـود المـادي، إضافـة إلى الاجتماعـي للمواطنـين (Van den Berge, 2020: 3)، أي أنـه يتـم نـشر الفـزع واسـتثماره، ومـن ثـم تنظيمـه مـن قبـل المؤسسـات الاجتماعيـة والسياسـية المختلفـة بمـا يثبـت أو حتـى يعيـد تشـكيل ممارسـات القمـع والاسـتغلال التـي تقـوم عليـه.

يـرى سـلافوي جيجـك أن الخـوف ليـس الطريقـة التـي يجـب أن نتعامـل بهـا مـع الخطـر الحقيقي. فالتعامـل الجـدي مـع الوبـاء لا يكـون بـشراء كميـات مفرطـة مـن ورق التواليـت، ولكـن مـن خـلال تعـاون الـدول معـاً لتوفـير الأجهـزة والمـواد اللازمـة للعـلاج. جيجـك يشـبّه حالـة الوبـاء بحالـة الحـرب، حيـث تتدخـل الدولـة في الحـرب والحمـلات العسـكرية لتوفـير الأسـلحة اللازمـة، إضافـة إلى اعتمادهـا عـلى تعـاون الـدول الأُخـرى (نمـوذج أمريـكي بامتيـاز)، وأيضـاً كـما في الحملات العسـكرية تكـون هنـاك حاجـة للتشـارك في المعلومـات والتنسـيق في وضـع الخطـط، هـذا يسـميه جيجـك الشـيوعية المطلوبـة حاليـاً. ويتبنـى جيجـك الـرأي القائـل إن العولمـة القائمـة عـلى حريـة السـوق في حالـة احتضـار، ولكـن هنـاك إمكانيـة لعولمـة أخـرى تقـوم عـلى الاعتـماد المتبـادل والعمـل الجماعـي القائـم عـلى الدليـل والبرهـان! (a2020). مسـتخفاً بمعرفـة قرّائـه وعقولهـم، يتغـاضى جيجـك عـن أن النظـام القائـم، سـواء أكان بشـكله العالمـي المعـاصر، أم بشـكله الكلاسـيكي الـذي تأسـس في القـرن التاسـع عـشر، كان دائمـاً يقـوم عـلى الاعتـماد المتبـادل (رأس المـال لماركـس يبقـى المرجـع الرئيـسي هنـا فيـما يتعلـق بالاعتـماد المتبـادل، ولكنـه الأنـاني والتنافـسي في الوقـت

نفسـه، سـواء بـين الأفـراد أو الـدول، كمبـدأ أسـاسي تقـوم عليـه الرأسـمالية، وتعـززه مـن خـلال تقسـيم العمـل الـذي يضمـن إعـادة إنتـاج الفجـوات الطبقيـة وعلاقـات التبعيـة أو العبوديـة بـين الأفـراد كـما بـين الـدول)، وبالتـالي فـإن السـؤال يجـب أن يكـون فعليـاً عـن شـكل هـذا الاعتـماد المتبـادل، ولا يمكـن أن يتـم طـرح هـذا السـؤال كـما نعلـم مـن ماركـس، وكـما نعلـم مـن الواقـع دون طـرح السـؤال عـن تنظيـم العمـل والقـوى العاملـة محليـاً وعالميـاً، بمـا يشـمل نمـط الإنتـاج، والسـيطرة عـلى وسـائل الإنتـاج، وتقسـيم العمـل، وآليـات توزيـع منتجـات العمـل. أيُّ حديـثٍ عـن عـالم بديـل لا يطـرح هـذه الأسـئلة يبقـى غـير قـادر عـلى الخـروج عـن الحـدود التـي وضعتهـا الرأسـمالية للخطـاب «اليسـاري»، ويبقـى محـدوداً ببرجوازيتـه وغربيتـه، وفي حالـة جيجـك بشـعبويته (هـذه التوصيفـات مـن دون شرح ولـو جـزئي تبقـى عصيـة عـلى فهـم القـارئ العـادي).

يدفـع جيجـك عـن نفسـه تهمـة المثاليـة الليبراليـة بتأكيـد أن التضامـن الـذي يتحـدث عنـه لـه أسـاس مـادي في فكـرة أنّ البقـاء هـو مـن «مصلحـة الجميـع، ومصلحـة كل واحـد فينـا» (2020a)، وطبعـاً جيجـك، ضمـن شـعبوية الخطـاب الـذي يتبعـه، لا يعتـبر أن هنـاك أيَّ حاجـةٍ للوقـوف عنـد مصطلـح المصلحـة، ومعانيهـا المرتبطـة بسـياقاتها الثقافيـة، والاجتماعيـة، والتاريخيـة، والأيديولوجيـة، (التـي أدت إلى هـوس أمريـكي باقتنـاء كميـات هائلـة مـن ورق التواليـت، واصطفـاف الطوابـير أمـام مخـازن الأسـلحة)، كـما أنـه لا يـرى أنـه مـن الـضروري التمييـز بـين مـا يشـكل «مصلحـة كل واحـد فينـا» ومـا يشـكل «مصلحـة الجميـع»، بحيـث نشـعر كأننـا بحاجـةٍ لتذكـير الفيلسـوف أن المجمـوع الـكلي للأجـزاء بالمنطـق الريـاضي والفلسـفي يختلـف عـن جمـع الأجـزاء المنفـردة. بـل بالعكـس لا مشـكلة عنـد الفيلسـوف أن يعتـبر أن الأنانيـة العقلانيـة سـتكون الدافـع الأسـاسي وراء هـذا التعـاون، عـدا عـن إشـكالية التناقـض في الحديـث عـن نظـام عالمـي بديـل لكـن يقـوم عـلى نفـس الأسـس والمبـادئ الرأسـمالية الأساسـية، وتبقـى المشـكلة الأهـم في طـرح جيجـك متمثلـةً في السـؤال عـن مـن هـم الجميـع الذيـن تتماثـل مصالحهـم.

في مقـالٍ آخـر سـابقٍ لـه في بدايـة انتشـار الوبـاء في شـباط المـاضي، يـرى جيجـك أنّ التهديـد العالمـي يولـد تضامنـاً عالميـاً، بحيـث تصبـح الاختلافـات الصغـيرة غـير ذات أهميـة، وهـذا الخطـر يدفعنـا للعمـل معـاً مـن أجـل إيجـاد حـل، وبالرغـم مـن أنـه مـن المحـزن أن الكارثـة هـي مـا تجعـل النـاس يعملـون معـاً ويتغاضـون عـن خلافاتهـم، بالنسـبة لجيجـك الفـيروس هـو الـذي يـؤدي إلى محـو الاختلافـات بـين النـاس ومسـاواتهم بمـا أنـه لا يميـز بـين غنـي وفقـير (2020b)، إلا أن جيجـك فعـلاً يـرى أن هـذا مـا سـيؤدي إليـه الوبـاء، مقتنعـاً تمامـاً بـأن الاختلافـات بـين النـاس وضيعـة مقارنـة بالفـيروس، وهـو متوقـع مـن هـؤلاء الذيـن لا يعرفـون أن أعـداد هـؤلاء الذيـن يموتـون جوعـاً أو يموتـون في الحـروب التـي تشـعلها الإمبرياليـة أكـثر بكثـير ممـن يموتـون بالفـيروس، لكـن مشـكلة جيجـك هـي مشـكلة الفيلسـوف الغـربي غـير القـادر عـلى أن يـرى خـارج إطـار دائرتـه المحـدودة جـداً.

قـد نتوقـع كـما توقـع جيجـك، أو كـما كتـب ألـبرت كامـو (2013)، أن الوبـاء -كـما كل الـشر في العـالم- يسـاعد النـاس عـلى الترفـع عـن أنفسـهم، وتجاوزهـا في محاربتهـم لـه، وأنـه لا يعـود هنـاك وجـود لمصائـر فرديـة، بـل فقـط مصـير جماعـي واحـد، يشـكله الوبـاء والعواطـف التـي يتشـارك بهـا الجميـع، ومعهـا الشـعور بالمنفـى والحرمـان، ومـا يتبعهـا مـن ثـورة وخـوف. أي فكـرة أن الوبـاء بتهديـده للجميـع يفـترض أنـه يعـزز المسـاواة، ولكنـه، كـما يبـين كامـو لاحقـاً في روايتـه عـن الوبـاء، فعليـاً يقـوم بالعكـس، إذ يـزداد الشـعور بعـدم العدالـة في قلـوب النـاس، ففـي النهايـة ليـس المطلـوب المسـاواة في المـوت، كـما أن هـذا الشـكل مـن المـوت المعـزول، يجـرد الحيـاة والمـوت مـن آخـر مـا تبقـى فيهـما مـن جماعيـة، وبالتـالي مـن احتـمالات المعارضـة أو المقاومـة.

ففـي «حالـة الاسـتثناء» التـي يخلقهـا الوبـاء تصبـح حيـاة النـاس المجـردة موضوعـاً لسـلطة الدولـة المبـاشرة. وكـما يـرى أجامـبن أن ذلـك يحـدث حاليـاً مـع جائحـة «كورونـا» في الـدول الغربيـة، إذ يوفـر الوبـاء -مثلـه مثـل الإرهـاب- ذريعـةً للدولـة لاتخـاذ إجـراءات اسـتثنائية. وبالنسـبة لأجامـبن، تكمـن المشـكلة فيـما يُطلـب مـن النـاس التضحيـة بـه مـن أجـل الأمـن، بحيـث تكـون حمايـة الحيـاة المجـردة عـلى حسـاب أي شيء آخـر. ويتـم تجريـد حيـاة النـاس مـن أبعادهـا السياسـية والاجتماعيـة واختزالهـا في بعدهـا البيولوجـي. الخـوف فعليـاً ليـس مـما يحـدث الآن، وفقـاً لأجامـبن، بـل عـلى مـا يمكـن أن يترتـب عـلى الأزمـة لاحقـاً، بشـكل أسـاسي التدخـل التكنولوجـي للحـد مـن الحيـاة السياسـية والحريـة (2020a).

بالنسـبة لأجامـبن تكمـن المشـكلة في الإجـراءات التـي قامـت بهـا الحكومـة الإيطاليـة كـما غيرهـا مـن الحكومـات التـي فرضـت التباعـد الاجتماعـي أو منعـت الحركـة، في أنهـا تحـوّل كل إنسـان إلى «معـدٍ محتمـل»، وهـي بذلـك تشـبه القوانـين والإجـراءات التـي تـم اتخاذهـا في محاربـة الإرهـاب، هـذا الشـبه يصبـح واضحـاً عندمـا يتـم تهديـد كل معـدٍ محتمـل لا يلتـزم بالتعليـمات بالسـجن. ويتـم رسـم صـورة شريـرة للشـخص الـذي لا تظهـر عليـه الأعـراض ولكنـه معـدٍ محتمـل يقـوم بإيـذاء الآخريـن معديـاً إياهـم دون أن يكونـوا قادريـن عـلى الدفـاع عـن أنفسـهم (2020a).

المشـكلة الأخطـر التـي رآهـا أجامـبن تكمـن في تحلـل العلاقـات بـين النـاس وتتضمنهـا إجـراءات مكافحـة الوبـاء، فكـرة أنـه لا يجـوز الاقـتراب مـن إنسـان آخـر أو لمسـه، مـا يعنـي اختفـاء علاقـات الجـيرة بـين النـاس. الوضـع الـذي أدت إليـه هـذه الإجـراءات هـو إغـلاق المـدارس والجامعـات، وتحويـل الـدروس لصفـوف إنترنـت، بحيـث لا يعـود هنـاك مجـال للقـاء أو الحديـث في السياسـة أو الثقافـة بـين النـاس، ولا يبقـى بينهـم سـوى رسـائل رقميـة، أي حلـول الماكينـات مـكان أي اتصـال (أي عـدوى) بـين البـشر (2020f)، بـدلاً مـن التضامـن والنضـال الجماعيَّـيْن.

مـن هنـا، فعـلى العكـس مـن موقـف جيجـك، يُبـيّن أجامـبن أن الخـوف الـذي يتضمنـه الوبـاء يكشـف عـن الكثـير مـن الأشـياء التـي يغـض النـاس الطـرف عنهـا، وأهمهـا أن المجتمـع لم يعـد يؤمـن بـشيء سـوى الحيـاة المجـردة، بحيـث يصبـح النـاس مسـتعدين للتضحيـة بـكل شيء: ظـروف

الحيـاة العاديـة، والعلاقـات الاجتماعيـة، والعمـل، والصداقـات، والعواطـف، ومعتقداتهـم الدينيـة والسياسـية عندمـا يواجهـون بخطـر المـرض. أي أن الحيـاة المجـردة والخـوف عليهـا ليسـت شـيئاً يوحّـد النـاس، بـل يعميهـم ويفصلهـم (2020e)، ولا يعـود هنـاك أي قيمـة في المجتمـع سـوى النجـاة، والنجـاة لا تكـون مـن عـدو خارجـي يتوحـد المجتمـع ضـده، بـل مـن عـدو موجـود داخـل كل واحـد منـا، وبالتـالي مـا يمكـن أن يـؤدي إليـه الوبـاء (أو بالتحديـد سياسـات وإجـراءات «محاربتـه») هـو تعزيـز لانفصـال الإنسـان عـن ذاتـه، الـذي بدأتـه الرأسـمالية في قرونهـا الأُولى.

حالـة الذعـر والخـوف واللاأمـان التـي يخلقهـا الوبـاء تـؤدي فقـط إلى تعزيـز نزعـة السـيطرة عـلى المصـير التـي قـام عليهـا التنويـر الغـربي، وهـي نزعـة تـؤدي إمـا إلى تسـليم المصـير كليّـاً للدولـة والتحـول نحـو المواطنـة الأنانيـة التـي وسـمت الديمقراطيـة الليبراليـة في الغـرب، أو إلى الفـوضى حيـث يتـم التعامـل مـع كل فـرد باعتبـاره عـدواً مهـدداً للحيـاة، وفي كثـير مـن الأحيـان تترافـق هاتـان السـمتان معـاً، ولكـن بدرجـات مختلفـةٍ مـن كلٍّ منهـما، لكـنّ حالـة الأزمـة أو حالـة الطـوارئ تقـوم عـلى شـكلٍ مفـرطٍ مـن الفـزع والذعـر، بحيـث لا يعـود الإنسـان قـادراً عـلى إدراك إنسـانيته بمعنـى كونـه كيانـاً اجتماعيـاً سياسـياً وأخلاقيـاً، وبالتـالي لا يعـود قـادراً عـلى إدراك إنسـانية الآخريـن، هـذا مـا يعنيـه أجامـبن عندمـا يتحـدث عـن الكيفيـة التـي يختـزل فيهـا الوبـاء، أو بشـكل أدق الذعـر الـذي يثـار حـول الوبـاء، كينونـة الإنسـان إلى حيـاة مجـردة. ومـع أن هنـاك احتماليـة لـشيء إيجـابي يتضمنـه الوبـاء، كـما يـرى أجامـبن، في أنـه يدفـع النـاس إلى طـرح السـؤال عـما إذا كانـت طريقتهـم السـابقة في الحيـاة صحيحـة أم لا، ولكـن مـع ذلـك، لا يمكـن أن يكـون الخـوف مـن فقـدان الحيـاة أساسـاً لعمـل تقدمـي أو ثـوري، بـل عـادة تنتـج عنـه سـلطة قمعيـة تضـع السـيف عـلى رقـاب النـاس بمـبرر حمايتهـم مـن أنفسـهم (2020d).

الاتصـال والنقـل يمثـلان الأشـكال الاجتماعيـة للعـدوى، بحيـث لا تكـون العـدوى مقتـصرة عـلى بعـد بيولوجـي. هـذا يعنـي أنـه يكـون عـلى الدولـة أن تعمـل عـلى إدارة عمليـة الانتشـار هـذه وتنظيمهـا ضمـن دورهـا «الأمنـي»، ولكـن في حالـة الوبـاء تعـود الإشـكالية لتظهـر في السـؤال: «كيـف يمكـن تأمـين شيء معقـد، غـير ثابـت وغـير قابـل للتوقـع مثـل الانتشـار؟» (Thacker, 2009: 143). فكـما رأينـا عنـد أجامـبن، يكـون المريـض بالوبـاء هـو الحيـاة التـي يجـب تأمينهـا (إنقاذهـا مـن المـوت) ويجـب التأمـين ضدهـا. وبهـذا، فـإن الوبـاء، بانتشـاره بطبيعتـه المجـردة، وبقدرتـه عـلى التجسـد، يصبـح شـبيهاً بالشـيطان وطريقتـه بالعمـل، ويتحـول الطبيـب الـذي يحاربـه إلى كاهـن الكنيسـة، الـذي يمكنـه أن يعـذب أو يحـرق أو يقتـل البـشر ليخلصهـم مـن شـياطينهم (Agamben, 2020b; Thacker, 2009: 148). هـذه الطريقـة في التعامـل مـع الوبـاء كشـيطان وتجسـد شـيطاني حيـث الضحيـة ضحيـة ومذنـب في الآن الواحـد، تعنـي أنـه في حالـة الوبـاء لا نعـود نتحـدث عـن حقـوق صحيـة، ولا عـن دور الدولـة في توفـير رعايـة صحيـة ملائمـة بعيـداً عـن علاقـات وآليـات السـوق، بـل يصبـح الحديـث في هـذه الحالـة عـن كيـف تصبـح الصحـة واجبـاً عـلى الفـرد كقضيـة أمنيـة (Agamben, 2020b).

الوباء في الشرط المستعمَر

الخوف والفزع اللذان مكّنا السلطات في الدول الأوروبية (وغير الأوروبية كالصين وروسيا والهند وكوريا والبرازيل وجنوب أفريقيا وغيرها) من تحويل القضية الصحية إلى قضية أمنية، مثلها مثل الإرهاب، ارتبطا إلى حدٍّ كبير، كما يبين صبيح صبيح، بالكيفية التي كشف بها الوباء عن «وهم اليقين»، أي عدم القدرة على التيقُّن أو التوقع، وقامت عليها الحداثة الغربية بفلسفتها وعلمها وكذلك اقتصادها، فالوباء بهذه الطريقة، كما يرى صبيح، «أعاد الحقيقة إلى الواجهة» (2020).

لكن مشكلة إرادة السيطرة ووَهْم اليقين والقدرة على التوقّع من الصعب أن تنطبق على مجتمع تحت الاستعمار، حيث اللاثبات واللااستقرار والمخاطرة والمجازفة، (وكلها تصب في حالة اللايقين)، تشكل سمات الحياة اليومية والعادية في مجتمع المستعمَرين.

مع ذلك، لم يكن تأثير وجود الوباء واحداً على جميع فئات الشعب الفلسطيني، فقد كان الخطاب والحديث حول الوباء بين الناس مختلفاً من طبقة لأخرى ومن منطقة لأخرى، مع ميل أكبر لدى الطبقة الوسطى من موظفين وتكنوقراط في رام الله للهلع من فقدان السيطرة والقدرة على التوقع، كما ظهر بشكل أساسي في ردود أفعالهم عند بداية عودة العمال الفلسطينيين من الداخل، ووصمهم كحاملين وناشرين للوباء. بمعنى أنّ الوهم الذي كان، وهو مضاعف عما هو غربي في حالة النخبة المستعمَرة، لم يسقط، بل كان الأساس الذي عليه قام الهلع من فقدان يقين لم يكن موجوداً أصلاً، ولكنه مرتبط بمشروع بناء الدولة الذي خلق وهم حياةٍ مستقرةٍ لدى الكثير من شرائح النخبة في مدينة رام الله بالتحديد.

مع ذلك فإن حقيقة أن المجتمع الفلسطيني هو مجتمع مستعمَر، حيث اللايقين: عدم الاستقرار والمجازفة المتضمنة في أي نشاط يمكن أن يقوم به الإنسان الفلسطيني، كانت وراء الكيفية المختلفة التي تعامل بها الفلسطينيون، وبشكلٍ خاصٍّ العمال، مع اللايقين الذي يفرضه الوباء. فاللايقين الخاص بالوباء، الذي يتم التعامل معه ضمن وهمية اليقين الأول، لم يكن قادراً على أن يأخذ الأبعاد التي يمكن أن يأخذها في مجتمعٍ تحكمه الديمقراطية البرجوازية، أيْ أن يتحول إلى مصدر سلطةٍ تضبط حياة الناس وتوجه سلوكهم، حيث يبقى طغيان الحالة المستعمَرة سياسياً واقتصادياً غالباً على أيّ إمكانيةٍ لفرض سيادة سلطةٍ حيوية، بشكلها العادي أو الاستثنائي، وقد ظهر ذلك بشكلٍ واضحٍ في حالة العمال الفلسطينيين، كما في حالة فئاتٍ أُخرى رفضت الخضوع لإجراءات «الطوارئ».

رجال في الشمس: الموت المتكرر

مع بداية انتشار الوباء في فلسطين في آذار 2020، وجدت السلطة الفلسطينية نفسها في

وضع أيّ حكومةٍ أُخرى تخضع لإملاءات استعمارية نيوليبرالية، ففي البداية لم تجد السلطة أنّ بإمكانها منع حركة العمال المستمرة على جانبي الخط الأخضر، وفي تغاضٍ عن الشرط الاستغلالي لحركة العمال الفلسطينيين على جانبي الخط الأخضر، اعتقدت السلطة أنه بإمكانها الاكتفاء بمطالبة الاحتلال (الشريك الاقتصادي في الرؤية النيوليبرالية) بتوفير ظروف عمل آمنة صحياً للعمال. لكن، وبما أن عمل المستعمَرين عند المستعمر مشروطٌ بكونهم جيش احتياط رخيصاً أو عمالةً فائضة، فإنّ مثل هذه المطالبة كانت غير واقعية.

وبالفعل بعد أول عامل تمّ رميه على قارعة الطريق بعد الاشتباه بإصابته بالمرض، قامت الحكومة الفلسطينية بمطالبة العمال بالعودة إلى منازلهم. لكن، هنا تم التغاضي مرةً أُخرى عن قضيتين رئيسيّتين: الأُولى أنّ العامل المأجور في وضع رأسمالي لا يعود له وجود إلا كعامل، وبالتالي اللجوء إلى معايير برجوازية للمواطنة الصالحة لا تنطبق على العامل الذي لا يمكنه أن يدرك نفسه إلا كعامل (بتعبيرٍ آخر، العامل بحاجة إلى بيع قوّة عمله بالأساس ليُعيل نفسه وأُسرته)، قد يفسر هذا شعور العديد من العمال الفلسطينيين بالحاجة إلى تأكيد وطنيتهم، واصطفافهم خلف رئيس السلطة، ولكن المخاطرة والمجازفة اللتين تسمان حياتهم كعمال لم تكونا عاملاً يحُول دون ذهابهم إلى العمل. أما القضية الثانية، فهي تعكس التناقض بين فكرة السيادة السياسية الوهمية للسلطة الفلسطينية، وبالتالي قدرتها على ممارسة سلطة حيوية، وبين تبعيتها الاقتصادية وافتقارها لأي شكل من السيادة «الأمنية» على الأرض. فالسلطة الفلسطينية نفسها أسست لعلاقة تبعية مع الاحتلال، يشكل العمال الفلسطينيون في الداخل والمستوطنات (إنكار شرعية هذا العمل لا تغير شيئاً بالنسبة لهذه القضية) عنصراً أساسياً فيها، بحيث لم يكن العمال نقطة الضعف في الجسد الفلسطيني السليم كما تم وصفهم، بل كانوا العَرَض الأساسي لمرض هذا الجسد.

لقد عمل المشروع الاستيطاني الصهيوني، كمشروع استعماري رأسمالي مبدأُه الأساس الاقتلاع من الأرض، على تحويل الفلسطينيين من مجتمع فلاح إلى مجتمع من العمال الذين يعملون في مهن غير زراعية، سعياً وراء أُجورٍ أعلى تُلبي الحاجات المستمرة التي تنتجها الرأسمالية لتضمن إعادة إنتاج رأس المال وتراكمه (Khamaisi, 2013: 204). وكما يبين عادل سمارة، فإنّ مصادرة الأراضي، إضافة إلى منع الصادرات الزراعية الفلسطينية، وتشجيع إنتاج محاصيل تطلبها السوق الإسرائيلية، كل ذلك أضر بالمنتجين المستقلين والصغار الذين إما صودرت أراضيهم أو لم يعودوا قادرين على منافسة المنتجات التي يُدخلها الاحتلال على السوق الفلسطينية، بالتالي لم يكن أمام القوة العاملة في القرى الفلسطينية التي لم تتمكن من إيجاد وظائف في البلدات الفلسطينية إلا أن تهاجر إلى الدول العربية الغنية بالنفط، أو أن تعمل في الداخل لدى المشغلين الإسرائيليين (Samara, 2000: 22).

ويتسم العامل الفلسطيني في الداخل المحتل: المستوطنات والمناطق الصناعية المشتركة

أو العالمية المقامة على حدود الضفة، بكونه عاملاً رخيصاً، ويتركز في أعمالٍ تقع في أدنى مستويات سوق العمل الإسرائيلي: بشكلٍ أساسيٍّ البناء والزراعة والتنظيف. ويتم التعامل مع العامل الفلسطيني في الداخل كما يتم التعامل مع العامل المهاجر، ما يعطيه سمات العامل المهاجر، من حيث كونه رخيصاً، وقابلاً للاستغلال، وغير مؤهل أو مستحق لأي من حقوق العمل التي يتمتع بها العامل الإسرائيلي، وفي الوقت نفسه دون التكلفة السياسية أو الاقتصادية التي قد تترتب على استقدام عمال مهاجرين أو أجانب.

ما يميز العمال الفلسطينيين أنه يمكن إبقاؤهم في أماكنهم، أي في المعازل المخصصة لهم، يعملون في الداخل يومياً أو أسبوعياً ثم يعودون في النهاية إلى المعازل التي أحاطتها إسرائيل بجدران وأغلقتها بحواجز عسكرية، وهو ما لا يمكنها أن تقوم به في حالة العمال المهاجرين الذين يبقون داخل المجتمع الإسرائيلي، وقد يقررون أن يبقوا ويتحولوا إلى مواطنين لهم حقوق، وهو ما لا يريده الاحتلال، خاصة عندما يكون من يأتي ليكون مواطناً ليس يهودياً أُوروبياً أيضاً، بل ملونٌ وفقيرٌ من أفريقيا أو آسيا.

كما أن السياسات الاستعمارية الاستيطانية على الأرض: فتح الأسواق للاستثمار الأجنبي والخصخصة، إضافة إلى التقدم التكنولوجي والاعتماد على العمل الإلكتروني، أدت إلى زيادة ضعف العامل الفلسطيني في سوق العمل الإسرائيلية وحصره في قطاعات محددة بأجور متدنية وأمن وظيفي شبه معدوم (Abu Asbah and Abu Nasra, 2013: 219). هذا الضعف ليس ناتجاً فقط عن سياسات الخصخصة والليبرالية الجديدة التي تبنتها حكومة الاحتلال، لكنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوضع المستعمَر للعامل الفلسطيني الذي يجعله أكثر قابلية للاستغلال، حيث يبقى هناك ارتباط بين رؤية الفلسطينيين كتهديدٍ لوجود الكيان الصهيوني، وبالتالي الحاجة والرغبة في التخلص منهم، وبين وضعهم الضعيف، المؤقت والهامشي كعمال. في المحصلة النهائية، يصبح تشغيل الفلسطينيين مصدراً للقوة السياسية وأساساً للتنافس بين الأحزاب الإسرائيلية، وغطاءً لعمليات القمع والنهب الاستعماري، وحتى لتغطية عجز السلطة الفلسطينية وفشلها في تحقيق أي تقدم سياسي أو اقتصادي للفلسطينيين (Rosenhek, 2003).

ويُبين سمارة أن حالة التبعية والسيطرة الاقتصادية السياسية تعززت مع اتفاق أوسلو، فبروتوكول باريس واتفاق أسلو أهملا قضية السيادة الفلسطينية على الأرض، بحيث لا يكون بمقدور الفلسطينيين وضع خطة تنمية خاصة فيما يتعلق بالزراعة. كما أنّ الاتفاقية تحدد السلع المسموح تصديرها أو استيرادها، مع إعطاء أفضلية للاحتلال في التصدير للضفة وغزة. كما يتضمن الاتفاق الحديث عن تعاون في مجال تبادل العمل، مع قدرة كل طرف على تحديد هذه الحركة. لكن، فعلياً بقيت حركة العمال الفلسطينيين في يد الاحتلال، بشكلٍ أساسيٍّ بذريعة الاعتبارات الأمنية، أي كوسيلة ابتزازٍ سياسيٍّ واقتصاديٍّ للسلطة كما للناس والعمال أنفسهم، وفي الوقت نفسه لم يكن أبداً بمقدور السلطة سياسياً أو اقتصادياً أن

تسيطر على حركة العمال الفلسطينيين إلى الداخل المحتل، حيث وضعت «خططها» على أساس الاعتمادية على عمل الفلسطينيين كعمال في الداخل، بدلاً من إستراتيجيات تنمية تضمن لها حداً من الاستقلالية عن الاقتصاد الإسرائيلي (Samara, 2000: 23).

العمل في الداخل المحتل: الإجبار والمجازفة

يبين تقرير لمؤسسة حقوق العامل الإسرائيلية أن خصخصة سلطات الدولة ونقل المسؤوليات إلى المشغلين زادا من تقييد العمال، ومن أشكال العمل القسري، فتصريح العمل يُسجَّل باسم مشغل محدد، ويكون مسموحاً للعامل الفلسطيني أن يعمل مع هذا المشغل فقط، وترك المشغل يعني خسارة التصريح، ما يعني أنّ العامل مقيد بالمشغل ويكون معتمداً كلياً عليه. هذه الترتيبات تم وصفها في حالة العمال المهاجرين بأنها «شكل من أشكال العبودية بلباس حديث»، كما تم اعتبارها غير قانونية من المحكمة العليا الإسرائيلية، لكن هذا ينطبق فقط على «العمال المهاجرين» (Kav LaOved, 2018: 18). ربط العمال القانوني بمُشَغِّلٍ محددٍ لا يعني أنهم يقومون بالضرورة بالعمل للمشغل المسجل، بل بالعكس كيفية توزيع التصاريح، وإصدارها وربطها بمتعهدين أو مشغلين معينين، كل ذلك أدى إلى ظهور تجارة التصاريح، بحيث يقوم المشغل المسجل بتحويل العمال إلى مُشغّلٍ آخر، ويحصل مقابل ذلك على رسوم يتحمل تكلفتها العامل الذي يكون عليه دفع مبالغ طائلة للسماسرة. فعلياً أكثر من نصف العمال الفلسطينيين لا يعملون لدى المُشغل الذي حصل لهم على تصاريح، ويتكلف العامل آلاف الشواقل شهرياً لعملية التحويل هذه بين المشغل المسجل وذلك الفعلي (19).

حتى مع حصول العمال على تصاريح للعمل في الداخل، فإن حركتهم في الداخل تبقى مقتصرة على مكان العمل، ولا يجوز لهم التواجد في أماكن أُخرى، ويكون على المشغل الإسرائيلي أن ينقلهم من الحاجز إلى موقع العمل، ومن موقع العمل إلى الحاجز، وحتى هؤلاء الذين يسمح لهم بالمبيت في الداخل لا يكون مسموحاً لهم مغادرة مكان العمل، ويكون مُشغلهم بمثابة السلطة التي تمنعهم من حرية الحركة (15).

تبعية العامل هذه واعتماده على مشغله يتركانه عرضةً لأشكالٍ أُخرى من الاستغلال، إذ يقوم المشغلون بالتحايل على دفع الفوائد الاجتماعية للعمال، مثلاً من خلال دفع جزءٍ من الراتب نقداً، حتى لا يضطروا إلى دفع نسبةٍ أكبر للفوائد الاجتماعية، مثل: التقاعد والتعويضات ودفعات الحوادث التي يتم احتسابها على أساس أجرٍ أقلّ من الأجر الفعلي للعامل، ولا يتم الالتزام بتقرير الحد الأقل من أيام العمل الفعلي، وبالتالي يصبح من الممكن انتهاك حقوق العمل التي تترتب عليها (25).

ولا يطالب العمال الفلسطينيون بتعويضات الحوادث أو الإصابات، جزء من الموضوع قلة

المعرفة، وجزء منه خوفهم من خسارة أيام عمل، وخوفهم من التعامل مع السلطات. وفي حالاتٍ أُخرى، كانت المشكلة في عدم قيام صاحب العمل بتقديم النماذج المطلوبة لحصول العامل على فوائد الإصابة. الرسوم الصحية التي يتم خصمها من أجور العمال لا يتم تحويلها للسلطة الفلسطينية، بل لوزارة المالية الإسرائيلية، التي لا تلتزم برعاية العمال، وكذلك المبالغ المقتطعة للخدمات الصحية في الوظيفة لا تصل إلى مستحقيها (37).

ولا يملك العمال الفلسطينيون أيَّ تمثيلٍ نقابيٍّ أو حمايةٍ من أي جهةٍ كانت (34)، فيما اللجنة المشكّلة للتواصل ما بين اتحاد نقابات العمال الفلسطينيين وبين «الهستدروت» لم تعمل شيئاً لتغيير وضع العمال المستغَلين أو حمايتهم، بل مجرد جدل متبادل وتنافس على مستحقات العمال الفلسطينيين بين المنظمتين.

ثمن يوم العمل الطويل لا يقتصر على الصعوبة والتعب وغياب أيّ وقتٍ إضافي، بل تتبعه أيضاً مخاطر العمل، خاصةً في قطاع البناء، القطاع الأكثر خطراً (17). وتصل نسبة العمال الفلسطينيين في قطاع البناء إلى 18%، معظمهم يعملون في الجزء الأكثر عرضة للاضمحلال من هذا القطاع، ومع ذلك فإنه خلال السنوات العشر الماضية كان هناك تزايد في النسبة المخصصة لقطاع البناء من العمال، هذا عدا عن العمال الذين يعملون في المستوطنات ولا يحتاجون لتصاريح (12). ويشكل العمال الفلسطينيون نسبة كبيرة من الإصابات المميتة -تقترب من نصفها- في قطاع البناء: 47% في 2016، وتقريباً النصف في 2018. في حالات الحوادث غير المميتة، أكثر من نصف المصابين في قطاع البناء هم عمال فلسطينيون. ولكن فقط 5% من العمال الذين يتلقون تعويضات عن الإصابات في قطاع البناء هم من العمال الفلسطينيين، بالرغم من وجود بيانات تشير إلى أن إصابات العمال الفلسطينيين في قطاع البناء خاصة، أكثر خطورةً من تلك التي يتعرض لها العمال الإسرائيليون، ويكون وقت التعافي اللازم لها قبل عودتهم للعمل أطول (35).

وبينما يُبيّن الوصف السابق الاستغلال الذي يتعرض له العمال القانونيون (الذين يحملون تصاريح)، فإن أشكالاً أخرى من الاستغلال والمعاناة يختبرها هؤلاء الذين لا يملكون التصاريح اللازمة ويسعون لإيجاد عمل في الداخل، فيحدث أن يضطر العمال لأن يهرّبوا أنفسهم داخل سيارات، أو حاوية ماء أو شاحنة بضائع، أو حتى شاحنة خلط خرسانة. وعادةً تكون عملية التهريب عبر متخصص تهريب -مُهرِّبٍ مختصٍّ موجودٍ داخل الخط الأخضر أو خارجه أو قادرٍ على التنقل عبره-، وبالتالي تكون تكلفة الانتقال عبر الخط الأخضر عالية، سواء من الناحية المالية أم من ناحية المخاطرة في الوصول، بحيث يفضل معظمهم أن يبقى طوال الأسبوع في الداخل، وبعضهم قد يبقى أسبوعين أو شهراً، وكثير منهم لا يضمنون أن يجدوا عملاً بعد عملية التهريب، وبالتالي فإنهم يعودون إلى بيوتهم، وقد يحتاجون أن يستدينوا أُجرة العودة (بونتو، 2011: 6).

هؤلاء العمال بمجرد نزولهم إلى العمل يقبلون المخاطرة، وتكون المخاطرة الوسيلة لتوفير سبل العيش بالنسبة لهم، فحتى «القانونيون منهم» الذين يحملون تصاريح، فإنهم يخاطرون عندما يختارون المبيت في الداخل وعدم العودة في الوقت المحدد في التصريح، لتوفير جزءٍ من التكلفة التي تترتب على تنقلهم اليومي عبر الخط الأخضر. قانونية عملهم نفسها تصبح الشرط الذي يؤدي إلى لاقانونيته بسبب القيود الكبيرة التي تفرضها على العمال، ما يؤدي مرة أخرى إلى اللاقانونية، حيث يحاول العمال بشكلٍ مستمرٍّ الالتفاف على الممارسات والقوانين الإسرائيلية فيما يتعلق بعملهم في «الداخل» وقدرتهم على الوصول إليه (7).

وإلى جانب المخاطرة التي تشكل عنصراً أساسياً في ظروف عمل العمال الفلسطينيين في الداخل، يرى العمال أنّ وصولهم إلى الداخل وعملهم هناك يعتمدان بشكلٍ كبيرٍ على ما يعتبرونه «حظاً»، فأَنْ يقع العامل في قبضة جنود الاحتلال أثناء محاولته عبور الخط الأخضر يكون قضية حظ، وكذلك قضية أن يجد عملاً عندما يتمكن من الوصول إلى «موقف العمل» في الداخل، فبعضهم يجد فرصةً للعمل، وبعضهم يعود دون عمل. ومع المخاطرة والحظ يأتي الخوف، الخوف من الاعتقال، والإذلال و»البهدلة»، وهذان الأخيران واردان، سواء أتَمَّ الإمساكُ بالعمال أم لا، وسواء أوَجدوا عملاً أم لا. البهدلة والإذلال مرتبطان بالاستغلال الذي يتعرض له العمال من المهربين، ومن أصحاب العمل، ويضطرون لقبول هذا الاستغلال بسبب وضعهم اللاقانوني. كما أن هناك بهدلة المبيت في الداخل وعدم القدرة على العودة إلى الضفة، حيث يضطرون في أغلب الأحيان إلى الاختباء «في المباني قيد الإنشاء أو يبيتون أيضاً في الخلاء، وأحياناً في مكبات النفايات أو بين الشجر. ويصبح المكان الذي ينامون فيه -وفقاً لحديثهم- رمزاً للانكشاف المادي الذي يؤثر بالدرجة الأولى على إدراكهم لكرامتهم، وفي حديثهم يأتون مراراً على ذِكر البرد والقذارة ونقص المياه والنوم والأكل أرضاً وعدم القدرة على النوم» (8).

وبالرغم من حديثهم عن الخوف كظرفٍ دائمٍ في حياتهم، وعن المخاطرة والظروف الصعبة التي يعيشونها ويخوضونها من أجل العمل في الداخل، فإنهم يصرون على أن «وضعنا في إسرائيل أفضل»، وتقييم ومعيار الأفضل هنا هو بالضرورة الأجر الذي يحصلون عليه من عملهم في الداخل، بحيث لا يعود العامل يرى في نفسه إلا قوة عمل يقيّمها من خلال الأجر الذي يحصل عليه مقابلها، وليس صدفة أنه حتى مع هذه التصريحات عن أن العمل في «إسرائيل أفضل» تبقى دائماً كلمة «مجبور» مرافقة لها،" أنا مجبور، شو بدي أعمل، مافيش بديل، مافيش حل ثاني...»، ومعها، «وضعنا أفضل في إسرائيل" (بونتو، 2011: 9). في إشارة واضحة لاختزال الأفق في حياة العمال، ولقسرية العمل التي تستمد غطاء شرعياً لها من عمليات الاستغلال الرأسمالي والسلب والهيمنة الاستعمارية التي تصل بالعامل للمقولتين معاً. وفي مثل هذه الحالة، يصبح من الصعب أن يجد خطاب عن الصحة، صحة الفرد والمجتمع، عن الوقاية من المرض، والتحذير من الموت الذي يجلبه الوباء، أي صدى لدى

عـمال يغامـرون يومياً بحياتهـم، سـواء في عبـور الحواجـز، أو في أماكـن العمـل، أو في مبيتهـم، وهـي مجازفـة يوميـة يدفعهـا الخـوف مـن مجازفـة أخـرى تتمثـل في الفقـر، والتجويـع الـذي تتواطـأ فيـه قـوى اسـتعمارية اسـتيطانية وإمبرياليـة ومحليـة.

حيوات فائضة

الوبـاء بالفعـل عمـل عـلى فضـح مـا كان مغطـى ومهمشـاً في الحالـة الفلسـطينية كحالـة مسـتعمَرة وتابعـة، فبينـما كان تهريـب العـمال في صناديـق وخزانـات المركبـات ممارسـة مسـتمرة قبـل وبعـد أن كتـب كنفـاني روايتـه الشـهيرة «رجـال في الشـمس»، في فلسـطين كـما في دول أخـرى تابعـة ومسـتعمَرة، فـإن الوبـاء والهلـع الـذي أثـاره، دفـع هـؤلاء الذيـن يعيشـون وهْـم الدولـة والسـيادة، ومعهـم الإعـلام الفلسـطيني، لتسـليط الضـوء عـلى هـذه الممارسـة، بعد أن تحـول العـمال وتهريبهم إلى «خطـر صحـي». وإذا لم يكـن هـؤلاء العـمال يلاقـون مصـير رجـال كنفـاني بالمعنـى الحـرفي أي المـوت، فإنهـم يشـعرون بـه في كل وقفـة تفتيـش تطـول لتصـل سـاعات بينـما هـم محشـورون داخـل الحاويـة (Kav LaOved, 2012: 35). وقـد يقـرع هـؤلاء العـمال جـدران الحاويـة مطالبـين بإخراجهـم، ولا يتـم رميهـم جثثـاً هامـدة في مكـب النفايـات، ولكـن تتـم إعادتهـم إلى أراضي الضفـة الغربيـة، حيـث يعـودون بعـد فـترة لمحاولـة الدخـول تهريبـاً في حاويـة شـاحنة، في تكـرار لا نهـائي للمشـهد (هـذا الحـال كان قائمـاً، حسـب معلومـاتي قبـل الوبـاء أيضـاً).

بالنسـبة للعـمال الفلسـطينيين في الأراضي المحتلـة العـام 1948، يعمـل معظمهـم في قطاعـات الإنشـاءات والزراعـة والصناعـة التـي تعتـبر حيويـة، وبالتـالي لم يتـم إغلاقهـا. وقـد سـمحت حكومة الاحتـلال بدخـول هـؤلاء العـمال إلى أماكـن عملهـم، ولكـن عـلى شرط بقائهـم شـهراً هنـاك، مـع التنسـيق المسـبق مـع أصحـاب العمـل لتأمـين المبيـت والظـروف الصحيـة المناسـبة، إلا أنـه لم يكـن هنـاك أي ضمانـة لتنفيـذ هـذه الـشروط، ولم يكـن هنـاك أي جهـة ملزمـة فعليـاً بتنفيذهـا. ووجـد العـمال الفلسـطينيون أنفسـهم أمـام خيارين: إمـا تـرك عملهـم والبقـاء في بيوتهـم دون مصـدرٍ ثابـتٍ للدخـل، وإمـا المخاطـرة بأنفسـهم وصحتهـم في ظـروف صعبـة بعيـداً عـن عائلاتهـم.

فعليـاً، عـاد عـشرات آلاف العـمال إلى قراهـم، ولكـن بقـي أيضـاً أكـثر مـن 25,000 عامـل في الداخـل خـلال فـترة فـرض الإغـلاق الشـامل التـي تزامنت مـع الأعيـاد الإسرائيليـة (مـاس، 2020: 15).

وقـد أصبـح العـمال الفلسـطينيون موضـع الانتقـاد والغضـب، باعتبارهـم مصـدراً لانتشـار الوبـاء في الضفـة الغربيـة، لكـن دون طـرح السـؤال عـن الاعتماديـة التـي تسـم الاقتصـاد الفلسـطيني، وتُشـكّل العمالـة الفلسـطينية في «الداخـل» أحـد مكوناتهـا الأساسـية. فوفقـاً لإحصائيـة مـاس: عـدد العـمال الفلسـطينيين في «الداخـل» مـع نهايـة العـام 2019 كان 133 ألـف عامـل، 23 ألـف عامـل يعملـون في المسـتوطنات، و110 آلاف عامـل في «الداخـل» المحتـل، وهـؤلاء يشـكلون 13% مـن إجـمالي العـمال الفلسـطينيين، و19% مـن إجـمالي العـمال في الضفـة الغربيـة. وحسـب نفـس الإحصائيـة 71% مـن هـؤلاء العـمال يملكـون تصاريـح عمـل، بينـما يعمـل 21% منهـم دون تصاريـح، ويضطـرون للمبيـت في الداخـل. وتشـكل تحويـلات العـمال 25% مـن إجـمالي الأجـور التـي يحصـل عليهـا الفلسـطينيون، أي ضعـف حجمهـم النسـبي مـن إجـمالي العاملـين. وتشـكل أيضـاً 14% مـن الناتـج المحـلي الإجـمالي، لكـن مـع الوبـاء «خـسر أكـثر مـن 70,000 عامـل عملهـم في الداخل، إمـا نتيجـة إغـلاق المنشـآت التـي كانـوا يعملـون فيهـا، وإمـا لأنهم اختـاروا طوعـاً عـدم الذهـاب، وإمـا نتيجـة إغـلاق المعبـر وعـدم شـمولهم بـمـن سـمح لهـم بالدخـول» (16).

في نهايـة نيسـان 2020 أعلنـت حكومـة الاحتـلال عـن السـماح بعـودة مـا يزيـد عـلى 50,000 عامل فلسـطيني إلى أماكـن عملهـم في «الداخـل»، لسـد الفجـوات خاصـة في قطـاع الإنشـاءات، ولكـن دون أن يتـم القيـام بـأي تعديـلات فيـما يتعلـق بالإجـراءات الصحيـة، وتأمـين مبيـت العـمال (16).

عـودة العـمال الفلسـطينيين للعمـل، وتبعيـة قـرارات السـلطة فيـما يتعلـق بهـا لقـرارات الاحتـلال، تشـيران إلى أولويـة وهيمنـة المصالـح الاقتصاديـة للاحتـلال عـلى الاقتصـاد الفلسـطيني. وبينـما لم يتـم توجيـه انتقـادات لحالـة التبعيـة هـذه، سـواء عـلى مسـتوى الخطـاب الرسـمي أو عـلى مسـتوى النخـب المثقفـة في رام الله، تـم التعامـل مـع العـمال عـلى أنهـم نـاشرون للمـرض، وتمـت الإشـارة إلى العـمال باعتبارهـم «الخـاصرة الضعيفـة أو المكشـوفة» للفلسـطينيين، وتـم اتهامهـم بتعريـض حيـاة النـاس للخطـر، لكـن لم تتـم مسـاءلة الاحتـلال (Al'Sanah & Ziadah, 2020).

ووفقـاً لتقريـر في صحيفـة «هآرتـس» الإسرائيليـة، فإنـه بالرغـم مـن توجيهـات وزارة صحـة الاحتلال فيـما يتعلـق بترتيبـات مبيـت العـمال الفلسـطينيين، بمـا في ذلـك قيـاس الحـرارة يومياً، وتحديـد عـدد العـمال في الغرفـة الواحـدة بأربعـة، فـإن العـمال الفلسـطينيين في الزراعـة والصناعـة تحدثـوا عـن ظـروف نـومٍ غـير مناسـبةٍ وخطـرة. في مسـلخ «عطـروت» عـلى سـبيل المثـال، ينـام 15-20 عاملاً في غرفـة واحـدة، وقـد أُصيـب عـددٌ لا بـأس بـه مـن العـمال بالفـيروس. وفي حالـةٍ أُخـرى، أشـار عامـل زراعـي إلى أنـه تـم الاقـتراح عليـه أن ينـام في خيمـة. ولا تتحمـل أيٌّ مـن وزارات الاحتـلال المختلفـة مسـؤولية حمايـة العـمال وضـمان ظـروف عمـل صحيـة لهـم، بمـا فيهـا وزارة العمـل والخدمـات الاجتماعيـة المسـؤولة عـن حمايـة العـمال وصحتهـم. وفقـاً لتوجيهـات وزارة صحـة الاحتـلال بالنسـبة لسـكن العـمال، كان عـلى المشـغلين أن يوفـروا تأمينـاً صحيـاً للعـمال قبـل دخولهـم، ولكـن المذكـرة بتأمـين العـمال حتـى نهايـة الوبـاء لم يتـم إقرارهـا، وبالتـالي بقـي الآلاف مـن العـمال الفلسـطينيين الموجوديـن في الداخـل دون تأمـين صحـي. بينـما تشـكل الحواجـز التـي تمـت إقامتهـا عـلى مداخـل القـرى والبلـدات في الضفـة الغربيـة، وتسـتقبل العـمال وتحيلهـم إلى الحجـر الصحـي، عقبـةً تحُـول دون عـودة الكثيريـن منهـم إلى بيوتهـم.

وأشـار التقريـر نفسـه إلى صعوبـة عـودة العـمال إلى قراهـم ومدنهـم في الضفـة، فمـن جهـة كانـت هنـاك إشـارات إلى أنـه تـم تهديـد بعـض العـمال بأنـه في حـال عودتهـم إلى بيوتهـم في الضفـة

فإنهم سيخسرون تصاريح العمل الخاصة بهم. بينما ذكر التقرير أيضاً أن الكثير من العمال لا يريدون العودة لتجنب المرور على الحواجز التي أقامها الفلسطينيون على مداخل القرى والبلدات بالقرب من مواقع مرور العمال من وإلى الداخل (Shezaf, 2020)، فقد أصبحت هذه الحواجز -حيث يتم فحص ورش العمال بالمعقمات وتحويلهم للحجر- موقعاً لوصمهم كحاملي وباء.

وضع العمال الفلسطينيين ليس استثنائياً تماماً، بل هو وضع يتشابه مع أوضاع العمال المهاجرين في مناطق مختلفة من العالم، وحتى مع وجود الاستعمار الاستيطاني الساعي لضم ما تبقى من الأرض الفلسطينية واقتلاع أهلها، إلا أن منطق الدولة القومية الحديثة الذي يقوم على علاقات الإنتاج الرأسمالية، ويتضمن وجود أمة تعريفها الأساسي يكون من خلال استثناء وإقصاء هؤلاء الذين هم ليسوا من الأمة، يعني أن كل عامل مهاجر، يتم إدخاله/إقصاؤه كَيَدٍ عاملةٍ رخيصةٍ قابلةٍ للاستغلال وللاستغناء عنها (طرحها والتخلص منها) في أيّ لحظة، وهو منطق لا يختلف كثيراً عن المنطق الاستعماري الاستيطاني إلا بالدرجة وكثافة عملية الإقصاء.[1]

فالدول التي تصدّر هؤلاء العمال كقوة عمل رخيصة، تربطها أيضاً بالدولة المستضيفة علاقة تبعية واعتمادية ليس فقط اقتصادية ولكن وبالضرورة أيضاً سياسية، مرةً أُخرى يصبح الفرق فرقاً يتعلق بأننا في هذه الحالة نتحدث عن دول معترف بها سياسياً، حيث دولة ضعيفة تدخل في علاقة تبعية اقتصادية مع أُخرى قوية ومستغِلة، ولكن حتى في الحالة الفلسطينية، تم إعطاؤنا ما يشبه الدولة حتى يصبح من الممكن استغلالنا استغلالاً مقبولاً على مستوى عالم رأسمالي من الدول القومية، وعلينا أن نكون ممتنين للتنمية التي يفترض أن مثل هذا الاستغلال يتضمنها.

وبشكلٍ عام، تعمل سياسات السلطة الفلسطينية فيما يتعلق بالعمال ضمن منطق الدولة المعاصرة، التي كما يصفها روز لم تعد تتعامل مع جسدية مواطنيها كجسد سياسي جمعي، ولم يعد من واجبها حلّ حاجة المجتمع للصحة؛ فصحة وحيوية الأمة والناس والعرق لم تعد الدافع وراء التدخلات الجبرية في حياة الأفراد. الصورة اليوم هي للدولة المُمَكِنة، والميسرة، والمنشطة (Rose, 2006). ما تتم معالجته اليوم هو «الخطر»، أو احتمالية الخطر(risk) التي أصبح يمثلها الفقراء والعمال والمهاجرون، بعد أن كان انتشار الوباء ونقله يتمّان من خلال النخب والطبقات الثرية في بداية انتشاره.

وكما يبين تقرير عن العمال في المحلات التجارية والمطاعم في الولايات المتحدة، فإن ظروف عمل هؤلاء من حيث ضيق المساحة التي يعملون بها، واحتكاكهم بالمئات أو الآلاف من الزبائن، وعملهم ساعات طويلة، تجعلهم أكثر عرضةً للإصابة بالفيروس، حتى لو كان معظمهم من ضمن الفئات العمرية الأصغر سناً. هؤلاء العمال لا يمكنهم العمل من المنزل،

كما في حالة موظفي الطبقة الوسطى. وفي بلدٍ مثل أمريكا، حيث الطبقة ترتبط أيضاً بالعرق، فإن معظم العاملين في هذه الأعمال التي تُعدّ الأكثر تدنياً من حيث المكانة، والأكثر خطراً من حيث احتمالات المرض أو الإصابة، هم من المهاجرين أو من الأصول المهاجرة، خاصة من أمريكا الجنوبية، الذين يعملون في قطاعات البناء والخدمات والإنتاج والصيانة وغيرها. يليهم في هذا المجال العمال السود، والبيض، ثم الآسيويون (على اعتبار أن معظم الآسيويين في أمريكا يتم استقطابهم في وظائف محددة أيضاً، ولكن أعلى مكانة (لكن ليس بالضرورة أقل استغلالاً) ضمن تكرار أو نسخة مصغرة من تقسيم العمل العالمي في أمريكا ((Romano, 2020.

وكانت مزارع اللحوم في أمريكا وبريطانيا مثالاً على الكيفية التي يتحالف فيها الوباء مع الطبقية واللامساواة في استغلال العمال واستنزافهم، كحيواتٍ رخيصةٍ لا تحتاج للحماية، أو لإخضاعها لتوفير إجراءات الوقاية التي تخص المواطنين، ما فعله الوباء هو أنه نزع أو كشف الغطاء عن زيف الادعاءات الديمقراطية والمواطنية العمومية، فما زال المواطن النموذجي وأيضاً الفعلي كما كان في بدايات التحول الرأسمالي في الغرب: الفرد المالك من الطبقة الوسطى.

ما يفعله الوباء هو أنه يقوم بعملية غربلة لهؤلاء ذوي الحيوات التي لا تهم، وهي غربلة تتم تحت مسمى «العمال الضروريين»، (صحيح هذا يشمل الأطباء ورجال الشرطة)، ولكنّ استخدام لفظ الضرورة في حالة العمال ذوي الياقات الزرقاء يشير إلى قسرية العمل وإجباريته أكثر من أن يشير إلى قيمةٍ تنتقل من ضرورية العمل لمن يقوم به.

ضرورية العمل في حالة أمريكا، على سبيل المثال، لم تكن متعلقة بتوفير السلع الأساسية التي يحتاجها الناس في أمريكا للاستمرار على قيد الحياة، بل كانت مرتبطة أكثر بالمصالح التجارية والتبادلات العالمية (Dalton, 2020). بينما يكون اعتماد من يعملون في هذه المصانع على قوة عملهم (أي عملهم في هذه المصانع التي تنتج للتصدير) في معيشتهم، ما يعني أنّ وجودهم البيولوجي نفسه محصور ومشروط بكونهم قوة عمل، قوة عملهم كسلعة يبيعونها في السوق، وفي حالة الوباء تصبح شرطاً لقدرتهم على الاستمرار، وأيضاً التهديد المستمر لحياتهم.

في مزارع اللحوم ظروف العمل من حيث ضيق المكان واحتشاد العمال، إضافة إلى درجات الحرارة الباردة، كلها عوامل تزيد من احتمالية الإصابة بالفيروس، وأدت فعلياً إلى إصابة آلاف العمال في أمريكا وأوروبا. وتشير محاولة إخفاء انتشار الوباء بين العمال، وفي المناطق التي تتواجد فيها مصانع اللحوم ومزارعها، إلى إعطاء الأولوية للمصالح الاقتصادية على حساب صحة العمال والمجموعات المهمشة، سواء من حيث تشغيل العمال وعدم إغلاق المصانع في حالات الانتشار، أو من ناحية الخوف على سمعة واسم المصنع/المزرعة. تصبح قيمة السلعة

نفسها، أو رخصها، أكثر من قيمة السلعة التي أنتجتها، أي أقل من قيمة قوة العمل، حيث كان هناك اهتمامٌ بانتقال الفيروس للحوم أكثر منه بإصابة العمال أو موت المئات منهم! (Knapton 2020; The Guardian)، ومع كل الحديث عن كون الوباء تهديداً للنظام الرأسمالي، فإن الاعتبارات الرأسمالية: السوق كقوة دافعة، والطلب على السلع الرخيصة، بقيت القوة الأساسية التي حددت معاملة العمال في هذه المصانع بعيداً عن كونهم كائنات بيولوجية وضمن إطار كونهم قوة عمل (سلعة).

ويبدو الوباء كأنه يُعيدنا إلى الزمن نفسه الذي كتب فيه ماركس رأس المال، حيث يختزل وجود العامل في قوة عمله، وحيث تكون قوة العمل هذه كسلعة أقل تكلفة في كثير من الأحيان من قوى إنتاج أخرى مثل الآلة أو الحيوان، وتكون متاحة وقابلة للاستغناء عنها بسهولة، فكما كتب ماركس في رأس المال: بالنسبة للرأسمالية كفاءة الإنتاج وتراكم رأس المال يتحققان بالقدرة على استنزاف أكبر قدر من قوة العمل من العامل، من خلال تمديد وقت العمل، وتسريع العمل، وبغض النظر عن تقصير فترة حياة العامل التي تترتب على هذه الظروف.

من هنا في الأمثلة السابقة كلها، كان العمال المستنزفون والفائضون (عن حاجة السوق)، أو القابلون للاستغناء عنهم واستبدالهم، هم من المهاجرين، والمستعمَرين أو الملونين، في تقاطعٍ قبيحٍ بين القمع الطبقي، والعرقي، والاستعماري، كشفه الوباء، لكنه يبدو كأنه يعززه بدلاً من خلخلته أو تقويض أُسسه. في مصانع ألمانيا، أيضاً، العمال في هذه المصانع هم عمالٌ مهاجرون من أوروبا الشرقية، ومستعدون لقبول ظروف العمل السيئة والأُجور المتدنية. ما فعله الوباء أنه أضاف إلى قائمة ما يعتبر ظروف عمل سيئة: البرد، والاكتظاظ، والسرعة في الإنجاز، عدا عن عدم توفر أماكن كافية وآمنة للمبيت، وساعات عمل طويلة.. (The Guardian 2020). معنى البيولوجي والحيوي في حالة عمال أوروبا الشرقية في ألمانيا، مثل عمال فلسطين في «الداخل» المحتل، غير قابل لأن يتم فصله أو تحريره من كونه قوة عمل، فلا وجود بيولوجي للعامل خارج تسليعه. الإنتاجية وزيادة الربح تتطلبان زيادة عدد العمال وسرعة العمل، وهذا لا يتيح مجالاً لتطبيق ظروف العمل الصحية التي تنطبق على هؤلاء الذين يشكلون المواطن الذي يجب أن تتم حمايته من الأوبئة (The Guardian 2020)، ويمكنه أن يمارس مسؤوليته بالتباعد الاجتماعي والوقاية من المرض.

في تقرير للافلاند وهولبوك في الغارديان (The Guardian) يظهر الترابط بين حالة الاستثناء والطوارئ التي تتيح تحويل قضايا فردية «شخصية» بالتعريف الليبرالي إلى قضايا أمنٍ قوميّ، وبين المصالح الاقتصادية الرأسمالية: فبالرغم من إغلاق بعض المزارع بسبب انتشار الفيروس فيها، فإنّ ترامب أوقف عمليات الإغلاق هذه بإعلانه عملية إنتاج اللحوم كعملية إنتاج

دفاعية، ما يعني أن هذه عليها أن تبقى مفتوحة وشغالة خلال الوباء باعتبار عملها مرتبطاً بالأمن القومي (Laughland &Holpoch, 2020).

ومع أن شكل العمل الحالي هو عمل حر مأجور، فإنه أصبح في زمن الرأسمالية المُعولمة يأخذ طابع العمل القسري القائم على الاستعمار والعنصرية اللذين وسما التراكم البدائي(Ince, 2018: 7) ، الذي يتضمن استخدام قوى سياسية قضائية ليست محصورة بما هو اقتصادي، هذه القوة يمكنها أن تكون لاقانونية أو خارج الأشكال القانونية، لكنها تعمل على تأسيس نظم قانونية من الاستغلال (12). في دول الشمال، يقوم شكل القسر الذي تعتمده الرأسمالية على ربط العامل ومعيشته وقدرته على إعادة إنتاج ذاته بالأجر، وبالتالي يبقى مقيداً بالسوق وحركته. أما في حالة العمال المستعمَرين والمهاجرين، فإن الرأسمالية المعاصرة تقوم بعمليات المصادرة والسلب دون أن تحتاج لإدخال هؤلاء الذين تستغلهم، بسبب وجود عدد فائض من الناس عالمياً ممن لا ينتمون حتى «لجيش الاحتياط من القوى العاملة»، ويعيشون في منافي رأس المال (26)، ما يتيح تحويل أعداد هائلة من الناس إلى فئات تعتبر فائضاً، أو تكراراً قابلاً أو يجب التخلص منه، بحيث لا تتمتع هذه الفئات حتى بوضعية جيش الاحتياط، ولكنها في الوقت نفسه، تضمن إعادة إنتاج تلك الفئات المتاحة للاستغلال.

الوباء بتهديده للجميع يُفترض أنه يُعزز المساواة، لكنه فعلياً قام بالعكس، ولا تكمن المشكلة، كما قال كامو، في أنه ليس المطلوب المساواة في الموت، بل حتى أنه لا توجد مساواة في الموت، فقد أثبتت الأشهر الستة الماضية أنه حتى لو بدأ الفيروس بالانتقال من خلال الطبقات والنخب الرأسمالية، فإنه وكما كل شرٍّ جلبته الرأسمالية يكون النصيب الأكبر والأسوأ منه للفقراء والمسحوقين، الذين يحرمهم الوباء من المصادر القليلة المتاحة لهم، تاركاً إياهم بين خيارين من الموت الفقير: جوعاً أو مرضاً، أو الاثنين معاً.

أميرة سلمي: أنهت الأستاذة سلمي شهادة الدكتوراه في البلاغة من جامعة كاليفورنيا في بيركلي، وكان عنوان أطروحتها "القتال في عالم ليس لنا: الكتابة الثورية عند إيميه سيزير وغسان كنفاني". وتتمحور اهتماماتها البحثيّة حول العديد من المواضيع، من بينها نظرية مقاومة الاستعمار، والجماليات، والأدب، والنظريّة النسويّة.

المراجع

1. Abu Asbah, Khaled and Abu Nasra, Muhammed. 2013. “Factors and Obstacles Impeding Economic Development within Palestinian Localities in Israel: The Case of the Food Industry. In Palestinians in the Israeli Labor Market.” (Ed.Nabil Khattab and Sami Miaari). New York: Palgrave Macmillan. 213-239.
2. Agamben, Giorgio. 2020a. “Biosecurity and Politics.” (A translation of Agamben’s blog, 11 May 2020), https://medium.com/@ddean3000/biosecurity-and-politics-giorgio-agamben-396f9ab3b6f4
3. ---. 2020b. “Medicine as Religion.” (MAY 2, 2020). https://itself.blog/2020/05/02/giorgio-agamben-medicine-as-religion/
4. ---. 2020c. “New Reflections.” https://medium.com/@ddean3000/new-reflections-giorgio-agamben-c5534e192a5e
5. ---. 2020d. “Reflections on the Plague.” Quodlibet today, (27 March 2020), https://medium.com/@ddean3000/reflections-on-the-plague-giorgio-agamben-b616763b6259
6. ---. 2020e. “Clarifications.” (17 March 2020). https://medium.com/@ddean3000/clarifications-giorgio-agamben-3f97dc7ed67c
7. ---. 2020f. “Contagion.” (11 March 2020), https://www.quodlibet.it/giorgio-agambencontagio
8. Bar’el, Zvi. “Foreign Workers, Rich and Poor, Sent Packing from Gulf States Over Coronavirus Crisis.” Haaretz (26.6.2020) https://www.haaretz.com/middle-east-news/.premium-foreign-workers-rich-and-poor-sent-packing-from-gulf-over-coronavirus-crisis-1.8947666
9. Camus, Albert. 2013. The Plague. http://www.24grammata.com/wpcontent/uploads/2013/06/The_Plague__Albert_Camus-24grammata.com_.pdf
10. Dalton, Jane. “Coronavirus: Thousands Of Meat Plant Workers Infected At Dozens Of Outbreaks In Europe And US, Research Finds.” The Independent. (June 28, 2020) https://news.yahoo.com/coronavirus-thousands-meat-plant-workers-160248793.html
11. The Guardian. 2020. “Poor Conditions in Meat Plants Fuel Covid-19 Outbreaks, Say Unions Sector Faces Calls for Action After Report Reveals Scale of Infections Among Workers.” https://www.theguardian.com/environment/2020/jun/22/poor-conditions-in-meat-plants-fuel-covid-19-outbreaks-say-unions
12. Huberman, Bruno and Mattar, Nasser Reginaldo. 2019. “Pacification, Capital Accumulation, and Resistance in Settler Colonial Cities: The Cases of Jerusalem and Rio de Janeiro. (Translated by Patricia Fierro), Latin American Perspectives, Issue 226, Vol. 46 No. 3, 131–148
13. Ince, Onur Ulas.2018. “Between Equal Rights: Primitive Accumulation and Capital’s Violence.” Political Theory. 46: 6, 885-914
14. Khamaisi, Rassem. 2013.“Barriers to Developing Employment Zones in the Arab Palestinian Localities in Israel and Their Implications Israel, 1997– 2009.” in Palestinians in the Israeli Labor Market, (Ed. Nabil Khattab and Sami Miaari). New York: Palgrave Macmillan. 185-201.
15. Kav LaOved. 2018. The Occupation of Labor Employment of Palestinian Workers in Israel. http://www.kavlaoved.org.il
16. ---. 2012. “Employment of Palestinians in Israel and the Settlements : Restrictive Policies and Abuse of Rights.” http://www.kavlaoved.org.il
17. Laughland, Oliver and Holpuch, Amanda. 2020. “We’re Modern Slaves’: How Meat Plant Workers Became The New Frontline In Covid-19 War.” The Guardian (2.5.2020). https://www.theguardian.com/world/2020/may/02/meat-plant-workers-us-coronavirus-war
18. Romano, Andrew. 2020. “Racial and Economic Inequality Are Supercharging The Coronavirus Surge In States Like California.” https://www.yahoo.com/news/racial-and-economic-inequality-are-supercharging-the-coronavirus-surge-in-states-like-california-165346057.html

19. Rose, Nikolas. The Politics of Life Itself : Biomedicine, Power, and Subjectivity in the Twenty-First Century, Princeton University Press, 2006.
20. Rosenhek, Zeev. 2003. “The Political Dynamics of a Segmented Labour Market Palestinian Citizens, Palestinians from the Occupied Territories and Migrant Workers in Israel.” Acta Sociologica, Vol 46(3): 231–249.
21. Samara, Adel. 2000. “Globalization, The Palestinian Economy, And The “Peace Process”.” Journal of Palestine Studies XXIX, no. 2, pp. 20-34.
22. Al’sanah, Riya and Ziadeh, Rafeef. 2020. “Palestinian Workers Are Bearing the Brunt of the Pandemic.” Jacobin (05.23.2020) https://jacobinmag.com/2020/05/israel-palestinian-workers-pandemic?fbclid=IwAR3SfFIhbE-m_686zw25_AVesGV1vlampSU6AkzfhsqfeQ_km45dpWwPI5Ao
23. Shezav, Hagar. 2020. “Israel Doesn’t Oversee Palestinian Workers’ Health Amid Coronavirus.” Haaretz (20.04.2020) https://www.haaretz.com/israel-news/.premium-israel-doesn-t-oversee-palestinian-workers-health-amid-coronavirus-1.8783881?v=1593245278573
24. Thacker, Eugene. 2009. “The Shadows of Atheology Epidemics, Power and Life after Foucault.” Theory, Culture & Society, Vol. 26(6): 134–152.
25. Van den Berge, Lukas. 2020. “Biopolitics and the Coronavirus Foucault, Agamben, Žižek.” Netherlands Journal of Legal Philosophy, (49) 1, pp. 3-6.
26. Zizek, Slavoj. 2020a. “ Global communism or the jungle law, coronavirus forces us to decide.”(10 Mar, 2020) https://www.rt.com/op-ed/482780-coronavirus-communism-jungle-law-choice/
27. ---. 2020b. “Coronavirus Is ‘Kill Bill’-Esque Blow To Capitalism And Could Lead To Reinvention Of Communism. (27 Feb. 2020). https://www.rt.com/op-ed/481831-coronavirus-kill-bill-capitalism-communism/

المراجع العربية:

1. بونتو، فيرونيك. 2011. بين الإكراه الشديد والاختيار الفردي: حكايات فلسطينيين يعملون في إسرائيل. (سلسلة أوراق عمل، جامعة بيرزيت). بيرزيت: معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، وحدة الهجرة واللجوء.
2. صبيح صبيح. «انهيار وهم اليقين وتلاشي التوقع في زمن كورونا». (22 نيسان 2020).

https://www.bisan.org/%d8%a7%d9%86%d9%87%d9%8a%d8%a7%d8%b1-%d9%88%d9%87%d9%85-%d8%a7%d9%84%d9%8a%d9%82%d9%8a%d9%86-%d9%88%d8%aa%d9%84%d8%a7%d8%b4%d9%8a-%d8%a7%d9%84%d8%aa%d9%88%d9%82%d8%b9-%d9%81%d9%8a-%d8%b2%d9%85%d9%86/?lang=ar&fbclid=IwAR3HsoFBRtAklqpJ_4ggbP5uTPw-5131dvduaxn1DGvDDG8bsCiSb6hdHnU

3. ماس. 2020. تقييم أولي للآثار المحتملة على الاقتصاد الفلسطيني لتفشي وباء «كوفيد- 19» في الضفة الغربية. المراقب الاقتصادي، رام الله: معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (ماس).

Endnotes

1 انظر/ي على سبيل المثال التقرير التالي:

Foreign Workers, Rich and Poor, Sent Packing From Gulf States Over Coronavirus Crisis
https://www.haaretz.com/middle-east-news/.premium-foreign-workers-rich-and-poor-sent-packing-from-gulf-over-coronavirus-crisis-1.8947666

ليست دولتنا:
حول التخيلات الفلسطينية للتحرر

بقلم: هاشم أبو شمعة*

مقدمة

منـذ بدايـات جائحـة «كوفيـد-19»، سـلط العديـد مـن المحللـين الضـوء عـلى تأثيرهـا المكثـف عـلى المجتمعـات المقموعـة تاريخيـاً. فهـم يجادلـون -وعـلى حـق- بـأن الجائحـة سـلطت الضـوء عـلى البنـى التحتيـة واللامسـاواة البنيويـة التـي تكتنفهـا الأنظمـة العالميـة للرأسـمالية الأبويـة الذكوريـة، والعنصريـة، والنيوليبراليـة، والاسـتعمار الجديـد. فمثـلاً يمـوت الأمريكيـون السـود بمعـدل 2.3 ضعـف أكـثر مـن البيـض الأمريكيـين (73.7 وفـاة لـكل 100.000 مقارنـةً بـ32.4 وفـاة لـكل 100.000)،[1] فيـما يصـل معـدل الوفيـات بـين مجتمعـات الشـعوب الأصليـة إلى 1.86 ضعـف البيـض الأمريكيـين (60.5 لـكل 100.000 وفـاة). وبالمثـل، فـإن معـدل الوفيـات في إنجلـترا هـو الأعـلى بـين المجتمعـات السـوداء، التـي تشـكل نحـو 6% مـن مجمـل الوفيـات، وهـي نسـبة غـير متكافئـة إن أخذنـا بالحسـبان نسـبتهم الديموغرافيـة التـي تشـكل 3% مـن مجمـل عـدد السـكان.[2] فتوزيـع الخدمـات والتسـهيلات الصحيـة، وتنظيـم الفضـاءات والأماكـن الحضريـة، والتعـرّض الممنهـج للمـرض (وهـي المحصلـة الثانويـة لعقـود مـن الإهـمال والتهميـش الاقتصـادي والسـياسي)، والطبيعـة المعرقنـة والمجنسـنة لتقسـيم العمـل (حيـث يُدفـع بالمجتمعـات الملونـة نحـو العمـل في الخطـوط الأماميـة)، تسـهم بـلا شـك في إنتـاج هـذا التفـاوت.

في فلسطين، كشفت الجائحة التراتبيات البنيوية التي فرضها النظام الاستعماري الاستيطاني، حيث تُمكِّن آليات التطويق والحصار والمراقبة من التشظية الجغرافية المُنهجة لحيوات ومعيشة الفلسطينيين في فلسطين التاريخية، التي جعلت- للمفارقة- فرض قيود على التنقل للسيطرة على الجائحة أكثر سهولة. هذا ينطبق في حالة قطاع غزة على وجه التحديد، حيث لم تُسجل سوى 80 إصابة ووفاة واحدة حتى نهاية تموز/ يوليو 2020، ما دفع البعض ليجادل بسخرية سوداء، أن غزة هي أكثر مكان «آمنٍ» من الفيروس على وجه الأرض.[3] لكن علينا أن نكون حذرين لئلا نصوّر الحصار على غزة وما يستتبعه من اللامساواة الممنهجة بأنه «آمن»، خصوصاً في المجال الصحي. فالحصار لا يسبب «نقصاً في الطواقم الصحية المتخصصة، والعقاقير والمعدات الطبية، مضافاً إليها قطع الكهرباء الذي يؤثر على المستشفيات»،[4] بل ويفرض أيضاً تدهوراً ممنهجاً في الصحة العامة للسكان من خلال تفاقم الفقر، وحساب السعرات الحرارية اللازمة بالكاد لإبقاء السكان على قيد الحياة، والتشويه المستمر والقتل للأجساد الفلسطينية.[5]

أما بالنسبة للفلسطينيين الذين يحملون جوازات سفر إسرائيلية ويعيشون داخل ما يسمى بالخط الأخضر (خط الهدنة للعام 1949)، فالوضع مختلف، حيث سارع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو إلى مطالبة «الجمهور الناطق بالعربية» بالالتزام بتعليمات الحكومة، مدعياً أن هناك عدم التزام من جانب الفلسطينيين.[6] يلاحظ أُسامة طنوس، طبيب الأطفال الفلسطيني المقيم في حيفا، أنه لم يُعبَّر عن مثل هذه المخاوف والقلق تجاه تجمعات يهودية بعينها داخل إسرائيل، خاصة تجمعات اليهود الأرثوذوكس المتشددين.[7] هذا فضلاً عن نقص في تعميم ونشر المعلومات بالعربية حول الفيروس.[8] بل إن هنالك نقصاً حاداً في تحديد مواقع الإصابات وتسجيلها في غالبية المدن الفلسطينية، ما دفع ببعض المحللين الإسرائيليين إلى استنتاج متسرع بأن المناطق ذات الغالبية الفلسطينية لديها معدلات عدوى أقل.[9] وفي غضون ذلك، كانت الصحافة الإسرائيلية تحتفي بالعاملين الفلسطينيين في المجال الصحي الموجودين في طليعة منظومة الرعاية الصحية الإسرائيلية المقاتلة ضد فيروس «كورونا». فبينما يشكل الفلسطينيون خُمس عدد السكان داخل الخط الأخضر، فإنهم يمثلون نصف الصيادلة، وربع الممرضين، وخمس الأطباء -تقريباً- داخل منظومة الرعاية الصحية الإسرائيلية.[10] يأتي هذا التمثيل غير المتكافئ على خلفية السياسات الإقصائية الإسرائيلية، وليس حصيلةً لواجهة الاندماج الزائفة التي تحتفي بها الصحافة الإسرائيلية. وكما يلحظ طنوس، فإن «وجود الأطباء الفلسطينيين العاملين في المستشفيات الإسرائيلية قد كان موضوعاً دائماً للاحتفاء من جانب هذه المؤسسات والدولة على أنها ملاذ للديمقراطية والمساواة والتعايش المتعدد الثقافات».[11] وهكذا، بينما تسارع المؤسسة الإسرائيلية لتصوير الأجساد الفلسطينية كحاملة للفيروس وتهمل وجودها بشكل مُمنهج، تسارع في الوقت ذاته لتصوير جهود الفلسطينيين وإسهاماتهم على أنها «استثنائية»، وتبرِّئ الدولة الاستيطانية، وتزيد من التعمية والتزييف لتراتبياتها العرقية العنصرية.[12]

إن القدرة على السيطرة على الفيروس في الضفة الغربية أكثر تعقيداً، خاصة بوجود المستوطنات الإسرائيلية غير الشرعية، والجيش الإسرائيلي، وتدفق العمال الفلسطينيين عبر ما يسمى الخط الأخضر. في البداية، كانت استجابة السلطة الوطنية الفلسطينية في الضفة الغربية سريعة ومدروسة، ولاقت استحساناً من منظمة الصحة العالمية والفلسطينيين في الضفة الغربية. غير أنه لم ينقضِ الكثير من الوقت لكي يفضح الفيروس اعتماد السلطة الوطنية الفلسطينية على إسرائيل، فضلاً عن عجزها على العمل خارج النطاق الرسمي المحدد لها. فبعد شهر من الإغلاق، سمحت السلطات الإسرائيلية بالتنسيق مع المسؤولين الفلسطينيين لما يقارب 14,500 عامل فلسطيني بعبور نقاط التفتيش بين الضفة الغربية و«إسرائيل». وكانت معظم الأعمال في قطاع الزراعة والمصانع والبناء. وقد نص الاتفاق على توفير ملابس للوقاية وسكن للعمال من جانب أصحاب العمل الإسرائيليين. لكن سرعان ما تبدّى أن ظروف السكن للعمال الفلسطينيين كانت غير إنسانية، كونها أسوأ حتى عند مقارنتها بظروف العمال الأجانب.[13] فبعد مرور عدة أيام على الاتفاق، باشر أصحاب العمل الإسرائيليون بإلقاء العمال الفلسطينيين الذين تظهر عليهم أعراض «كوفيد-19» عند نقاط التفتيش.[14] وتمثل رد السلطة الفلسطينية بِحثّ العمال الفلسطينيين على العودة إلى الضفة الغربية.

سأقوم في هذه المداخلة القصيرة بتقصي الكيفية التي يتيح عبرها التعامل النقدي مع قضية العمالة الفلسطينية فيما يتصل بالدولة الاستيطانية إمكانيةً لخلق سياسات للتحرر. ينطلق القسم الأول من فرضية أن هناك عداءً جوهرياً للفلسطينيين من قبل الدولة الاستعمارية الاستيطانية يحدد نظامها التراتبي. يرى هذا العداء المنهج أجساد الفلسطينيين قابلة للرمي، ومريضة، ومستحقة للموت وغير جديرة بالحياة، ومن ثم، أبحث باختصار في العلاقة بين الاستعمار- الاستيطاني والعمالة الفلسطينية، حيث تُقصي الكثير من الأدبيات حول الاستعمار- الاستيطاني العمالة إلى مكانة ثانوية: فبينما يهدف الاستعمار إلى استخراج فائض القيمة، كما يجادل المفكرون، فإن الاستعمار- الاستيطاني يهدف إلى الاستحواذ على الأرض والقضاء على السكان «الأصليين». وبالتالي، يمكن للدولة الاستيطانية التخلص من العمالة الفلسطينية. إذا صح هذا، فلماذا، إذن، ستسمح دولة إسرائيل للعمال الفلسطينيين بالدخول إلى حدودها المتوسعة باستمرار في وسط جائحة عالمية؟

ينطلق الجزء الثاني من فرضية مختلفة: هنالك افتقار لقواعد لغة سياسية ترسم تخيّلات فلسطينية بديلة نحو التحرر. وتعود ندرة التخيلات السياسية الفلسطينية إلى تركيز أُحادي الجانب، ضروري ولكن مقيِّد، على آليات السيطرة والإدارة والتصفية الإسرائيلية، إلى جانب الاختزال القسري لحركة (أو حركات) التحرر الفلسطيني إلى مشروع بناء دولة وطنية رأسمالية. يُفترض بالدولة الاستيطانية بحسب العديد من التقارير والدراسات -خصوصاً تلك المتعلقة بأوضاع العمال الفلسطينيين داخل دولة الاستعمار- أن تكون مساحة مناسبة للمناشدة

والمطالبة بالحقوق الفلسطينية، في حين أن الدولة الاستيطانية مبنية في الواقع على عداء جوهري يهدف بشكل مُمنهج لتصفية الفلسطيني، جاعلاً أي إفصاح عن ذواتنا مستحيلاً ضمن أجهزتها. كيف لنا، في ضوء ذلك، أن نفصح عن ذوات ووجود يتحرك أبعد من مطالبة بالاعتراف من جانب الدولة الاستيطانية، بل يُمركِز أيضاً أنماط حياة الفلسطينيين ونضالهم ومقاومتهم المستمرة ضد النظام الاستعماري الاستيطاني؟

إن إبراز الجائحة للامساواة البنيوية، ليس في فلسطين فقط بل على مستوى العالم، قد يكون منطلقاً ولحظة تحريضيّيْن مناسبيْن لبدء بناء قواعد هذه اللغة السياسية. لذلك أود أن أتماشى مع المداخلات السياسية والنظرية لنشطاء ومفكرين من المجتمعات السوداء والسكان الأصليين في الولايات المتحدة الأمريكية، لطرح أسئلة حول الطريق لمستقبل لا تبرير ولا تطبيع فيه لشروطٍ يتم في ظلها التخلص من الأجساد الفلسطينية وإزالتها بشكل ممنهج ومستمر، في الشوارع ونقاط التفتيش والسجون وأماكن العمل ومخيمات اللجوء والحدود.

الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي والعمالة الفلسطينية

إن العنصر الأبرز في تعريف الاستعمار الاستيطاني هو إصراره على القضاء على الساكن الأصيل، وهدفه الأساسي هو إفراغ الأرض –حرفياً وخطابياً– للتمكن من إعادة تعريفها. ولا يعني المحو هنا على وجه الدقة «خلاصة تصفية الشعوب الأصلية،»[15] وإنما التشكيلة الواسعة من الاستراتيجيات التي تستخدمها المستعمرة الاستيطانية لإبادة الوجود الأصيل، بما في ذلك إستراتيجية الاندماج. لذلك، فإن صيغة باتريك وولف الصائبة للمستعمرة الاستيطانية كبنية تسعى للبقاء باستمرار هي صيغة دقيقة. فالاستعمار- الاستيطاني ليس غزواً لمرة واحدة فقط، إنما غزو بنيوي مستمر يعتمد على توسع الحدود الخارجية والداخلية فضلاً عن أساليب إخضاع تستهدف أجساد السكان الأصليين وعقولهم. وكما يصيغها وولف بدقة: «... يأتي المستوطنون المستعمرون ليبقوا: فالغزو هو بنية وليس حدثاً».[16] ويضيف وولف أن الطبيعة البنيوية للاستعمار الاستيطاني معبّر عنها في التشكيل الاجتماعي المعقد، إضافة إلى استمراريتها عبر الزمن.

لذلك، فإن توسع الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية والتهديد الحالي المسلط بالضم، الذي ازدادت وتيرته خلال الجائحة، إنما هو امتداد لـ»استراتيجية صهيونية مجربة ومختبرة– الحملة الإسرائيلية العام 1949 للاستيلاء على النقب قبل الهدنة الوشيكة واسمها الرمزي «أودفا»، وتعني «الواقعة» بالعبرية».[17] فليست المستوطنات بالضفة الغربية مظهراً استثنائياً لاطبيعياً من مظاهر الدولة الاستعمارية الاستيطانية، وذلك بمد سيادة الدولة على «أراضي الشعوب الأُخرى»، بل هي استمرار بنيوي لنظام إزالة وتوسع ينتج حدوداً جديدة باستمرار. فبينما تشكل الحدود للعديد من الدول القومية إطاراً وطنياً، فإن الحدود لإسرائيل، كما يجادل وولف، هي «إطار وطني» و«مؤشر متحرك للتوسع» في آن معاً، حيث يشير هذا

المؤشر بالتأكيد نحو الخارج، ما وراء ما يسمى الخط الأخضر، إلا أنه يؤشر داخلياً أيضاً: نحو الفلسطينيين المقيمين في إسرائيل، وما تبقى من بيوتٍ وأراضٍ تدل على الوجود الفلسطيني ما قبل 1948.[18]

تملك هذا الصياغة للمشروع الاستعماري الاستيطاني قوةً توليديةً لإنتاج شروحات دقيقة لمنطق معقد للسيطرة والإدارة في فلسطين التاريخية. فبينما تسلط الضوء على الدور المؤثر للطرد الجماعي للفلسطينيين، فإنها تدرك الاستمرارية البنيوية لمنطق الطرد هذا وكيف ينفي الذاتية الفلسطينية. كما أنها تدرك مرونة النموذج القانوني الاستعماري الاستيطاني: فهو يتوسع باستمرار، وباستمرار يُبرّر هذا التوسع. وإذا نظرنا إلى الأمور بهذه الطريقة، فإن الأراضي الفلسطينية المحتلة العام 1967 -والمرء مضطر هنا إلى تقسيم التاريخ الفلسطيني إلى مراحل بحسب أحداث الغزو المكثف- ليست «فضاء استثنائياً»، حيث يُعلّق العمل بالقانون، بل إنها القاعدة. فقانون المستعمرة الاستيطانية هو تعيين حدود جديدة، ومن ثم التصفية والاحتلال والتشريع.[19]

يجب أن نتيقّظ إلى أن هذا الإطار يسمح لنا بإعادة النظر في الرضوخ الاعتيادي والمطبَّع في بعض الأدبيات الأكاديمية للتشظية الاستعمارية الاستيطانية للجغرافيا الفلسطينية (أي الفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل والضفة الغربية وقطاع غزة والشتات) في تحليلنا. فكما يذكرنا سلامانكا وقاطو ورابي وسمور (2012)، «أصبح الخط الأخضر دالة رمزية ومادية قوية تفرض وتسلم جدلاً، بتشظية الدولة، مع استثناءات قليلة». ويحذرنا الكتّاب من أنه «خطٌ نادراً ما يتم عبوره في الاعتبارات الأكاديمية حول فلسطين– في أي من الاتجاهين».[20] ويصبح بالتالي واضحاً أن تشظية الكيان الاجتماعي الفلسطيني، واستخدام المقارنة كعدسة تحليلية لظروف معيشة الفلسطينيين في ظل الاستعمار الاستيطاني في مواقعهم المختلفة، قد يصطف –وحتى إن عن غير قصد– مع أجندة الاستعمار- الاستيطاني من خلال اتخاذ أنماطه المحددة في السيطرة والإدارة هدفاً للتحليل، بدلاً من كامل بنية الإزالة الخاصة به التي تعمل على إخفاء طبيعته الحقيقية. فنحن لا نسير ببساطة على الخارطة كما رسمت لنا. وبالتالي، يجب أن ينصبّ التركيز على العلائقية، بوصفها صيغة تحليل تقارب عمداً هذه الجغرافيات المتشظيّة في علاقتها بعضها مع بعض، من أجل تفسير المنطق الاستعماري الاستيطاني وتحديه، وفي الوقت نفسه، من أجل الإفصاح عن تجارب الفلسطينيين المتجسدة، فضلاً عن رؤى جديدة للتحرر.[21]

إذن، فإن منطق التصفية في ظل الاستعمار- الاستيطاني هو الذي يميزه عن باقي أشكال الاستعمار. تجادل أودرى سيمبسون بأنه «على خلاف الاستعمارات الأُخرى، فإن الأرض، لا العمالة، هي ما يسعى وراءه [الاستعمار الاستيطاني]، ذلك أن الشعوب الأصلية مرتبطة بالأراضي المشتهاة، ما يستدعي (إزالتها)».[22] وبحسب صيغة وولف، فإن العمالة أيضاً تتخذ

موقعاً ثانوياً بالنسبة للأرض، حيث يقول إن «... المستعمرات الاستيطانية لم تُقَم أساساً لاستخراج القيمة الفائضة من عمل الشعوب الأصلية، بل هي مبنية على إزاحة السكان الأصليين من (أو استبدالهم على) الأرض».[23] وببلاغة أشد، يقول: «بهذا المعنى، إن المناعة النسبية للمستعمرات الاستيطانية تجاه انسحاب العمالة الأصلية منها ذات أهمية بالغة».[24] مؤكداً ازدياد محاولات المشروع الصهيوني للاستغناء عن اعتماده على العمالة الفلسطينية. وكما يبين غيرشون شافير، فقد «انبثق لب عقيدة إخضاع العمالة، الذي أنتج الكيبوتس والهستدروت، وهي المؤسسات المركزية للدولة الإسرائيلية، من المواجهة المحلية مع العرب الفلسطينيين بصيغة تختلف جوهرياً عن العقيدة الأصلية لرفع الإنتاجية، التي صيغت في الأصل في أوروبا».[25] كما تلاحظ فرسخ أيضاً بأن «أحد العوامل الرئيسة التي منعت إسرائيل من المرور بتجربة نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا أو تجربة زيمبابوي الاستعمارية هو اعتمادها على بنية اقتصادية امتنعت عن الاعتماد على عمالة السكان الأصليين».[26] وبالرغم من ذلك، استغلت الرأسمالية الاستعمارية الإسرائيلية، وضمن حدود المنطق الصهيوني، العمالة الفلسطينية إلى أقصى الحدود بشكل مباشر وغير مباشر.

بالرغم من هذه الحقيقة، علينا ألا نتغاضى عن الأدوار التنظيمية والمؤسِّسة التي لعبتها العمالة في السياق الفلسطيني، ولم تكن مخفية على الإطلاق في ظل الواقع الحالي للجائحة العالمية. فقد عملت الدولة الاستيطانية لتقليص الاعتماد على العمالة الفلسطينية في الوقت الذي ضمنت فيه العكس- اعتماد الفلسطينيين على النموذج الاستعماري الاستيطاني لضمان الهيمنة الاقتصادية والمكانية الإسرائيلية.[27] ولهذا، وعلى رغم أن استخراج القيمة المضافة للعمالة من الفلسطينيين لا يعتبر سمة مميزة للاستعمار- الاستيطاني، فإنه يجب عدم استبعادها لمكانة ثانوية، إذ إن ذلك يجازف بإهمال الدور المؤسِّس الذي لعبته «العمالة» في بناء الدولة الاستعمارية الاستيطانية ودورها المركزي -حتى اليوم- في إخضاع الذوات الفلسطينية وتحييدها.

ربما يفسر هذا سر السعي من أجل العمالة الفلسطينية الرخيصة وسط جائحة عالمية. حيث يُستبعَد العمال الفلسطينيون داخل إسرائيل بشكل ممنهج من الحماية القانونية، ناهيك عن نقابات العمال. وهذا بذاته حصيلة عمل بنية استعمارية استيطانية، وليس من خصوصيات أزمة الجائحة: ظهر اتحاد العمال الرئيس «الهستدروت» في إسرائيل قبل عام 1948 بعد مواجهة مع العمالة الفلسطينية، وذلك بهدف تأسيس بنية تراتبية عنصرية لا تزال حتى اليوم تستمر في تنظيم تقسيم العمل عبر مخططات استعمارية وعنصرية تستثني العمال الفلسطينيين حتى من أبسط ضروريات الحماية المتوفرة للعمال الأجانب. فكما يلحظ روس، يعاني العمال الفلسطينيون داخل الخط الأخضر وفي المستوطنات من «سرقة الأجور، وأماكن عمل غير آمنة، وعمولات الوسطاء، وتخلّف أصحاب العمل عن دفع مستحقاتهم في الضمان الاجتماعي.[28] كما

يُلاحَق العمال الفلسطينيون، سواءً من يحمل تصريحاً من السلطات الإسرائيلية ومن لا يحمله، على حواجز التفتيش ونقاط العبور، ويهاجمون بالغاز المسيل للدموع والرصاص المطاطي والحي أحياناً، ويُذلّون في أماكن العمل، ويحتجزون عبر العمليات القانونية والبيروقراطية الإسرائيلية بمنعهم من الحصول على التصاريح للعودة للمنازل في نهاية يوم أو أسبوع أو شهر من العمل.[29]

في منتصف الجائحة، وما إن سُمِح للعمال بعبور الخط الأخضر للعمل، بدأ أصحاب العمل الإسرائيليون بإلقاء العمال الذين يحملون أعراضاً شبيهة بفيروس «كورونا» على نقاط التفتيش، خارقين بذلك اتفاقية «ثنائية» مفترضة أُخرى.[30] وقد جرى ذلك بينما كانت الشركات الإسرائيلية والمؤسسات الصحية تروج بنشاط لمنتجاتها عالية التقنية للمراقبة والسيطرة، وتعلن اقترابها من العثور على لقاح، الذي ما زلنا ننتظر أن نراه. لكن ما يسوَّق هنا ليست المنتجات فحسب، وإنما أيضاً قدرة المستوطن «الكامنة» المفترضة على أن يكون متحضراً ومستعداً وقادراً على إنتاج لقاحات، وعلى حل الأزمات العالمية.[31] لكن ما يخفيه كل هذا هو عمليات الاستغلال المنهجة وسرقة الموارد والأجساد الفلسطينية، حيث يصل كبرياء المستوطن الأُسطوري والمصنَّع باستمرار -الذي يمارس الضبط في المستعمرة الاستيطانية- إلى إحدى أعلى قممه في هذه الصيغة، ليعكس في آن واحد حساً بالتفوق الإثني- الديني للمستوطن، محفوراً داخل جهاز الدولة، وحساً بالاحتقار والازدراء للجسد الفلسطيني.

إثر ذلك، سارعت السلطة الوطنية الفلسطينية بمطالبة العمال بالعودة إلى منازلهم، محذرةً الجمهور من أن العمال قد يصبحون الناقل الرئيس للفيروس. وقد خلق هذا بدوره صورةً عامة، حتى داخل المجتمع الفلسطيني، لجسد العامل بوصفه مريضاً ويرجح نقله للمرض. وقد واجهت السلطة مأزقاً حقيقياً هنا: ما بين السماح للعمال الذين يشتغلون داخل الخط الأخضر بكسب الدخل الذي يشكل حجر زاوية لمجمل الناتج المحلي الفلسطيني، أو منع الفيروس من الانتشار لئلا تُهَدد مؤسسات السلطة وما تبقى من شرعيتها. ليس هذا حصيلة للسياسات الإسرائيلية فحسب، ولكن كذلك لاعتماد السلطة على الاتفاقيات التي خُلقت فقط لكي تخرقها إسرائيل، ولإيمانها المحيّر بهذه الاتفاقيات. وهذه الحال مؤشرٌ أيضاً على الدور المحدود للسلطة كوسيط للسياسات الإسرائيلية. وحتى بعد قرارها في شباط/ فبراير ٢٠٢٠ بتعليق العلاقات مع إسرائيل بسبب خرقها المستمر للاتفاقيات الموقعة وتهديدها الذي تلوّح به بضم أجزاء من الضفة الغربية،[32] ما زالت السلطة في موقف رد الفعل الذي لا يتحرك أبعد من الوضع الراهن، حيث إن جهازها بكامله متوقف على المحددات التي تمليها ما تسمى اتفاقية أوسلو. وقد ابتدعت هذه الإملاءات لتضمن تبعية السلطة الوطنية الفلسطينية وخضوعها لأجندة الدولة الاستيطانية اقتصادياً وسياسياً.

وهكذا، سُمح للعامل الفلسطيني بالعمل إلى الحد الذي لا يمثل فيه تهديداً لجهاز الأمن

أولاً، وفي ظل الجائحة للجسد الإسرائيلي «النقي والصحي»، حيث لا يعتبر العامل تهديداً أمنياً يستدعي إثبات براءته على الدوام فحسب- ودائماً يفشل في ذلك، لأن مجرد وجوده في ظل هذا النموذج هو تهديد، بل بات العامل الآن مرضيّاً. فالجسد الفلسطيني إرهابي، والجسد الفلسطيني مريض، والجسد الفلسطيني تهديد، والجسد الفلسطيني غير جدير بالحماية أو الحياة.

ليست دولتنا

ليس إلغاء السجون، ولكن إلغاء المجتمع الذي قد يولد السجون، الذي قد يولد العبودية، الذي قد يأخذ الأُجور، وليس الإلغاء بمعنى القضاء على أي شيء، وإنما الإلغاء كتأسيس لمجتمع جديد. - ستيفانو هارني وفريد موتن[33]

في كتاب حديث بعنوان «رجال الحجارة: الفلسطينيون الذين بنوا إسرائيل»، يطرح آندرو روس روايةً شاملةً لتجربة العمال الفلسطينيين داخل إسرائيل وفي المستوطنات، حيث يجادل في أواخر الكتاب بأنه يتوجب تضمين السرقة الممنهجة للعمالة الفلسطينية من جانب الدولة الاستيطانية في مفاوضات الحل للوضع النهائي، وليس على أساس تعويضات مالية فحسب، بل من أجل الاعتراف بحقوقهم. كما جادل روس في مقال سابق بأن «القيمة النهائية لمجمل مساهمات عمل الفلسطينيين في الأصول التي تشتمل عليها الدولة تبرر المطالبة بالسيادة على الأرض، والحقوق السياسية الكاملة، والمواطنة».[34] تهدف روايته إلى رسم سياسة تحرر تدعو إلى استغلال المساهمة في العمل كأرضية تمكّن من الاعتراف بالفلسطينيين وإدخالهم بشكلٍ كاملٍ في دولة موحدة. وينقل عن عامل فلسطيني قوله: «لقد كنت أعمل في بناء البيوت هناك كل يوم لمدة 30 عاماً، إنها بلدي بشكلٍ ما أيضاً، أليس كذلك؟»[35]

حسناً، في الواقع إنها ليست «بلدنا»، في المفهوم المستحضر هنا على الأقل. فالأرض الفلسطينية تسلب بشكل ممنهج منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم، في غزو لم يتوقف. وقد صاحبَ سلبَ الأرض تأسيسُ مؤسسات وبنى تدعم التراتبيات الاستيطانية والعنصرية المبنية على العرق والطبقة، فضلاً عن تشكيل ذوات استيطانية (كما باتوا يرون العالم وأنفسهم في العالم). تنبثق تقنيات السلطة هذه وسط نفي مباشر للأرض الفلسطينية والذات الفلسطينية والتاريخ الفلسطيني. أما هدفها الأساسي منذ نشوئها، فقد كان استبعاد الفلسطيني وتكريس تفوق المستوطن وهيمنته داخل أرض فلسطين التاريخية.

يدرك روس ذلك حين يشير في كتابه إلى أن «المآل الذي يمكن اعتباره بحقّ نزعاً للاستعمار لا يمكن أن يتجاهل نمط السلب الذي بدأ عام 1948 ولم ينتهِ مجراه بعد».[36] سأذهب أبعد من ذلك، وأُجادل بأنه ليس من المعقول لمقاربةٍ لااستعماريةٍ لمعضلة العمالة الفلسطينية خصوصاً، والتحرر الفلسطيني عموماً، أن تتخذ الدولة الاستيطانية كوجهة للمناشدة. أي، بمعنى آخر، لا

يمكننا أن نطالب الدولة التي بنيت بمنهجية لإبادتنا واستبعادنا بأن تعترف بحقوقنا، إذ يصبح هذا الاعتراف تقنية تطويق وتحييد وإبادة. وكما تشير طنطور، فإن «الاعتراف متعدد الثقافات هو جزء من سياسات ليبرالية أوسع للإلهاء؛ هو عملية استعمارية لإدامة الانشغال بالمستعمِر، وللبقاء دوماً في «المقعد الخلفي»، في انهماكٍ بـ«الاستجابة»، و«الانخراط»، و«المحاسبة»، و«التتبع» و«التفسير». إنها عملية تخلق ‹وهماً بالاستبعاد...›». هذه المطالبة بالحقوق من الدولة الاستيطانية تعيد صياغة «الغزو والاحتلال على أنه استبعاد»،[37] حيث تفترض أن علاقة الفلسطيني مع الدولة الاستيطانية هي علاقة استبعاد من نماذجها وليست علاقة إبادة وإزالة ممنهجة. وكما يحذر العالم المختص بشؤون الشعوب الأصلية، مارك ريفكين، بأن هذه الصيغة تحوّل إنكار المستعمِر الاستيطاني لحقوق الشعب الفلسطيني إلى خطاب استبعاد عنصري يؤدي في نهاية المطاف إلى تجسيد وشرعنة السيادة الاستيطانية على الأرض.[38] فمنح الاعتراف من قبل الدولة الاستيطانية -في أمريكا الشمالية اليوم، وأستراليا ونيوزيلاندا وإسرائيل وغيرها- إنما يخدم تشديد هيمنتها.

فبدلاً من أن تكون موضعاً للمناشدة من أجل الاعتراف بالحقوق، يجب أن تكون الدولة الاستيطانية موضعاً للمساءلة، مع الهدف النهائي **بإلغائها**. هذه لحظةٌ ملائمةٌ لإطلاق إمكانات أطر الإلغاء (abolition) في تخيل تحرير فلسطين. فمع عودة ثوران حركة «حياة السود مهمة» في الولايات المتحدة الأمريكية في مواجهة وحشية الشرطة وفضح الجائحة العالمية للامساواة المترسخة، بتنا نشهد تحشيداً ملهماً للفكر الإلغائي على مستوى غير مسبوق. وقد أظهرت حركة «حياة السود مهمة» موقفاً ملتزماً ضد الاستعمار- الاستيطاني في فلسطين منذ البدايات.[39] وهناك العديد من السرديات التي تؤرخ لهذه التعابير عن التضامن وتقدم دلائل إمبريقية لتجذير هذه التعابير في إطار نضال مشترك أطول من أجل التحرر.[40] لكن تبقى هذه السرديات إمبريقية (تجريبية)، وتجازف بإثبات ما يدعيه بعض المشككين من أن «النشاط الأسود- الفلسطيني ليس أكثر من مجرد عذر للاستحواذ المعادي للسود».[41] وكما لاحظ بوريس بجدارة، ف«بالرغم من أهمية توثيق مواقف التضامن الجديدة -أغنية راب أُخرى، وفيديو آخر على اليوتيوب، ومشهد احتجاج آخر- علينا أن نأخذ تحليلنا إلى ما دون السطح، ونتساءل كيف يمكن لتقاليد الراديكالية السوداء والتحرر الفلسطيني التواصل بعضهما مع بعض على المستويات النظرية والفلسفية والمعرفية».[42]

تدعو حركة «الإلغاء» (abolition)إلى تأسيس مجتمع جديد -أُناس ومؤسسات- ترفض كافة أشكال «التركيبات المبنية على التفاوت في السلطة... فالإلغاء هو كلي وهو أنطولوجي وجودي».[43] في سياق الولايات المتحدة الأمريكية، غالباً ما يُختزل الإلغاء بإلغاء السجون والشرطة، بيد أن الإلغاء لا يعني مجرد إزالة مؤسسات السجون بحد ذاتها، وإنما إزالة الظروف التي يصبح للسجن معنى في ظلها. وكما يقول هارني وموتن: «ليس المهم إلغاء السجون، وإنما إلغاء

المجتمع الذي يمكن أن يمتلك سجوناً... وبالتالي لا نتحدث عن الإلغاء بوصفه إزالة أي شيء، بل عن الإلغاء بوصفه تأسيساً لمجتمعٍ جديد».[44]

ضمن السياق الفلسطيني، وفيما يتعلق بالقضية التي نتناولها، يمكننا القول: لا نتحدث بالتحديد عن إلغاء ظروف العمل اللاإنسانية المفروضة على العمال الفلسطينيين من جانب الدولة الاستيطانية، بل عن إلغاء الواقع الذي في ظله يصبح لهذه التبعية معنى، لا عن إعادة الحقوق الفلسطينية من خلال التعويض المادي والاعتراف بالحقوق، ولكن عن إزالة الظروف التي تمّ عبرها السلب الممنهج للعمالة والأرض الفلسطينيتين. يجب أن لا تتمثل الغاية في الاندماج في جهاز الدولة الذي وُجِد لاستبعادنا، ولا في تقسيم الأرض عبر تراتبيات عنصرية وإثنية- دينية. ربما يجب أن تتمثل الغاية في إلغاء المؤسسات والتراتبيات وطرائق الوجود الاستيطانية، إلى جانب الطرق التي من خلالها يُحَدّ ويُتحكم بذواتنا السياسية، من أجل تأسيس مجتمع جديد.

قد يجادل المشككون بمثل هذه الأطر التحررية بأنها بعيدة عن البراغماتية، وقد يرد عليهم دعاة الإلغاء بأن البراغماتية هي نموذج استيطاني يهدف إلى شغلنا باستمرار بأطره القانونية وتشتيتنا عن الإفصاح عن رؤيتنا الخاصة للتحرر. فقد كانت اتفاقية أوسلو للسلام وتبعاتها على المجتمعات الفلسطينية ورؤيتنا الجمعية للتحرر ناجمة عن تحليل مختزل وشبه براغماتي على ما يبدو، اتخذ من التقسيم الإثني الديني والعنصري للأرض إطاراً مناسباً للتحرر. إن الاتفاقية -التي صورها إدوارد سعيد على أنها «أداة استسلام للفلسطينيين، فيرساي فلسطينية»[45] -تختزل النضال التحرري الفلسطيني إلى نضال من أجل بناء دولة وطنية على جزء من فلسطين التاريخية! وكانت النتيجة، كما جادل الكثيرون، ليست فقط سلب المزيد من الأرض من جانب الدولة الاستيطانية فحسب، بل أيضاً إقامة مؤسسات فلسطينية استطاعت أن تجسّد وتكثف التقسيم الطبقي داخل المجتمع الفلسطيني الذي: فشل في توفير نظام ضمان اجتماعي أساسي للمواطنين الفلسطينيين عبر نشر سياسات نيوليبرالية تقدم رأس المال على الناس؛ وفشل في الاستجابة للعنف المبني على النوع الاجتماعي في فلسطين، خاصة قتل الإناث الذي استفحل خلال الجائحة، كما أعاد تعريف «المجتمع الدولي» باختزال ليعني مؤسسات الأمم المتحدة والحكومات الرسمية بدلاً من الحركات المناهضة للاستبداد، والمعادية للعنصرية، والمعادية للاستعمار، التي تشكل حليفاً طبيعياً للشعب الفلسطيني.

قد تقول إجابة أُخرى إنه حتى بعد اتفاقية أوسلو وتصميمها الذي لا يلين لجعل المقاومة الفلسطينية تذعن للاستعمار الاستيطاني، ما زالت هناك أعمال تمرد ترفض وتقاوم الإطار المفاهيمي الاستيطاني في كل مكان داخل أرض فلسطين التاريخية والشتات. بعض هذه الأفعال يتمثل بالمواجهة المباشرة مع (الإطار)، فيما بعضها الآخر غير مباشر ويطبق على أساس يومي، وهذه الأفعال تقع وفي خلفيتها اتفاقية أوسلو. فمثلاً، ما زال التبادل المتزايد للهويات الثقافية

والأفكار والرابط العام بين رام الله وحيفا، كعواصم ثقافية فلسطينية بحكم الواقع، يرفض ويتحدى الجغرافيات الاستعمارية الاستيطانية، بالرغم من ارتباطهما بالتوسع الحضري المديني النيوليبرالي الذي يغذيه رأس المال والتقسيم الطبقي في المدينتين كلتيهما، ويتحدى تهريب كتابات الأسرى الفلسطينيين ورواياتهم ورسائلهم وحيواناتهم المنوية من السجون الإسرائيلية الحجرَ الأساس في أنظمة المراقبة الإسرائيلية عالية التقنية. كما أن محاولات سرد وكتابة تواريخ فلسطينية تم محوها بشكل ممنهج ترفض مساعي الدولة الاستيطانية إقصاء وإزالة وجودنا خطابياً. كذلك الاحتجاجات المطالبة بحق العودة على كافة حدود وجبهات الدولة الاستيطانية ترفض الإنكار الممنهج لحق عودة اللاجئين الفلسطينيين. ومع أن ذلك لا يشكل استجابة ورداً كافياً لتأسيس نظام جديد، ولكنها تشير نحو رفض[46] نمط الدولة الاستيطانية وإلغائها. فنحن لا نسير ببساطة على الخارطة كما رسمت لنا. والقضية ليست انعدام التخيلات التحررية، لأنها دائماً موجودة بيننا، بل إنها إيجاد قواعد اللغة السياسية اللازمة لإعلاء هذا التخيلات.

لذلك، أعترف أنني قد ختمت بالمزيد من التساؤلات بدلاً من الإجابات. أليس من اللازم -في عالم ما بعد الجائحة- طرح هذه التساؤلات أكثر من أي وقت مضى، لرفض تقبل العالم كما أعطي لنا ورفض أن تختزل نضالاتنا وتواريخنا ورواياتنا ورؤانا للتحرر في أطر لا تَعِدُ بأكثر من المزيد من التطويق، والمزيد من الإبادة، والمزيد من الموت؟ كيف يمكننا أن نبتعد عن «الانشغال بالمستعمِر» وعن حوار آخر سيولد ميتاً «بين السيف والرقبة»[47] كما قال كنفاني قبل عقود؟ كيف نبدأ بصياغة الوجود الفلسطيني الذي يستمر في تحدي الاستعمار الاستيطاني في تجلياته المختلفة حتى بعد اتفاقية أوسلو؟ كيف يمكننا خلق إطار متشابك يمتد خارج الوقائع السياسية للاستيطان الاستعماري ويعالج الأمراض الاجتماعية داخل المجتمع الفلسطيني، بما فيها العنف المبني على الجنس (النوع الاجتماعي)، والقبلية المناطقية، ومعاداة السود، والتقسيم الطبقي؟ إن هذه الأمراض ناجمة عن عمليات تاريخية يجب معالجتها كذلك. وأخيراً كيف يمكننا تضخيم (تقوية وتوسيع) وصياغة التخيلات السياسية الموجودة أصلاً بيننا اليوم؟ ربما، يستدعي دورنا كمفكرين وطلاب وفنانين ونشطاء اجتماعيين الالتفات لهذه الأسئلة والبحث عن قواعد لغة سياسية لصياغة إجاباتها.

هاشم أبو شمعة: طالب دكتوراه في كلية الجغرافيا والبيئة في جامعة أكسفورد. يتقصى بحثه سياسات الإنتاج الثقافي الفلسطيني والتمدن في ظل الاستعمار الاستيطاني. كما يسعى إلى فتح حوار بين الوقائع في فلسطين والأعمال الإبداعية من حقول الدراسات السوداء ودراسات الشعوب الأصلية. وقد حصل على جائزة إبراهيم دكاك التي تقدمها "حوليات القدس" عن مقاله "سياسة فن البورتريه: استوديو عائلة كريكوريان"، الذي يوثق قصة أحد أوائل الاستوديوهات الفوتوغرافية في القدس. وهو حاصل على ماجستير دراسات اللاجئين والتهجير القسري من جامعة أوكسفورد، وبكالوريوس الآداب من جامعة إيرلهام، إنديانا. نشأ هاشم أبو شمعة في مخيم العروب للاجئين شمال الخليل.

Endnotes

1 يرتفع المعدل عندما تعدل العوامل بحسب العمر. انظر/ي: https://www.apmresearchlab.org/covid/deaths-by-race.

2 مكتب الإحصاءات الوطنية، «الوفيات المتعلقة بفيروس «كورونا» (كوفيد-19) بحسب المجموعات الإثنية، إنجلترا وويلز: 2 آذار/ مارس 2020 وحتى 10 نيسان/ أبريل 2020». https://www.ons.gov.uk/peoplepopulationandcommunity/birthsdeathsandmarriages/deaths/articles/coronavirusrelateddeathsbyethnicgroupenglandandwales/2march2020to10april2020#ethnic-group-differences-in-deaths-involving-covid-19-adjusted-for-main-socio-demographic-factors

3 Maha Hussaini, "'The Safest Place in the World': How the Coronavirus Went Viral in Gaza," Middle East Eye, 1 March 2020, https://www.middleeasteye.net/news/safest-place-world-how-coronavirus-went-viral-social-media-gaza.

4 منظمة الصحة العالمية، «المنظمة تشكر مؤسسة التنمية النمساوية للتبرع من أجل الاستجابة لـ(كوفيد-19)، تصريح صحافي، 9 نيسان 2020. http://www.emro.who.int/palestine-press-releases/2020/who-austrian-donation-covid19.html

5 يقدم غسان أبو ستة سردية صادمة حول الجائحة في غزة واضعاً إياها ضمن تحليل أطول للإدارة البيوسياسية للقطاع. انظر/ي غسان أبو ستة، الفيروس والمستوطن والحصار: غزة في زمن الكورونا، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رقم 123، صيف 2020.

6 Osama Tanous, "Coronavirus Outbreak in the Time of Apartheid," Al Jazeera, 24 March 2020, https://www.aljazeera.com/indepth/opinion/coronavirus-outbreak-time-apartheid-200324151937879.html.

7 المصدر نفسه.

8 المصدر نفسه.

9 Osama Tanous, "A New Episode of Erasure in the Settler Colony," Critical Times blog, 9 April 2020, https://ctjournal.org/2020/04/09/a-new-episode-of-erasure-in-the-settler-colony/.

10 Mehul Srivastava, "The Arab Medics Battling Coronavirus in Israel's Divided Society," Financial Times, 16 April 2020, https://www.ft.com/content/f193a9b9-c3a0-4da2-9a26-be4a92f99006.

11 أسامة طنوس، حلقة جديدة من مسلسل المحو.

12 إن تحليل انتشار الفيروس والسيطرة عليه عبر الخطوط الاستعمارية والعنصرية داخل المستعمرة الاستيطانية الإسرائيلية مهم، سوى أنه خارج نطاق هذا المقال. بينما نجد أن دولة إسرائيل قد بنيت بالتأكيد على تضاد جوهري بين المستوطن والفلسطيني، فإن آليات التعنصر تستبعد أيضاً اليهود السود والمزراحي والسفارديم إلى جانب المهاجرين واللاجئين السود وتجعل منهم آخر. للمزيد حول اليهود العرب داخل إسرائيل انظر/ي: إيلا شوحاط، عن اليهود العرب، فلسطين، وإزاحات أخرى: كتابات مختارة، (لندن، بلوتو بوكس، 2017). انظر/ي أيضاً: يفعات وايز، ذاكرة مصادرة: وادي الصليب وإرث حيفا المفقود، (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 2011). تقدم وايز تحليلاً مثيراً للاهتمام حول تظاهرات وادي الصليب، التي شكلت أول استجابة واسعة لليهود العرب ضد عنصرية الدولة الإسرائيلية. بيد أن وايز تفشل في مساءلة الصلات والفروق بين اقتلاع الفلسطينيين من وادي الصليب ونقل اليهود العرب (مستوطنين) إلى الأحياء نفسها كجزء لا يتجزأ من وظيفة المستعمرة الاستيطانية. سيكون من المعبر جداً توجيه هذه المقاربة العلائقية نحو المستعمرة الاستيطانية، إلا أنه لا يجوز أن يكون على حساب محو الفروقات الجوهرية بين المستوطن اليهودي العربي والفلسطيني المحلي.

13 Mayaan Niezna, "Under Control: Palestinian Workers in Israel During COVID-19," Border Criminalities blog, 7 July 2020, https://www.law.ox.ac.uk/research-subject-groups/centre-criminology/centre-border-criminologies/blog/2020/07/under-control.

14 Rania Zabaneh, "Palestinians Brace for a Coronavirus Outbreak As Workers Return," Al Jazeera, 6 April 2020, https://www.aljazeera.com/news/2020/04/palestinians-brace-coronavirus-outbreak-workers-return-200406200244263.html.

15 Patrick Wolfe, "Settler Colonialism and the Elimination of the Native," Journal of Genocide Research 8 (no. 4, 2006): p. 388. https://doi.org/10.1080/14623520601056240.

16 المصدر نفسه، ص 388.

17 المصدر نفسه، ص 393.

18 أشير هنا إلى الإحالة المستمرة للفلسطينيين المقيمين داخل إسرائيل عن مكانة المواطنين من الدرجة الثانية، إضافة إلى مشروع دولة إسرائيل غير المكتمل والمستمر لمحو المؤشرات الدالة على الوجود الفلسطيني قبل 1948. غالباً ما يتماشى الاثنان معاً عبر الأحكام والمراسيم القضائية، والتخطيط المديني، وشروط المواطنة (قانون الدولة القومية على سبيل المثال) إلى جانب أمور أُخرى. وقد لاحظت «عدالة»، وهي منظمة حقوق إنسان فلسطينية، فيما يتعلق بالأول أن هنالك 65 قانوناً إسرائيلياً يستبعد الفلسطينيين بصورة مباشرة. للمزيد انظر/ي، قاعدة بيانات القوانين المتحيزة المجحفة، عدالة. https://www.adalah.org/en/content/view/7771

وكما ذكر أعلاه، كانت وسائل الإعلام الإسرائيلية تقوم باستعلاء في وسط الجائحة بإظهار الأطباء والممرضات وعمال الصحة الفلسطينيين على الجبهات داخل الخط الأخضر، وكأنها تجادل بأن «إنتاجيتهم» يجب أن تكون أساساً للمزيد من الاستدخال ضمن جهاز الدولة الاستيطانية وبأن الدولة الاستيطانية قادرة على إدخال السكان المحليين. انظر/ي دينا كرافت، «قابلوا آل مجدل: عائلة عربية من الأطباء على الخطوط المواجهة الأولى مع فيروس كورونا في إسرائيل»، هآرتس، 21 نيسان 2020. https://www.haaretz.com/israel-news/.premium-an-arab-family-of-doctors-on-israel-s-coronavirus-front-lines-1.8786492

إن هذا النوع من الخطابة يبين كيف أن الاندماج كاستراتيجية يعمل لقياس الذاتية الفلسطينية من خلال معايير مفروضة من جانب الدولة الاستعمارية الاستيطانية ورأسماليتها العنصرية.

19 أُحيل هنا إلى التصنيف السريع للأراضي الفلسطينية كـ«فضاء استثناء» وحيوات الفلسطينيين كحيوات عارية. إن فرضية أطروحة جيورجيو أغامبين بأن هناك حياة عارية تتواجد في فضاء استثنائي، حيث تعلق فيه كل من القوانين السماوية والإنسانية، هي فرضية مقنعة، وقد اعتبرها العديد من المحللين تصف الوقائع في فلسطين. حتى إنه قد نُظم مؤتمر كرس لهذا الموضوع نشر من خلاله كتاب «التفكير في فلسطين» (تحرير رونيت لينتين، 2008). يناقش أغامبين بأن البنية الأصلية للدولة الغربية هي بالتفريق بين «الولادة» و«الأُمة»، وأنه في ذلك الفضاء الفارق المتميز يتواجد فضاء الاستثناء، إلا أن أغامبين يفشل في مساءلة ما يدعوه إلكسندر فيهيليي «التجمعات العنصرية» التي تنتج جماعياً هذا الاختلاف، إضافة إلى أن تركيزه على الدولة، أي الدولة كموقع وحيد للسياسة، يفشل في تعليل أنماط السياسات المتواجدة على خلفية الدولة وجهازها. لذلك، فإنني أفهم الحيوات العارية بوصفها عارية فقط إذا نظر إليها من منظور الدولة. للمزيد انظر/ي ألكسندر فيهيليي، هاباياس فيسكوس: عرقنة التجمعات، السياسات الحيوية ونظريات الإنسان النسوية السوداء، (دورام: مطبعة جامعة دوك، 2014).

20 عمر جعبري سلامانكا، مينزو قاطو، كريم ربيعي، وصحبي سمور، «الماضي حاضر: الاستعمار الاستيطاني في فلسطين». الدراسات الاستعمارية الاستيطانية 2 (عدد 1, 2012): ص 3.

21 من المفيد أن نذكر هنا وجود نظريات واستعارات تنتقل من نصوص مختلفة لتستخدم في شرح الوقائع في فلسطين، ومن ضمنها الاستعمار الاستيطاني، فضلاً عن الأبارتايد والاحتلال. وقد تستخدم أحياناً مجتمعة لوصف الوقائع، بالرغم من اختلافاتها الدراماتيكية في تصويرها. فبينما يسائِل الاستعمار الاستيطاني كإطار لعمل جهاز الدولة الاستيطانية برمته، فإن الأبارتهايد يختزل القضية الفلسطينية في إطار قضية داخلية –قضية إقصاء من قبل جهاز الدولة. للمزيد حول هذا انظر/ي مارك ريفكين، «الأصلية، الأبارتايد، وفلسطين: عن النقل السياسي للمجازات». النقد الثقافي 95 (شتاء 2017): ص 25. https://doi.org/10.5749/culturalcritique.95.2017.0025.

وفي الشأن ذاته، أحجم عن استعمال «الشعب الأصلي» في هذا المقال، لأن استعمالها كتسمية قد يجازف بفرض تحليلات ودلالات حول الوقائع الفلسطينية تنبثق من سياقات تاريخية مختلفة. لكن هذا لا يعني إقصاءها كدلالة، بل الاعتراف بأنني ما زلت أُناضل لرسم جينيولوجيا لها من دون المجازفة بفروقات متفاوتة بين فلسطين وغيرها من النضالات الأصيلة في العالم. بالرغم من ذلك، أجد أن مقولة ريفكين بأن الأصالة لا تتعلق بالأقدمية وإنما بالعلائقية، مفيدة جداً، إذ يجادل بأن الأصالة هي مسألة «مساءلة شرعية أطر العمل القانونية والإدارية للدولة الاستيطانية في الوقت الذي تعنى فيه بالوجود والمحيط الفعلي أو التشكيلات السياسية التي تطمح بها الشعوب الأصلية» (ص 28).

22 Audra Simpson, Mohawk Interruptus: Political Life Across the Borders of Settler States (Durham, NC: Duke University Press, 2014), p. 19.

23 Patrick Wolfe, Settler Colonialism and the Transformation of Anthropology: The Politics and Poetics of an Ethnographic Event (London: Continuum Books, 1999) p. 28.

24 المصدر نفسه، ص 2.

25 انبثق رفع الإنتاجية كرد على كره الذات الذي تم تعزيزه بين يهود أوروبا الشرقية من خلال استبعادهم المتحيز عن الصناعات الإنتاجية. بنقل هذه المقاربة لفلسطين كطريقة لإعادة تصميم الذات والسيطرة على الآخر، يتحول رفع الإنتاجية إلى استبعاد العمال العرب الفلسطينيين من الصناعات اليهودية. للمزيد، انظر/ي باتريك وولف، «الاستعمار الاستيطاني والساكن الأصلي».

26 Leila Farsakh, "The Political Economy of Israeli Occupation: What Is Colonial about It?" Electronic Journal of Middle Eastern Studies (no.8, 2008): p. 5.

27 للمزيد انظر/ي: ليلى فرسخ، هجرة العمالة الفلسطينية إلى إسرائيل: العمل، الأرض، والاحتلال (أبينغون، المملكة المتحدة: روتلدج، 2005). انظر/ي أيضاً: غيرشون شافير، الأرض، العمل، وجذور الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني 1882-1914، (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1996).

28 Andrew Ross, "Who Built Zion? Palestinian Labor

«حطامنا في ميدوسا»
حوار حول الاقتصاد، والذكورة، والعرق، في سياق الجائحة وخارجها

فانويل انتوي وماكس هيفين

بـدأ هـذا الحـوار في مدينـة فانكوفـر في أوائـل شـهر تشريـن الأول 2020، منطلقـاً مـن لوحـة ثيـودور جيريكـول المهمّـة «حطامنـا في ميدوسـا»، التـي تُعـرض حاليـاً في متحـف اللوفـر. عُرضـت اللوحـة للمـرّة الأولى في سـنة 1819، وهـي نتيجـة شـهور عديـدة مـن العمـل المضنـي للفنـان، قـام خلالهـا بإجـراء الأبحـاث ومقابلـة الناجـين مـن غـرق السـفينة سـنة 1816، مبـاشرة بعـد حـروب نابليـون. في ذلـك الحـدث التاريخـي، أرسـلت عائلـة بوربـون المالكـة، التـي اسـتعادت الحكـم، آنـذاك، قافلـة مـن السـفن إلى السـنغال عـلى أمـل اسـتعادة دور فرنسـا في تجـارة العبيـد عـبر الأطلـسي. وبسـبب عـدم كفـاءة القبطـان (أرسـتقراطي معـين)، فقـد علقـت السـفينة قـرب سـاحل الصحـراء الأفريقيّـة، واسـتخدم القبطـان وباقـي النخـب زورقـاً محمّـلاً باللـوازم، بينـما تُـرك 150 مـن البحـارة والجنـود مـن طبقـة العـمّال (مزيـج متعـدّد الأعـراق) لمصيرهـم عـلى متـن قـارب نجـاة صُنـع عـلى عجـل. وبعـد 13 يومـاً، عندمـا تـمّ إنقاذهـم، لم يكـن هنـاك إلاّ 15 شـخصاً ممّـن ظلّـوا عـلى قيـد الحيـاة، بعـد أن أُجـبروا عـلى إلقـاء المـرضى والجرحـى في البحـر، وبعـد أن اضطـروا للقتـال والـصراع، ولأكل لحـوم البـشر.1 وكـما هـو الحـال مـع الكثـير مـن النقّـاد في المـاضي، يعيـد أنتـوي وهيفـين قـراءة «حطامنـا في ميدوسـا»، كنايـةً عـن أيّامنـا المضطربـة، التـي تسـعى فيهـا أنظمـة القمـع والاسـتغلال إلى تحريضنـا ضـدّ أنفسـنا، والحـطّ مـن إنسـانيّتنا إلى أسـفل السـافلين. ومـع ذلـك فنحـن نقـاوم.

and the Case for Political Rights," New Labor Forum 27 (no. 3, September 2018): p. 46, https://doi.org/10.1177/1095796018791147.

29 المصدر نفسه.

30 انظر/ي، رانيا زبانة، «الفلسطينيون يستعدون لتفشي فيروس كورونا مع عودة العمال»، الجزيرة، 6 نيسان 2020.
https://www.aljazeera.com/news/2020/04/palestinians-brace-coronavirus-outbreak-workers-return-200406200244263.html

31 ادعى وزير الدفاع الإسرائيلي في 5 أيار/ مايو 2020 أن مؤسسة الأبحاث البيولوجية التابعة لوزارة الدفاع الإسرائيلية قد طورت لقاحاً لفيروس كورونا. انظر/ي «تايمز أوف إسرائيل»، «وزير الدفاع يدعي أن المعهد البيولوجي الإسرائيلي قد طور أجساماً مضادة للفيروس،» 5 أيار/ مايو 2020.
https://www.timesofisrael.com/defense-minister-claims-israels-biological-institute-developed-virus-vaccine/
كما تبجحت وكالة الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) حول قدرتها في الحصول على أجهزة تنفس للمواطنين الإسرائيليين. انظر/ي مايكل براشر، «ضابط موساد يصف معركة عالمية مكشوفة للحصول على أجهزة تنفس بأي ثمن»، «تايمز أوف إسرايل»، 1 أيار/ مايو 2020.
https://www.timesofisrael.com/mossad-officer-describes-covert-global-battle-to-obtain-ventilators-at-all-costs/

32 France 24. "Palestinian Leader Mahmoud Abbas Suspends Relations with the US, Israel," 1 February 2020, https://www.france24.com/en/20200201-palestinian-leader-mahmoud-abbas-suspends-relations-with-the-us-israel.

33 Stefano Harney and Fred Moten, The Undercommons: Fugitive Planning and Black Study (Brooklyn: Autonomedia, 2013), p. 42.

34 آندرو روس، «من بنى صهيون؟".

35 المصدر نفسه، ص 49.

36 Andrew Ross, Stone Men: The Palestinians Who Built Israel (New York: Verso Books, 2019).

37 ريفكين، «الأصلية، الأبارتايد، وفلسطين».

38 المصدر نفسه، ص 33.

39 العربي الجديد، «حياة السود مهمة، المملكة المتحدة تقف مع فلسطين ضد «الاستعمار»، بينما يحوم شبح الضم الإسرائيلي غير الشرعي،» 29 حزيران/ يونيو 2020.
https://english.alaraby.co.uk/english/news/2020/6/29/black-lives-matter-uk-stands-with-palestine-against-colonialism
انظر/ي أيضاً مجلة الدراسات الفلسطينية عدد خاص (رقم 192، صيف 2019) حول التضامن الأسود- الفلسطيني العابر للحدود الوطنية.

40 انظر/ي على سبيل المثال: كيث پ. فلدمان، ظل يخيم على فلسطين: الحياة الإمبريالية للعرق في أمريكا (مينيابوليس: مطبعة جامعة مينيابوليس، 2017). وانظر/ي أيضاً: آنجيلا ديفيس وفرانك بارات، الحرية نضال دائم: فيرغسون، فلسطين، وأسس الحركة (شيكاغو: هايماركت بوكس، 2016).

41 للمزيد حول هذا انظر/ي: جريج بوريس، «ولادة أمة صهيونية: الراديكالية السوداء ومستقبل فلسطين»، في مستقبلات للراديكالية السوداء، تحرير غاي تيريزا جونسون وآلكس روبين (بروكلين: فيرسو بوكس، 2017). كانت هناك نقاشات مهمة دارت في الأشهر الماضية حول التضامن بين السود والفلسطينيين تحذر من ذلك، حيث يحذر بعض النشطاء من السود والفلسطينيين من نسبة العنف ضد السود بالعنف ضد الفلسطينيين، وكأن الأول مهم للحد الذي يساعدنا في تسليط الضوء على الوقائع في فلسطين. كما يحذرون أيضاً من الاستحواذ على شعارات الحركة السوداء ورسائلها وتعبئتها. وعلى تصور التضامن الأسود- الفلسطيني الرد على هذه المحاذير على المستويين النظري والفلسفي.

42 المصدر نفسه، ص 773.

43 Robin D. G. Kelley, "What Is to Be Done?" American Quarterly 63 (no. 2, 2011): p. 268.

44 Stefano and Moten, The Undercommons, p. 42.

45 إدوارد سعيد، «الصباح التالي»، لندن ريفيو أوف بوكس، 21 تشرين الأول 1993.
https://www.lrb.co.uk/the-paper/v15/n20/edward-said/the-morning-after

46 يستفيد هذا التحليل إلى حد كبير من كتاب أودرى سيمبسون الآسر عزل الموهاك.

47 من مقابلة لريتشارد كارلتون مع غسان كنفاني عام 1970. المقابلة كاملة انظر/ي «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين غسان كنفاني، مقابلة ريتشارد كارلتون كاملة». كليب اليوتيوب 14 آب/ أغسطس 2017، 6:56.
https://www.youtube.com/watch?v=3h_drCmG2iM

الذكوريّة

فانويل: في «حطامنا في ميدوسا»، نرى صورة الرجال، وجميعهم من العاملين، عمّال من شتّى الأنواع، فوق بعضهم البعض، يلمسون بعضهم البعض وفي تماس مع بعضهم البعض. في لحظة الجائحة هذه، التي تمّ تعريفها ونعيشها بوصفها أزمة، نحن نعيش أزمة جندريّة (النوع الاجتماعي)، وتحديداً أزمة في الذكورة. وإنَّ أحد المواقع التي لا يمكن فيها تجنّب هذه الأزمة هو جبهة المنزل. فالأزمة تنشأ لأنّ الرجال يفقدون أعمالهم؛ فالرجال الذين يكونون في العادة مليئين بالطاقة، بل قادرون على توزيعها عندما يكونون على رأس عملهم، يجدون أنفسهم حبيسي المنزل، غالباً من دون أيّ مجال للتنفيس. كثيرون منهم يجدون أنفسهم الآن مضطرين لتقديم الخدمات، أيضاً، في جبهة البيت. هم ليسوا معتادين على القيام بالمهامّ الإنجابية. هنا يدور تفكيري حالياً، أنظر إلى لوحة جيريكول، وأفكّر في الذكورية واقتصاداتها في لحظة الإغلاق هذه.

ماكس: هنا، كنت أفكّر في هذه اللوحة وقصص القارب التي استندت إليها، وقصص اللاجئين الذين بدأوا يشربون مياه البحر المالحة، ويحترقون في حرارة الشمس، ويصابون بالهذيان، ما أفضى بهم إلى العراك ثمّ إلى أكل لحم الميتة. أنا أفكّر في النظام الأبوي، وكيف تصبح الذكورة العاطلة في ظلّه أكثر خطورة. فالعوالم الأبويّة تشغل الرجال بشكل أو بآخر، وعندما ينتهي ذلك العمل الشاغل، تحدث أمور خطرة. لا أعتقد أنَّ هذا يستند إلى النوع «الطبيعي» للذكورة، بل إلى نوع الذكورة الذي قمنا ببنائه اجتماعياً. ومثل هذيان بحّارة القارب العاطلين، كثيراً ما تتحوّل الذكورة العاطلة المهيمنة إلى هذيان: نظريّات المؤامرة، وأشكال الذهان النرجسي، إنّما هذه سبل، على ما أعتقد، يسعى الرجال من خلالها إلى استعادة قوّتهم بوصفهم «سادة الحقيقة» نوعاً ما. لكن يتبيّن أنّهم خطرون جداً. ويتضاعف هذا الوضع ويتسلّح في الشبكة العنكبوتية، التي تسخّر هذا الاغتراب والشعور بالعجز في خدمة قضايا رجعية.

فانويل: ثمّة اختلال، قطع للدائرة في خطّ تركيب الحميميّة داخل جبهة المنزل الذي ينتج الأزمة - هذا إذا أردنا أن نطلق على الاختلال القائم أصلاً، الذي طفا إلى السطح، اسم الأزمة. أعتقد أنّ الأزمة قائمة فعلاً (وبخاصّة إذا لم نتجاهل انعدام المساواة الذي طفا على السطح)، وأنّها تحدث على جبهات عدّة، وليس فقط داخل الأسر العاديّة، تتم رعاية الأطفال عبر ما يعرض في السوق.

تحوّل في الأجيال

ماكس: أعتقد أن أزمة الذكورة هذه تأتي وسط تحوّل في الأجيال. ها نحن نرى أصغر الأجيال الذي وصل إلى سنّ البلوغ لتوّه، يشكّك بشكلٍ متزايد في ضرورة طاعة الأعراف السائدة حول التعبير عن الجندر والجنسانيّة. فنحن نرى في ترتل أيلاند (أميركا الشمالية) عدداً أكبر من الشباب الذين يعرّفون جنسهم بطريقة غير محدّدة، أو يعرّفون أنفسهم كمتحوّلين جنسياً أو غير ثنائيي الجندر. وأنا أعتقد أنَّ هناك، في أنحاء العالم، حركةً ضخمةً للتحرّر من الهياكل الجندرية، وهي حركة ناشئة من الأزمة الأوسع للذكورة ومساهمة فيها في الوقت نفسه، ولم يعد بإمكانها إعادة إنتاج نفسها؛ فهي غير قادرة على اجتذاب عددٍ كافٍ من الأنصار لأنّها تخفق في جعل الحياة ذات قيمة وقابلة للعيش. غير أنَّ هذه الأزمة تولّد كذلك مفعولاً رجعياً وارتداداً خاصاً بها، ونوستالجيا خطرة للماضي وما نزعم أنّه كان عليه، بالطريقة التي نتخيّله فيها.

أريد أن أعود إلى الرسم، وأن أنظر إلى صورة الرجل المسنّ الوحيد في اللوحة الذي كان يشيح بوجهه إلى الخلف، بعيداً عن السفينة البعيدة التي قد تقوم بإنقاذ اللاجئين. بل إنّه كان ينظر إلى الخلف، نحو المصدر الغامض للضوء في اللوحة، وفي عينيه نظرة بعيدة وحزينة.

فانويل: بالنسبة لهذا الرجل المسنّ الذي تلفت الانتباه إليه، فإنّ إحدى طرق قراءة هذه الصورة هي القول نعم، إنّه ينظر إلى الخلف، ومن ملابسه يمكن لنا أن نضعه ضمن حضارة مختلفة. لكنّه يمسك بجسد شاب ويسنده، والذي قد يكون ميتاً أو يحتضر. أعتقد أنَّه يوجد شيء هنا يتعلّق بالمسنّ وهو يرى الشاب يموت، أو يقوم بدفن الشاب. أنا أحاول أن أفكّر في الاتصال وسوء الاتصال (الحميميّة)، وكيف تشكّل طريقة للتعلّم بين الأجيال. إن إمكانيّات التعلّم التي لا تنتهي، والتي تحدث اليوم هي عكسيّة لما نفترضه، حيث إنَّ الجيل الأكبر يتعلّم اليوم من الجيل الأصغر.

كما أنّنا نلاحظ هذا الأمر خلال الجائحة العالميّة الحاليّة، في الغرب، حيث نميل إلى تحميل الشعوب السوداء والبنّية المهمّشة عبء الأعمال الإنجابيّة والرعاية. فنحن نقوم بإرسال المسنّين، البالغين الأكبر سناً، إلى دور الرعاية. ولأنَّ هذه المرافق تعاني عادةً من نقص في الموظّفين ومن الازدحام، يكون الكثيرون معرّضين لالتقاط العدوى، إلى درجة أنَّ بعض الناس يطلقون على هذه الدور لقب «حفر الموت». ومع ذلك، يسرّني أن أسمع أحد طلابي، في بدايات الجائحة يطلب تمديد مهلة

تسليم وظيفته، لأنّه «يقف حالياً في الصفّ في متجر كوستكو (أحد أكبر المتاجر ذات الأسعار المخفّضة في أميركا الشمالية)، مع إحدى المؤسّسات المجتمعيّة لشراء اللوازم للأشخاص غير القادرين على التوجّه لشرائها بأنفسهم». هؤلاء الشباب الصغار، يقف كثيرون منهم في الجبهة الأماميّة، ويقومون بأعمال ويساعدون الأشخاص المعرّضين للإصابة أو المعرّضين لخطر الموت، أعتبر عملهم واعداً جداً، عمل الرعاية الجماعي هذا، والنشاط عبر الأجيال الذي يظهر التضامن من خلال التقارب وليس التباعد.

ماكس: أعتقد، أن نموذج الذكورة المهيمن عالمياً اليوم هو نموذج «الرجل الاقتصادي»؛ أي نموذج الفاعل المنيع الذي لا يمكن اختراقه، والمنضبط، والمستقل. وأنا أفكّر في عمل سيلفيا وينتر الذي ساعدنا على التفكير في كيفيّة نشوء هذا النموذج السائد للرجل من الإمبرياليّة الأوروبيّة والرأسماليّة العالميّة الذي جرى تشبيهه بالأسد، باعتباره الحيوان المتفوّق التنافسي بطبيعته.[2] لكنَّ أسطورة الاكتفاء الذاتي والاستقلال اللذَين يتّسم بهما الرجل الاقتصادي هي خدعة. فإمكانيّاته دائماً قائمة على أساس العمل الإنجابي الخفي للآخرين، قائمة على جميع الأشخاص غير المرئيّين وغير المُحتفَى بهم، الذين يقومون بالعمل حوله. يتحرّك الرجل الاقتصادي على أكتاف الكثيرين من حوله، ولكنّه ينكر ذلك.

ثمَّ أفكر في هذا الشخص الذي يجلس فوق أكتاف الآخرين في اللوحة، ويرفعه زملاؤه اللاجئون، لكي يلوّح للسفينة المارّة التي قد تنقذهم. إنّهم يشكلون الأمل الوحيد لبعضهم البعض: هو ليس ببساطة صراعاً وحشياً على الموارد الشحيحة ينتهي بأكل لحم البشر. يمنحنا هذا الهرم من الأشخاص المتعاونين رؤية تجاه الذكورة والإنسانيّة، وما يمكن أن تكون عليه لو أنّنا اعترفنا بأَوجه ضعفنا المشتركة أمام بعضنا البعض، وأَوجه ضعفنا المشتركة، ليس تجاه عدوى المرض فحسب، بل أيضاً تجاه عدوى الثروة، وعدوى الهويّة، والتذويت، والاعتماد المتبادل.

فانويل: إذا كنّا نفكر في الحديث عن الطبيعة المهيمنة والتنافسيّة للذكورة، وطريقة عملها ضمن النظام الأبوي، لا يسعني إلاّ أن أفكّر في الذكورة المثليّة في هذه اللحظة المحدّدة. ألاحظ اليوم، أنَّ ترامب وآخرين يسعون إلى تعريف فيروس الكورونا على أنّه «الفيروس الصيني». وفي السابق، أُطلق على فيروس نقص المناعة المكتسبة «الإيدز» اسم «فيروس المثليّين»، هذا إن ذُكر أصلاً. كيف نفكّر في التسمية الخاطئة للفيروسَين اللذَين سبّبا أزمة، وانكسار هذه التسمية عبر العدسة الأبويّة، وتحديداً عبر العدسة الأبويّة في شمال الكرة الأرضية؟

المؤقتات (اللحظيات)

ماكس: أعتقد أنَّه يتّضح في اللحظة الحالية أنَّ الرأسماليّة تعمل جزئياً من خلال إشغالنا إلى درجة لا نستطيع فيها التفكير أو الإحساس. وفي هذه اللحظة من الجائحة، يواجهنا انكسارٌ في التسلسل الزمني للرأسماليّة. كنت آمل في بداية الجائحة أن يؤدّي هذا إلى توفّر المساحة والوقت لإعادة النظر. لكنَّ الغريب باعتقادي، هو أنَّ هناك قدراً من الإرهاق، والاغتراب، بحيث أنَّ الكثير من الناس لم تسنح لهم الفرصة للتفكير في نوع الحياة التي يريدون حقاً أن يعيشوها. يرغب الكثيرون في العودة إلى الحياة الطبيعيّة التي كانوا يكرهونها، ببساطة لكي يهربوا من ملل أو رتابة الجائحة. يذكّرني هذا بدرسٍ تعلّمته عندما كنت أدرس المخيّلة الراديكالية: نحن لا نفكّر بشكل فردي، بل نفكّر بشكل جماعي.3 نفكّر بشكل تعاوني، ونفكّر من خلال القيام بالأشياء معاً. وفي هذه اللحظة، عندما نقوم بقدرٍ أقلّ من الأعمال، أو عندما يتقلّص ما «نفعله» ليصبح روتيناً، وعندما نجبَرُ على العزلة، فإنّ المخيّلة تضمر. إنَّها لحظة غير مسبوقة، لكنَّ شيئاً ما يعرقل قدرتنا على استغلال هذه الوقفة الغريبة في الوضع الراهن وحشد المخيّلة الراديكالية.

فانويل: أنا أفكّر في حركة «حياة السود مهمّة» (Black Lives Matter)، وتداعي المكان والزمان لمن يعيشون في ظلّ الجائحة المزدوجة: جائحة الفيروس الذي تحدّثت عنه، وأيضاً جائحة عنف الشرطة تجاه حياة السود. في الوقت الذي كانت هذه الحركات تندلع بسبب موت الأشخاص السود في الولايات المتحدة، يبدو أنّه كانت هناك تداعيات عالمية، استجابة عالمية من نوع ما. من ناحية زمانية، يبدو أنَّ هناك الإرهاق الذي تتحدّث عنه، وهناك إرهاق مساوٍ ناجم عن قمع الدولة أو العنف العنصري للدولة. لقد سئم الناس من اعتبار هذا الوضع طبيعياً، وهم يرفضون التجنيد في زمن الدولة. فتخفيض قيمة حياة المسنّين الذي تحدّثت عنه (التمييز على أساس السن)، وتخفيض قيمة حياة السود (العنصريّة ضد السود)، التي أتحدّث عنها، تجعل من هذه التعبيرات، «التباعد الجسدي»، و«تسطيح المنحنى»، و«الحجر الذاتي» جملة أكاذيب. نزل السود إلى الشوارع للاحتجاج لأنّنا نعرف أنّ المحافظة على مسافة ستّة أقدام بيننا لا يحصّننا من النزول ستّة أقدام تحت الأرض.

في مكان مثل فانكوفر، حيث أعيش، وأعمل وأحبّ، تعي حركة «حياة السود مهمّة» هنا طبيعة عملها في أراضي ساحل كوست ساليش (Coast Salish)، الذي تقوم به في أراضي مايسكوام، وسكواميش وتسليل وأتوث، وهي أراضي السكان

الأصليّين التقليديّة من أجدادهم، التي لم يوقّعوا على التنازل عنها. وبالتالي، فالحركة تلزم نفسها بالعمل ضدّ أشكال العنف العنصري المنهجي، وتحدّد القضايا التي تضرّ بالسكّان الأصليّين على هذه الأراضي، ليس ببساطة لأنّ «معدّل» عنف الدولة والعنف العنصري مضرّ للكثير من أشكال الحياة الأصلانيّة في هذا الموقع تحديداً. فالمسألة لا تقتصر على هذا الأمر. ما أحاول قوله هو التالي: بينما يناصر النشطاء والقادة السود من أجل حياة السود بأشكالها كافة، فإنَّ مناصرتنا التي تخيّلتها وقادتها النساء السود، والكويريين، والمتحوّلين جنسياً ليست من أجل قضية واحدة فقط. ومع ذلك، وبينما هي ليست منصة من أجل قضية واحدة، فإنها ليست مشروعاً ما بعد عنصري كذلك: لأولئك الذين يرغبون في أن يروا هذه الحركة كحركة متعدّدة الأعراق، سيكون من المفيد لنا أن ننظر إلى السواد (من السود) على أنّه تعدّد عرقي، وعلى أنّه موقع للتعدّد العرقي، موقع ينشأ من ومع منظور السود، والمثليين، والنسويين، والمتحوّلين جنسيا، وأصحاب القدرات المختلفة، والفقراء، والراديكاليين.

التمرّد ضد التصنيف العرقي

ماكس: وبطريقة حديثنا نفسها قبل لحظات حول شكل من التمرّد ضدّ الجندر، فإنّي أعتقد أنّ هذا هو تمرّد ضدّ التصنيف العرقي، أو العنصرة أيضاً، والذي غالباً ما يقوده عملياً الناس السود الذين بُنيت على ظهورهم أهرام القيمة العنصريّة. أعتقد أنّه بالطريقة نفسها، فإنّي أشعر أنّ الأشخاص الأكثر تهميشاً والأكثر استهدافاً من قبل أنظمة الإرهاب الجندري، أي الأشخاص المغايرين للثنائية الجنسية، والمتحوّلين، والأشخاص المحرومين من موقع لهم في النظام الجندري، يفتحون باباً لنا على نحوٍ ما، لكي نتحرّر من هذا النظام الجندري. كذلك الأمر، في هذه اللحظة، وبطريقة غريبة، أعتقد أنّ وجود السود في أسفل الهرم العرقي هو سبب هامّ للتفاعل مع الحركة في شتّى أنحاء العالم، حتّى لدى شعوب وفي أماكن لا يشكّل فيها السود أغلبيّة عدديّة، على الرغم من أنّها بدأت في الولايات المتّحدة.

فانويل: أنا أقرأ هذه اللحظة في الولايات المتحدة إلى جانب حركات السود العالمية الأخرى، وتحديداً طريقة دعوة الطلاب لإنهاء استعمار التعليم في أنحاء جنوب أفريقيا في حركتي # رودس يجب أن يسقط و# الرسوم يجب أن تسقط سنة 2015، التي اندلعت بين الطلاب في أنحاء العالم رفضاً للتصميم الإدراكي للتعليم الاستعماري. تركّز هذه الحركة الطلابيّة الراديكاليّة على إنهاء الاستعمار في الجامعة، من خلال

مواجهة أسئلة تتطرّق إلى العنصريّة المؤسّسية، وإعادة تصميم المناهج الجامعيّة المتمحورة حول أوروبا، ورفع قدرة السود على الوصول إلى التعليم، ما يذكّرني بالعلاقة بين الاستعمار والتصنيف العرقي. في كثير من الأحيان، ينشأ ميل في أميركا الشمالية نحو فصل التصنيف العرقي عن الاستعمار، والاستعمار عن التصنيف العرقي. ويجد هذا الفصل الزائف تسويغه المنطقي في لغة تدوين التاريخ، وهي التي يلتزم فيها النقّاد الملتزمون في خارطة الفصل هذه مساراً تاريخياً يحدّد القرن التاسع عشر كلحظة وصول للتصنيف العرقي. وهم يطرحون أنَّ الاستعمار سبق التصنيف العرقي. ومع ذلك، وكما نعرف من حركة «# رودس يجب أن يسقط»، فإنّ اغتراب وضعف السود يرتبط بمشروع الاستعمار وإدخال الحضارة، وبالتالي فإن المسائل المتعلّقة بالتصنيف العرقي يجب أن تنخرط في المسائل المتعلقة بالاستعمار. أنا لا أحاول إطلاقاً محو الفروق بين المشروعَين، ولكن كمشاريع للقهر والهيمنة، فكلاهما جزء لا يتجزّأ من تنظيم حيواتنا. وأنا أجد من المثير للاهتمام إلقاء الضوء على هذا الفرق.

ماكس: كيف ذلك؟

فانويل: يخطر في بالي عمل جودي بيرد الرائد،4 الذي يوجّه النقد المناسب لتخصّصات مثل الدراسات الإثنيّة، ودراسات ما بعد الاستعمار، وسياسات مثل التعدّدية الثقافيّة، والليبراليّة التي تساهم في مشروع دمج وتقبّل الاستعمار الاستيطاني. وهي تفعل ذلك من خلال إظهار حقيقة الاستعمار وأنشطته القائمة ومعاملته المتواصلة والاستغلاليّة للشعوب والأمم الأصليّين ضمن الثقافة الإمبرياليّة للولايات المتّحدة. وهي تشدّد على كيفيّة قيام الولايات المتحدة بالمحافظة على هياكل القوّة من خلال شخصيّة «الهندي الأحمر». وتبيّن تحديداً كيف أنَّه في الولايات المتحدة، يجري تصوير «الهندي» على أنّه العرق الآخر، ونتيجة لذلك، يصوَّر على أنَّه عابر: فمن خلال خلق هذه الشخصيّة أو الصورة، يمكن للأمّة أن تلفّق القصص حول «الهندي الأحمر»، والتي تضفي الشرعية على التشريد، وفي الوقت نفسه، تبشّر/تعد بالمساواة. وهي تربط العنف والإبادة الجماعيّة للاستعمار والأرض التي سُلبت من السكّان الأصليّين، ما يمكّننا من سماع المآسي التاريخية التي يسعى مشروع التعدّدية الثقافيّة للتصنيف العرقي إلى صرف انتباهنا عنها. ولكي تحقّق ذلك، فهي تميّز بين التصنيف العرقي وبين الاستعمار.

أعتقد أنّ هذه الصياغة مكّنتها من القيام بمشروع محدّد وضروري، لا يتمثّل في الإصرار على أهميّة الأصلانيّة التأسيسيّة في تكوين الولايات المتّحدة فحسب، بل أيضاً على الدراسة الفكريّة للأنساب بشكل يوضح هذا التكوين؛ كيف أنَّ

العنف التأسيسي المتمثّل في جعل أراضي السكّان الأصليّين تصبح مساحات محلّية (للمصالح الاستعمارية) يستمرّ في الطلب من المخيّلة الأميركية أن تستمرّ في موضعة «الهنديّ» في الماضي. وقد قيّد هذا المشروع الضروري القدرة على التفكير في التصنيف العرقي بعلاقته مع الأصلانيّة، أو بعلاقته مع الاستعمار، إضافة إلى إدراك كيف أنَّ الاستعمار يمنح التصنيف العرقي القوّة والمبرّر. عوضاً عن ذلك، فإنَّ الاستعمار يشكّل الإطار الذي نفكر من خلاله في الأصلانيّة، كما يشكّل التصنيف العرقي الإطار للتفكير في السكان غير الأصليّين. وأنا أعتقد أننا نمرّ الآن في لحظة لم يعد فيها هذا المنطق مفيداً، على الرغم من أنّه كان ضرورياً للفت الانتباه إلى الاستعمار المتواصل للأراضي الأصليّة، حيث إنَّه لا يساعدنا على تحقيق العيش المشترك على هذه الأرض، والتوصّل إلى صيغة نتمكّن فيها من محاسبة ومساءلة بعضنا البعض، ونشهد على ما يحدث لبعضنا البعض. لذا، فإنَّ هذه الحركات مصرّة في الواقع على إعادة تخيّل معنى أن تكون موجوداً الآن، وأنت تحمل إرثاً من الغزوات، والشتات، والنزوح، والتشرّد، والاجتياحات، والاغتراب والاستغلال العنصري، وأن تكون مساءَلاً عن الأراضي التي نعيش فيها. إذن نعم، نحن الآن في لحظة مختلفة. وكما قلت، ثمّة شيء خاص في العيش في ظلّ الجائحتين، الآن، على الأقل في أميركا الشمالية، وفي سنة تشهد على فيروسين يهاجمان السود، وكثيرون منّا يرفضون عدم حضور هذا العنف العنصري الموجّه ضدّ السود.

ماكس: يذكّرني هذا بطرح مقنع لجاستن ليروي[5] قبل بضع سنوات، حيث يبدأ مقاله بالإشارة إلى الحوارات الساخنة القائمة بين دراسات السود ودراسات السكّان الأصليّين في الغرب، التي تدور حول مدى اعتبار العنصريّة الموجّهة ضدّ السود أو الاستعمار الاستيطاني هي «المحرّك الأساسي» لنظام القمع العالمي هذا. هو يريد وضع هذا السؤال جانباً: فهي عقدة مستعصية لا يمكن حلّها. بدل ذلك، هو يرى كيف فهمت كلٌّ من حركة السكّان الأصليّين وحركة السود نفسها من خلال التضامن مع القضية الفلسطينية. فالشخصية الفلسطينية -على الأقل لمن هم خارج فلسطين ويسعون إلى التضامن مع الفلسطينيّين- هي شخصيّة أصليّة مستعمَرة وخاضعة للتصنيف العرقي في الوقت نفسه. هي الآخر المستعمَر والآخر المعرَّض للتصنيف العرقي ضمن الأنظمة العالميّة للرأسماليّة العنصريّة، التي تشكّل إسرائيل جزءاً مهماً منها وبرهاناً عليها.

أستخلص من هذا أهميّة التفكير في مثل هذه التناقضات المستعصية، مثل تلك القائمة بين المشروعَين العنصري والاستعماري على سبيل المثال، والبحث في مكان آخر عن طريقة لتسوية هذه التناقضات على مستوى التطبيق، وليس على المستوى النظري.

ضمن وضدّ وخلف الموت المبكر

فانويل: إنّ الحدود القائمة بين التّخصصات ضمن الإنتاج المعرفي الأكاديمي مهدّدة بأن تصبح مجرّد حدود من صنع مخيّلتنا. ففي بعض الأحيان، أنا أقلق من الرأسماليّة الفكريّة في العمل الأكاديمي، وكيف أنّها وبدافع من شهيّتها المفتوحة نحو كلّ ما هو جديد، سرعان ما تترجم التفكير الأكاديمي إلى سياسات للتنفيذ، التي تؤثّر بدورها على الطريقة التي نفكّر، وننظّم ونحيا فيها حياتنا. إذن، بينما يؤدّي فصل الاستعمار عن التعريق (من العرق) إلى إقامة حدود رمزيّة تصحّح كيفيّة قيام الحقول أعلاه بإنتاج العمل الأكاديمي، فإنَّ هذه النظريّة لا تمحو التجربة الاستعماريّة التي يعيشها الشعب الأسود والكثير من الشعوب الأخرى التي تعاني من التمييز العنصري. تتخيّل صديقتي وزميلتي دينيز فيريرا دا سيلفا، المخالطة الاجتماعية (sociality)، أنَّها أخلاقيّات للتعايش في مقالها القصير المعنوَن، «عن الاختلاف دون قابليّة الفصل».[6] وأجد نفسي أعود إليها مراراً وتكراراً في دروسي لكي أذكّر نفسي وطلابي بأنَّ الاختلاف لا يعني بالضرورة الفصل، وأنَّ العيش في ظلّ هذا الانفتاح على الاختلاف هو في الواقع أمر صعب فعلاً.

ومع ذلك، إذا تذكّرنا أنّ القابليّة للفصل هي أحد مبادئ المعرفة العلميّة التي تخفّض قيمة حياة السود وموتهم وتأمر بها، وإذا تذكّرنا أنَّ المعرفة العلميّة شكّلت عاملاً رئيسياً في خلق الظروف المواتية لقتل الشعب الأسود، عندئذٍ قد نتعلّم جميعاً الحياكة.

ماكس: يتزايد انجذابي إلى اللغة التي تستخدمها روث ويلسون جيلمور في الحديث عن الموت المبكّر. هي تعرّف العنصرية بأنَّها «إنتاج واستغلال الضعف أو الموت المبكّر المخصّص لمجموعة بعينها بتفويض من الدولة أو خارج نطاق القانون».[7] أعتقد أنّ هذا يساعد في فهم شيء عن قدرتنا على أن نعيش في الزمن نفسه، ولكن على ما يبدو بسرعات متباينة. كما يشرح لنا هذا أنَّ الأنظمة التي نعيش في ظلّها تقتلنا كلّنا، ولكنّها تقتلنا بمعدّلات تتباين بوناً شاسعاً وبعواقب مختلفة اختلافاً دراماتيكياً.

أفكّر في هذا من زاوية عملي كناشط في مدينة ثاندر باي، السيئة الصيت بسبب كونها رمزاً للعنف الاستعماري الذي يمارسه المشروع الاستعماري الاستيطاني الكندي، حيث يعاني السكّان الأصليّون من معدّلات غير معقولة من حالات الموت المبكّر.[8] ولا يعود سبب حالات الموت المبكّر هذه إلى عنف الشرطة والعنف الاستعماري فحسب، بل إلى نقص الرعاية الصحيّة، وعدم توفّر الطعام

المناسب، وعدم القدرة على الوصول إلى المياه النظيفة والرعاية الصحيّة النفسيّة، وتطول القائمة. كأنّها مؤامرة يراها من يعاني منها، لكنّها خفيّة أو مَخفيّة عن أَعين من يرتكبها ومن يستفيد منها. ويبدو أنَّ هذا نموذج عالمي أيضاً: توزيع عالمي للموت المبكّر خفيّ وهو أمام الأبصار... .

فانويل: ... أن نصبح ذكرى عامة، في الأراضي نفسها والجغرافيّات نفسها التي نمشي فيها. إنَّ طريقة وصفك لثاندر باي، وهنا أفكّر في الأشكال المقنّنة للهندسة الاجتماعيّة للمدينة، وكيف أنَّ النواقص التي عدّدتَها تتحالف من أجل سلب حياة السكّان الأصليّين، كذلك تصلح في وصف الجغرافية العاديّة للاستعمار الاستيطاني الكندي، التي تقوم بنيتها على أساس العنصريّة الاجتياحيّة ضدّ السكّان الأصليّين. ومع ذلك، ولأنّ الجغرافيّين السود علّموني النظر إلى المكان وإنتاجه بطريقة مختلفة، ولأنّ المفكّرين والنسويّين من السكّان الأصليّين، من أمثال أودرا سيمبسون ودوري ناسون، علّموني السياسة التحرّرية المتمثّلة بالرفض،9 لذا، فأنا أريد أن أؤمن بأنَّ علامات مقاومة السكّان الأصليّين وبقائهم قائمة داخل مشهد ثاندر باي. في مقال لميشيل ديغل ومارغريت ماريتا راميريز، «جغرافيّات إنهاء الاستعمار»، تطلبان فيه منّا العمل على «نسج مكاني لجغرافيّات إنهاء الاستعمار حول الأراضي والمياه الأصلية»،10 وبالنسبة لي، فإنَّ جزءاً من هذا العمل يتمثّل في السعي لكي نرى كيف يحتوي مكان كالذي وصفته، أيضاً، على مستقبل خالٍ من الاستعمار في داخل حياته اليوميّة، والعمل على حماية هذا المستقبل.

المخيّلة

ماكس: هذا يدفعني إلى التفكير في العودة مجدداً إلى «حطامنا في ميدوسا». فالزورق هو مكان القسوة والعنف الفظيعَين، ولكنّه، أيضاً، مكان يتمّ فيه بناء علاقات جديدة. المثير هنا، كما ذكرنا سابقاً، هو أنَّ جيريكول يتمتّع بقدرة خارقة على جعل كلّ لحظة من لحظات اللمس تقريباً في هذه اللوحة ملتبسة. نحن لا نعرف إن كان الشخص، الذي يرتدي غطاء الرأس المنساب زهري اللون في وسط اللوحة، يقوم بمساعدة الرجل الموجود أمامه أم أنّه يدفعه إلى الأسفل. كما أنّنا لا نعرف إن كان الرجل المسن، أي شخصيّة الأب، الذي ينظر بعيداً في الجهة اليسرى من اللوحة، يمسك بجسد رجل ميت أو ينقذ ذلك الجسد من الغرق. ولا نعرف إن كان الشخص الذي يظهر في أسفل الجهة اليمنى من اللوحة، الجسد الأسود المتدلّي، ووجهه إلى الأسفل، والمتقاطع مع جسد أبيض ذي رأس أحمر، إن كان حياً أم ميتاً، إن كان الجسد الأسود يثبت الأبيض في الأسفل، أم أنَّ هذا كان عناق المحبّين.

لوحة للفنان ثيودور جيريكول تحمل عنوان "عوامة ميدوسا"، عُرضت أول مرة في العام 1819، وتُعرض الآن في متحف اللوفر في باريس.

ما من علاقة واضحة في هذه اللوحة بالنسبة لنا. لذا، بإمكاننا، بل يجب علينا أن نقرأ اللوحة على أنّها شيئان في الوقت نفسه: من ناحية، هي الصورة الكاملة للحطّ من الإنسانية، حرب الجميع ضدّ الجميع، أصل ومصير الرجل الاقتصادي؛ ومن ناحيةٍ أخرى، هي تصوير لقدرة الإنسانيّة على بناء علاقات جديدة، وإمكانيّات جديدة وعلاقات تضامن جديدة وسط الحاجة والرهبة والخوف.

فانويل: على وجه الخصوص، تنطلق المخيّلة في حرّية دراميّة في قلب هذه اللوحة، الأمر الذي يجعل المشهد لذيذاً. بالنسبة لي، هل يمكن أن تظهر اللوحة شهوانيّة الذكوريّة الوحشيّة -لهؤلاء الرجال الذين تحطّمت سفينتهم ويعانون من الهذيان لمدة ثلاثة عشر يوماً، ويشربون ماء البحر، ويأكلون الجلد ويستهلكون الميتة- جريمة الحبّ الخاصّة بأكَلة لحم البشر؛ كيف يتجاوز هؤلاء الرجال، وسط الحاجة والرهبة والخوف، المحرّمات، فيأكل بعضهم بعضاً؟ وربّما، كمشاهدين، نحن جميعاً مدعوّون إلى آلام حفلة مجون من نوع ما. لكنَّ حفلة المجون الشاذّة هذه (أليست جميع حفلات المجون شاذّة بشكل أو بآخر؟) ليست حفلة استكشاف وانفلات جنسي حصرياً، بل هي نوع مختلف من حفلات المجون، هي حفلة عدم معرفة كيف لا نكون كما في الصورة؛ لا يمكننا أن نقف خارج

هـذه اللوحـة السـاخرة المدركـة للـذات، وأن نـصرّح بأنّهـا ليسـت عـلى مـا هـي عليـه؛ نحـن لا نعـرف النهايـة، في هـذه اللحظـة -لا يمكننـا معرفـة النهايـة الآن- ولـذا فإنّنـا مجـبَرون عـلى أن نأخـذ في الحسـبان زماننـا المتغـيّر واحتمالاتـه. وبالتـالي، عـن هـذه اللوحـة، دعـوني أرى في السـيل المتدفّـق مـن الأجسـاد وعلاقاتهـا ببعضهـا البعـض، مـن حيـث كونهـا بجانـب بعضهـا البعـض، وتقـوم بأشـياء تـؤذي وتمتـع في آن معـاً، صـورة تطلـب مـن المشـاهدين الذيـن يعيشـون في هـذه اللحظـة التاريخيـة أن يعيـدوا النظـر في الحـدود الواقعـة بـين المتعـة والشـهوانيّة، والعنـف والحميميّـة، والهشاشـة والمـوت. في النهايـة، نحـن نـرى أنّـه في زمـن اللوحـة، يبـدو أنَّ التراتبيّـة الهرميّـة العرقيّـة التـي كانـت المـبرّر لرحلـة السـفينة قـد انهـارت، بـل ربّمـا انقلبـت: لدينـا شـكل جسـد أسـود، جسـد غـير أبيـض، وهـو مرفـوع إلى أعـلى، ينظـر نحـو المسـتقبل، يتذكّـر القـادم أو يعيـد نوعـاً مـا كتابـة مسـار رحلـة تلـك السـفينة. هـذه الإمكانيّـة قائمـة، أيضـاً، في هـذه اللوحـة.

فانويـل أنتـوي: أسـتاذ مسـاعد في اللغـة الإنجليزيـة في جامعـة كولومبيـا البريطانيّـة. وهـو يكتـب، ويبحـث ويـدرّس الدراسـات السـوداء النقديّـة، ودراسـات الاسـتعمار الاسـتيطاني، ودراسـات السـود في الأطلـسي والشـتات، والأدب والثقافـة الكنديَّـين منـذ العـام 1830، والنظريّـات العرقيـة النقديّـة، والنـوع الاجتماعـي، والجنسـانية والثقافـات الماديـة. وقـد نـشر مقـالات في كلٍّ مـن إنترفنشـنز، وأفينيتيـز، وسـتاديز إن كاناديـان ليتراتشـير. وهـو يقـوم حاليـاً باسـتكمال مـشروع بحجـم كتـاب بعنـوان "عمـلات السـواد: الأمانـة والبشاشـة والتهذيـب في كتابـات المسـتعمرين".

ماكـس هيفـين: باحـث في الثقافـة والإعـلام والعدالـة الاجتماعيـة في جامعـة ليكهيـد في شـمال غـرب أونتاريـو، وهـو مديـر مـشروع رايفـال للمخيّلـة الراديكاليّـة والعدالـة الاجتماعيّـة وإنهـاء الاسـتعمار. يكتـب ماكـس مقـالات أكاديميـة ولعامّـة القـرّاء، وهـو مؤلّـف الكتـب التاليـة: أزمـات المخيّلـة، أزمـات السـلطة: الرأسـماليّة، والإبـداع والمشـاع (2014)، المخيّلـة الراديكاليّـة: بحـث في الحركـة الاجتماعيّـة في عـصر التقشّـف (مـع أليكـس خسـنابيش، 2014)، وثقافـات التوسّـع المـالي: رأس المـال الوهمـي في الثقافـة الشـعبية والحيـاة اليوميـة (2014). أمّـا كتابـه الأخـير، الفـنّ وراء المـال، المـال وراء الفـنّ: اسـتراتيجيّات إبداعيّـة ضـدّ التوسّـع المـالي، فقـد نشرتـه دار بلوتـو سـنة 2018. كـما صـدر كتابـه انتقـام الرأسـماليّة: أشـباح الإمبراطوريّـة وشـياطين رأس المـال، وسـداد الديـون غـير القابلـة للدفـع في أيـار 2020.

Endnotes

1 Alhadeff, Albert. The Raft of the Medusa. Munich, London and New York: Prestel, 2002

2 وينتر، سيلفيا وكاثرين ماكيتريك، كارثة لا مثيل لها على جنسنا؟ أم إعطاء الإنسانية مستقبلاً مختلفاً: حوارات (Unparalleled Catastrophe for Our Species? Or, to Give Humanness a Different Future: Conversations)، في سلفيا وينتر، في: أن نكون إنسانيين كممارسة (On Being Human as Praxis)، تحرير: كاثرين ماكيتريك، 89-9. درهام، نيو كارولينا ولندن: مطبعة جامعة ديوك، ديوك، 2015.

3 Max Haiven and Alex Khasnabish. The Radical Imagination: Social Movement Research in the Age of Austerity. London and New York: Zed Books, 2014.

4 Jodi A. Byrd. The Transit of Empire: Indigenous Critiques of Colonialism. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2011.

5 Leroy, Justin. "Black History in Occupied Territory: On the Entanglements of Slavery and Settler Colonialism." Theory and Event 19, no. 4 (2016).

6 Denise Ferreira da Silva. "On Difference Without Separability." In Dear History, We Don't Need Another Hero, ed. Gabi Ngcobo, 57–65. Berlin: Berlin Biennale, 2018.

7 Ruth Wilson Gilmore. Golden Gulag: Prisons, Surplus, Crisis, and Opposition in Globalizing California. Berkeley: University of California Press, 2007.

8 Max Haiven. "The Colonial Secrets of Canada's Most Racist City." ROAR Magazine, 13 February 2019. https://roarmag.org/essays/colonial-secrets-canadas-racist-city/.

9 Audra Simpson. Mohawk Interruptus: Political Life across the Borders of Settler States. Durham: Duke University Press, 2014; Dory Nason. "Carceral Power and Indigenous Feminist Resurgence in D'Arcy McNickle's The Surrounded and Janet Campbell Hale's 'Claire'." American Indian Culture and Research Journal 40, no.1 (2016).

10 Michelle Daigle and Margaret Marietta Ramirez. "Decolonial Geographies." Keywords in Radical Geography: Antipode at 50, ed. Antipode Editorial Collective. New Jersey: Wiley Blackwell, 2019. 78–84.